الدكتور
صباح عبيد دراز
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

الأساليب الإنشائية
وأسرارها البلاغية
في القرآن الكريم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

الأساليب الإنشائية
وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم
الدكتور صباح عبيد دراز
الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٢٧٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٨٥٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
978-977-225-413-2

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة. غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دراز، صباح عبيد.
الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم / صباح عبيد دراز.-
القاهرة: مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠١٥
٢٧٢ صفحة؛ ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٤١٣ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القرآن، بلاغة
أ- العنوان

٢٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فهذه الطبعة الثانية من كتاب «الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم» بعد أن نفدت الطبعة الأولى بحمد الله ، وقد رغب إليَّ طلاب العلم والباحثون في البلاغة القرآنية أن أعيد طبع الكتاب بعد أن نفدت نسخ الطبعة الأولى .

والكتاب يتناول أساليب الاستفهام ، والأمر والنهي ، والنداء والتمني ، في القرآن الكريم ، وأساليب القرآن بدءًا من حروف المعاني إلى الألفاظ والتراكيب لها سمات منفردة وخصائص دقيقة وتلاؤم خارق ، بما به صار القرآن الكريم كلام الله تعالى معجزًا وخالدًا ، وبالغ التأثير في القلوب والعقول .

وأرجو الله أن ينفع بهذا الكتاب الباحثين عن البلاغة القرآنية والإفادة منها والقبس من أنوارها ، بما يجعل قضية الإعجاز بالغة حدها ، تؤتي ثمارها وتؤثر بأنوارها في قلوب العلماء ، ترقيًا بأذواقهم ، ونشرًا للأساليب الراقية للغة العربية ، بعد أن صار للعامية صولة وجولة وسدنة وكهنة وشعراء وأمراء .

والله المستعان والحمد لله رب العالمين .

دمنهور في : الإثنين ١٤ ربيع الأول ١٤٣٦هـ

الموافق : ٤ يناير ٢٠١٥م

دكتور

صبَّاح عبيد دراز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بجلاله وكماله ، وشكرا يوافي نعمه وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى . وبعد :

فإن الاستشراف إلى كتاب الله تعالى ، ومحاولة استشفاف من أسرار البلاغية أمر جد خطير ، لولا عون من الله تعالى ثم إن استيفاء الحديث الجاد عن لون بلاغي والتعرف على أساليبه وكشف سماته ، قد يستغرق جهدًا وعمرًا مديدًا لمن هيأ الله له وسائل البحث الموفق .

ولذا فمن الغريب أن تجد باحثًا يتناول في كتاب بلاغي أدوات القرآن أو حروفه ، أو ألفاظه ودلالاتها ، أو تراكيبه وأسرارها ، أو الوجوه البلاغية فيه ، وقد وجدنا من ذلك نماذج فيها خواطر طيبة ، وشذرات بارقة من العلم والحكمة ، لكن لن تجد هذا البحث الموضوعي الذي ينقع غلة أو يضيف لبنة إلى صرح البلاغة القرآنية ، وأعني بذلك هذا التعمق الجاد ، والاستقصاء الحذر للأساليب ـ قدر الوسع ـ ومراجعة هذا الحشد من آراء العلماء ، وهي آراء لم تطلق من فراغ بل حكمت بسنن من العقل والشرع واللغة ، ثم إن طبيعة الجملة القرآنية في تركيبها وصياغتها ، وإيجازها ، وطريقة نظمها ، وقوة نظمها ، ووفرة تأويلها ، ومديد إشعاعها . منحت العلماء سعة الوجهات والآراء .

كما كان لطريقة البحث عند علمائنا الأجلاء أثرها في المعالجة أعني ما ورثناه عن السلف في تواليفهم في أسرار اللغة وفلسفتها ودقائقها في نحوها ومعاجمها ، وما عالجت فيها من آيات القرآن استشهادًا وتأصيلاً لقوانينها ، وفي علوم القرآن والتفسير والبلاغة قرآنية أو عامة ، ولا شك أن العكوف على هذه الكنوز ـ فيما يخص موضوعًا قرآنيًا ما ـ على ضوء الموازنات الأسلوبية القرآنية ذاتها سيعين على ظهور كثير مما خفى من أسرار القرآن ، وهي أسرار تسع عمر الحياة والأحياء أبدًا .

والواقع أن هذا المنهج لا يصبر على لأوائه إلا أولو العزم ، وقد عاصرنا منهم نماذج سامقة مشرقة ، ونرجو الله أن يوفقنا للسير على نهجهم القاصد وبلائهم المصابر الناجح .

ودع عنك هذا التلفيق العابث والترقيع الهاذر مما تخرجه المطابع وبخاصة في دائرة البلاغة القرآنية عناوين مثيرة لافتة ، وسرابات لامعة ، ثم خواء وهواء كلمة من هنا ، ورأي من هناك لا يرجعون رأيا إلى مصدره ولا يتبعون فكرة إلى قرارها، ولا يعنيهم مما عني العلماء في كشف الأستار عن دلالة الأدوات أو الكلمات أو الأساليب ، ولا ما تسلطه الموازنات الأسلوبية من باهر الضوء على قانون بلاغي أو سمة فنية أو منحى تركيبي ، وبخاصة أن التلاؤم القرآني معجز في دقته الخارقة ، ولكل ذلك شأن خطير .

ولعل مما يحزن أن تجد شباب الباحثين وقد تحصرموا قبل ينع ، وفطموا قبل حول ، تذوي بين أيديهم ما يعالجون من موضوعات قرآنية ولا تورق ، وتموت من جفاف ولا تحيا من عطاء ، وقد يكون هذا سببًا كافيًا لهذا السيل المنهمر الذي تقذفه المطابع .

وقد تجد كتبًا تتجاوز أصابع اليدين عدًّا لمؤلف شاب لم تعنه قضية بلاغية بين الزمخشري وأبي حيان مثلاً ، ولا فكرة دلالية بين النحاة والبلاغيين . وما أكثر ما ظلم النحاة على العموم وأكثرهم أئمة كبار عند ابن الأثير أن جادل بعضهم في عصره ممن لم يذكره التاريخ فقسا في حكمه المطلق ، وزاده الغرور والصلف إمعانًا في القسوة والخطأ .

أريد أن أقول إن البحث العلمي يجب أن ينضج على مهل وأن يقدم في ريث وروية ، ودع عنك أيضًا نوعا من الباحثين تعرفهم في كتبهم بسيماهم ، يقرأون في سرعة قافزة فقرات من كتب التراث ، قد تنتمي لمنهج خاص أو رأي معين ، بله كتبًا كاملة أو مدارس بآثارها ثم يرتدون ثوب القاضي الوقور ، ويصدرون أحكامًا ضخمة تدين عبد القاهر أو النحاة أو التراث كله ، إنهم يمثلون ملهاة مضحكة مبكية معًا ، وإنهم لبلاء هذا الزمان يلوون ألسنتهم ليظن بهم العلم وبينهم وبينه بعد المشرقين .

والبحث الذي بين يديك لا يدعي كمالاً بل فيه ما في النشاط البشري من قصور ، وإن هو إلا محاولة اجتهدت أن تترسم خطأ العلماء ، وابتهلت إلى الله أن يهبها ، من لدنه قبولاً وتوفيقًا ورشدًا ، وأن يخلص بها القصد وينفع بها من يشاء .

والبحث دار حول أساليب الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني في القرآن على نحو ينطلق من المنهج البلاغي .

وهنا أمر يحسن التنبيه إليه يتعلق بذكر المراجع ، ذلك أنني كنت أحيانًا أجد رأيًا قد نسب خطأ إلى عالم كالزمخشري ، واشتهر ذلك ، بينما سبقه إليه عالم آخر كالطبري أو فكرة نسبت إلى السكاكي وهي للزمخشري ، فكنت

حريصًا على تتبع الرأي إلى مصدره الأصيل ، وكيف تطور على أيدي اللاحقين وهذا ـ فيما وقع لي علم به ـ إذ لم يكن المنهج التاريخي مما يشغل البحث ، أما فيما اتفقت فيه كلمة العلماء فغالبًا أذكر ما اكتملت عنده الفكرة إحاطة وصياغة عند الزمخشري أو السكاكي أو السبكي أو الشهاب أو أبي السعود . وقد يحدث أن يختلف الرأي وتتقابل النظرة ، وهنا لا بد من ذكر المصادر إتمامًا للفائدة .

والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة : الإثنين ٢٠ من رجب ١٤٠٦هـ .

الموافق : ٣١ من مارس ١٩٨٦ م .

دكتور

صباح عبيد دراز

الأساليب الإنشائية
وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم

الإنشاء :

الإنشاء لغة : الإيجاد والإحداث والإبداع وهو في التصنيف البلاغي يقابل الخبر : وهو العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر ، والإنشاء : إيجاد معنى بلفظ يقارنه في الوجود ، وقد قالوا إن الخبر : ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وقولهم لذاته : يخرج ما تدل القرائن والدلائل على تعين صدقه كالقرآن الكريم وحديث النبي ﷺ[1] .

وهذا التعريف البلاغي مأخوذ عن أهل المنطق وبعض الأصوليين[2] . وقد رده الإمام الرازي : إذ لا يمكن تعريف الصدق والكذب إلا بالخبر ، فلو عرف بهما لزم الدور ، على أن الحد ليس شاملاً لخبر الله تعالى وأنبيائه وما تواتر صدقه[3] .

والواقع أن لنا تحفظًا في إطلاق الخبر بهذا المفهوم ـ وعلى إطلاقه ـ على القرآن الكريم والحديث النبوي ، ذلك أن الخبر حين يكون محقق الوقوع ذا فائدة جليلة يحصل به علم أو غلبة ظن يطلق عليه بهذه القيود نبأ ، فحق الخبر الذي يقال له نبأ ـ كما ذكر الراغب ـ أن يتعرى عن الكذب كخبر الله تعالى وخبر نبيه ﷺ والتواتر ، ولذا سمى الله القرآن وما فيه نبأ ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١

---

(١) راجع الإيضاح للقزوينى ص ٨٦ وحاشية الدسوقي ١٦٤/١.

(٢) راجع الإبهاج في شرح المنهاج لعلي السبكي ٢١٨/١ .

(٣) راجع المحصول في علم الأصول للرازي قسم ١ ، ٣١٠/٢.

عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (النبأ: ٢،١) ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴾ (ص:٦٧) [١] ومنه النبوة والنبي لإنبائه عن الله صدقًا ما تسكن إليه العقول .

ومن عجيب أن مادة النبأ فعلاً ومصدرًا جاءت في ١٢٠ أسلوبًا قرآنيًا ، والنبي معرفًا ومنكرًا جاء في ٨٠ أسلوبًا ، ولتضمن النبأ معنى العلم قيل أنبأته كذا كقولك : أعلمته كذا ، والفعل جاء على صورتين ، نبأ بالتضعيف وأنبأ[٢] وذلك في مقام الاحتشاد والصدق والتحقيق لقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (التحريم:٣) وكان من الممكن الاكتفاء بهذا التعريف للخبر دون التكلف والإسراف في نقل ما هو دخيل على البلاغة من محاولة تحديد الخبر ، ونقل ما رآه النظام والجاحظ والرد عليها ، وتعجب للسكاكي ينقد التعريف «ما يحتمل الصدق والكذب لذاته» لتوقف العلم بالصادق والكاذب على الخبر ففيه دور ، ثم يومئ إلى ما ذكر الراغب سابقًا من أن الخبر هو القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات ، ثم يندفع في إيراد إشكالات منطقية والرد عليها ، وقد لخص الرازي في المحصول اعتراضه وزاد عليه بأن تصور ماهية الخبر غني عن التعريف وهذا من لمحاته الفريدة[٣] ثم إن مادة الخبر بفتحتين لم ترد مفردة أو جمعًا إلا في خمسة مواطن سبقت أو تليت بما يؤكد صدقها كقوله تعالى ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (التوبة:٩٤) ﴿ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد:٣١) أي نمحص ، والفاعل فيهما الله تعالى ظاهرًا أو مضمرًا ، وعن الأرض يوم القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة:٤،٥) فهو وحي

---

(١) راجع مفردات الراغب ص ٤٤١ .

(٢) راجع في مادة النبأ : الراغب ص ٤٨٢ ، ٤٩٤ ، ١٤١ والمعجم المفهرس ، أحمد عبد الباقي ٢٢٦ .

(٣) راجع مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٦٤ والمحصول للرازي ح٢ ق ١/٣١٠ .

وإلهام وخبر خاص ، وعلى لسان موسى عليه السلام يخاطب أهله حين رأى نارًا في الوادي المقدس طوى ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ (طه:١٠) وفي النمل ﴿ سَقَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ (النمل:٧)، كما جاء في المادة خبر بضم فسكون بمعنى الإحاطة التامة بظاهر الأشياء وباطنها ، ومنها «خبير» من أسماء الله الحسنى ، وجاء مرة بمعنى مطلع على أسرار الأمور ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤)[1] وعلى هذا فقولهم : الخبر احتمال الصدق والكذب لذاته أي مجردًا عن دلائل مرجحة ، قول لا يثبت فيما يتعلق بالقرآن والحديث ، وقد أخذنا من القرآن وأطلنا في التحليل لأن هذا القول شائع جدًا فيما ألف من كتب حديثة ، ومن الممكن مع بعض التجاوز إبقاء هذا القول خاصًا بالبلاغة البشرية لأن لفكرة الصدق الفني بجانب الصدق العقلي شأنًا في فن القول ، أما بلاغة القرآن فلا شك أن هناك عديدًا من الاصطلاحات البلاغية لا يمكن أن تقترب من حماه .

والفرق البلاغي بين الخبر والإنشاء مصبوغ بالدقة والإغراق في العمق ويمكن استخلاصه من مجاذبات العلماء ، ذلك أن للكلام ثلاث نسب ، والنسبة هي تعلق أحد جزأي الكلام بالآخر بحيث يصح السكوت عليه[2] .

١- نسبة كلامية : وهي ما يفهم من الكلام لغة نحو : محمد رسول الله ، ونحو ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ففيه إثبات الرسالة لمحمد ﷺ والأمر له بالصبر على قضاء الله وحكمه من ظاهر الأسلوب .

٢- نسبة ذهنية : وهي الصورة المعنوية للكلام ضرورة أن الكلام نظام مرتب حسب ترتيب المعاني في النفس ، فأنت تدير المعاني في نفسك وترتبها

---

(١) وراجع المعجم المفهرس ص ٢٢٦ .

(٢) راجع الأطول للعصام ٤٣/١ .

على قانون العقل ، ثم تلفظ بها منسقة منظومة على قانون النحو ، وهذا التحليل من النفس والذهن أو العقل والنطق به تتبع للعملية الفنية عند البشر تتبعًا زمنيًّا مفترضًا ، بعيدًا عما يتصل بالله تعالى من كلامه المقدس وصفات كماله ، فهي من المتشابه الذي تنازعته الفرق الإسلامية توقفًا ، وتأويلاً دفعًا للقول المفترى بخلق القرآن .

٣- نسبة خارجية : وهي تحقق معنى الكلام أو عدم تحققه في الخارج ، بمعنى تحقيق نسبته الكلامية والذهنية - ويسميها بعضهم الواقعية بمعنى الواقع النفسي - في الواقع المعاش .

وهذه النسب الثلاث موجودة في الخبر والإنشاء على السواء ، كما حقق الدسوقي رادًّا على القزويني والعصام ، والفرق أن في الخبر تقصد الحكاية ومطابقة النسب أو يقصد عدمها بمعنى حكاية المعنى الحاصل في الخارج ، بينما الإنشاء لا يقصد فيه إلى المطابقة ، بل إحداث مدلول الإنشاء وإيجاده بذلك اللفظ ، فنسب الإنشاء ليست حاكية بل محضرة ليترتب عليها وجود أو ترك أو ثمن أو تعجب ونحو ذلك[1].

وثَمَّ شيء آخر هو أن وجود هذه النسب كاملة أغلبي ، فهناك بعض الأخبار ليس لها وجود خارجي بل وجود نفسي فقط توصف بالصدق حين تطابق النسبة الكلامية أو الكذب حين لا تطابقها والفيصل في ذلك القرائن ، وقد جاء كثيرًا في شأن المنافقين حين يكذبون في شأن المنافقين حين يكذبون فيفضح الله أعماقهم كقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ (آل عمران:١١٩) ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ (التوبة:٥٦).

---

(١) راجع الأطول ٤٤/١ وحاشية الدسوقي ١٦٤/١ .

وقد كثر مجيء مادة الحلف فيما يكذب فيه المنافقون[1]، وقد قدم القرآن وبخاصة في سور التوبة والمنافقون والبقرة صورًا عديدة مثيرة لافتراءاتهم وكذباتهم والتواء سرائرهم .

ومع أن الإنشاء لا يقصد فيه مطابقة النسب ، لكن إن وافقت النسبة الكلامية ما في النفس وعالمها المائج بالشعور كان المتكلم صادقًا في التعبير عن ذاته وخلجاته ، وإلا كان مستترًا وراء قناع من الكذب ، وإن هي إلا رمية لسان أو قذفة بهتان ، أو تبرير أو تعريض أو ختال . كما في أيمان المنافقين السابقة وثَمَّ آية توقف عندها العلماء قول الله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (الأنعام:٢٧،٢٨) فالتمني إنشاء لا يداخله صدق أو كذب فكيف جاء ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

قال في الكشاف « إن هذا التمني قد تضمن معنى الخبر والعدة فإذا كانت سجية الإنسان شيئًا ثم تمنى ما يخالف سجيته صح وصفه بالكذب على تجوز في تمني المستقبلات واقتصر على هذا الوجه أبو السعود والبهاء السبكي لقوته ، وزاد أبو حيان : بجواز أن يكون قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ إخبار من الله أن سجية هؤلاء الكذب حكاية عن حالهم في الدنيا ولا تعلق له بمتعلق التمني ، وفيه بعد ، وقرئ برفع الفعل على الاستئناف : ولا نكذب أي وقالوا نحن لا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين ، فيصح على هذا تكذيبهم في هذا الإخبار ، ورجح سيبويه هذا الوجه وشبهه بقوله «دعني ولا أعود» بمعنى وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني[2].

---

(١) راجع الإعجاز البياني للدكتورة بنت الشاطئ ص ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) راجع في الآية الكشاف للزمخشرى ١٣/٢ والبحر المحيط ، أبو حيان ١٠٢/٤ وتفسير إرشاد العقل السليم ، أبو السعود ١٢٣/٣ وشروح التلخيص ٢٤٦/٢ .

والواقع أن فكرة الصدق والكذب مهما كان الدافع إليها من الشئون العقدية والجدلية أو من الشئون البلاغية المتأثرة بالمنطق والأصول هي لا تبعد كثيراً عن مقولة الصدق الفني بمعنى أن يكون المبدع صادقًا مع نفسه في التعبير بفنه عن أحاسيسه تلك المقولة التي ارتبطت بكثير من المدارس النقدية الحديثة وشاع استعمالها في كتب النقد الحديث التي ترجعها أحيانًا إلى الغرب ومذاهبه الفنية . هي كما قلت ليست بعيدة الدلالة عن الفكرة في التراث العربي .

ثم إن أساليب الإنشاء إذا قصد حكايتها أي حكاية النسبة النفسية بقولك استفهم ، وأقسم بالله وتمنى كانت أخبارًا كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ (النور:٥٣) وقال ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ﴾ (الأنفال:١) و﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ (يونس:٥٣)[1]. فهي أخبار عن أحداث وقعت ومطلوبات في الخارج تحكى وليس إنشاء .

كما أن الأخبار إذا كانت حادثة في الواقع وتوجه إليها الإنشاء أريد بها معنى آخر مما سوف نفصله في أبواب الإنشاء ـ كطلب الدوام والثبات في الأمر والنهي كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (الأحزاب:١) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (النساء:١٣٦) والمعنى : داوم واثبت على تقوى الله تعالى وداوم على عدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، وداوموا على الإيمان بالله ورسوله ، وفيه حث وإلهاب على متابعة الحدث والاستمرار فيه نهجًا وأصلاً .

وليست الصورة اللفظية أو الشكلية فيصلاً بين الخبر والإنشاء ، والمهم المعنى ، فإذا كان الأسلوب خبرًا في اللفظ إنشاء في المعنى فهو إنشاء كالدعاء

---

(١) راجع المطول للتفتازاني ص ٢٢٤ وتقرير الإمبابي ٩٧/٣ .

بصيغة الاستعاذة في قول الله تعالى ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧،٩٨) .

وقول الله : ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠) وقال عن الوليد ابن المغيرة ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (المدثر:١٩،٢٠) والقتل إما بمعنى اللعن والطرد ، وإما أنه تعبير جاء على النهج العربي عند التعجيب والاستعظام يقولون «قتله الله ما أشجعه ، وقاتله ما أشعره» .

وليس تعجبًا كما قال النيسابوري بل تعجيب من تقديره ، أو ثناء عليه بطريق الاستهزاء أو حكاية لما كرروه من قولهم قتل كيف قدر والأولى أنه تعجيب من جراءته وتطاوله على البهتان وفيه شيء من السخرية والدلالة العربية لقولهم : قتله الله ما أشجعه أنه بلغ من الشجاعة مبلغًا يدعو عليه حاسده[1] .

وفي قولك غفر الله لك ، وأكرم فلانًا ، وصلى الله على محمد ورضي عن صحابته دعاء صيغ على الخبر وكأنه أجيب وأنت تخبر عن وقوع الإجابة أمل نفسي ومطمع قلبي في تحقيقه ، فكأن رغبتك تسبق دعوتك وله في القرآن نظائر كذكر القرآن لقوم نوح وتفصيل انتقامه في سوره نوح سابقًا ولاحقًا لدعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح:٢٥،٢٦) فالإجابة سبقت الدعاء لأنها أقدار ماضية ، وأسباب ظاهرة ، وبخاصة بعد أن قدمت مظاهر إعراضهم وكفرهم وصدهم عن الدعوة قرونًا متطاولة ، مما يجعل الجزاء استحقاقًا عادلاً لا يتخلف . وقد

---

(١) راجع الغرائب للنيسابوري على الطبري ٨٦/٢٨ وأبا السعود ٥٧/٦ ونظم الدرر للبقاعي ٢١/٢٩ .

قسم الإنشاء إلى طلبي وهو ما يستدعى مطلوبًا غير حادث وقت الطلب كالأمر والنهي والتمني والدعاء والنداء والاستفهام ، وإلى غير طلبي وهو ما لا يستدعى مطلوبًا بل هو تصوير لذات المتكلم وما يدور في أعماقه مما له علاقة بالموقف وبنظم الكلام كالقسم والمدح والذم والتعجب وصيغ الرجاء والعقود .

* * *

أسلوب الأمر

الأمر في اللغة واحد الأوامر وهو في عمومه بمعنى التقدم بالشيء سواء كان بصيغه المعروفة أم بالخبر كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ ـ أم بالإشارة أم بغير ذلك ـ فقد سمي إسماعيل ما رآه أبوه إبراهيم عليهما السلام في الرؤيا أمرًا ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وزاد الراغب أنه يقال للإبداع أمر ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق كقوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ وقد حمل عليه ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ وقد يراد بالأمر المأمور به إيجادًا وعدمًا من إطلاق المصدر على المفعول كقوله تعالى ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي المأمور به ، وذكر أبو السعود في تفسير الأمر هنا ما وعد الله تعالى نوحًا من إهلاك قومه وإنجائه بأهله ، فالأمر عنده بمعنى الشأن ، وقد غلبت لدلالتان للأمر بمعنى الشأن واحد الأمور والأمر ضد النهي واحد الأوامر ، وزاد ابن فارس ثلاثة أصول أخرى عادة أمر : الأمر بمعنى المعلم من العلامة الأمر بكسر الهمزة العجب ، والأمر بفتحتين البركة والنماء والواقع أن هذه الدلالة قليلة في الاستعمال القرآني والغالب الأوليان[1].

وعند البلاغيين : طلب فعل طلبًا جازمًا غير كفء على جهة الاستعلاء ومعنى الاستعلاء عند الآمر نفسه عاليًا سواء كان عاليًا في نفسه أم لا ، ويرى الرازي عدم التقييد بالاستعلاء واستدل بقول فرعون لملئه بشأن موسى عليه السلام ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وأجيب بأن الأمر بمعنى المشورة والفعل هنا على أن فرعون كان مستعليًا لهم .

---

(١) راجع في تحرير الدلالة مفردات الراغب ص ٢٥ ومعجم ألفاظ القرآن ٥١/١ ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٣٧/١ وأبي السعود ٢١١/٤ .

أما إفادته الوجوب أو الفور أو التراخي أو التكرار أو الاستمرار فبمعونة القرائن. وقد كان هذا موضع خلاف بين الأصوليين[1].

وله أربع صيغ :

١- فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ (مريم:١٢).

٢- المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (الطلاق:٧) .

٣- اسم فعل الأمر ويسمى أمرًا عند البلاغيين لا النحاة كقوله تعالى ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (المائدة:١٠٥).

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ (محمد:٤).

المعاني البلاغية لصيغة الأمر :

وصيغة الأمر قد تستعمل في غير الطلب فتعيد معاني أخرى عديدة تفاد من السياق وقرائن الكلام ، وفي القرآن الكريم تجد النظم كله بكلماته وإيقاعاته يسهم في تجلية المعنى وبعث الحياة فيه . وهذه المعاني قد أوصلها السبكي خمسة وعشرين[2] ويمكن تداخل هذه الأقسام ، وننبه هنا أن النص على معنى بلاغي واحد في الأسلوب ـ عند العلماء ـ لا يعني أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته ، وإلا فإن أي أسلوب إنشائي سواء كان أمرًا أم غيره يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية وهي معان شعورية أو نفسية وعقلية ، ولهذا فقد نجد اختلافًا في تسمية هذا المعنى أو تعيينه بين العلماء لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة والآن إلى ألوان من هذه المعاني :

---

(١) راجع في الاستعلاء وما بعدها عروس الأفراح للسبكي ٣١٠/٣ والمحصول للرازي ق٢ ٤٥/١ ، ١٨٩ والإبهاج في شرح المنهاج للسبكي ٦/٢ ، ٤٢ ، ٥١ ، ومغني اللبيب في أصول الفقه لابن هشام ٣٩ والإمبابي ١٦٣/٣.

(٢) عروس الأفراح للسبكي ٣١٢/٢-٣٢٢ .

١- إثارة التأمل والاعتبار

كقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩٩) والواقع أن للفعل نظر شأنًا في القرآن .

الفعل نظر : دلالة وموازنة .

والفعل جاء في القرآن معدى بنفسه نحو : ﴿ يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ (النبأ:٤٠) ومعدى بفي وإلى نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ (التوبة:١٢٧). وعن إبراهيم عليه السلام ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴾ (الصافات:٨٨،٨٩) قالوا نظر في علم النجوم أو في كتابها لشهرتهم في ذلك وأوهمهم بأنه استدل بأمارة فيها على أنه مشارف للقسم المعدى فهربوا منه وتركوه في بيت الأصنام إلى عيدهم[1] . كما جاء مضمنًا معنى اللازم اقتصارًا على الوصف والحدث كقوله تعالى في الوليد ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ (المدثر:٢١،٢٢).

أما دلالته :

فقد جاء بمعنى إثبات الباصرة في الشيء وتأمله معاينة تحقيقًا لغرض ما كقوله تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ (الأعراف:١٤٣) وهو أصل المعنى لأنه حسي ، وجاء قليلاً في القرآن الكريم وحتى في هذا القليل قارنته معان عديدة : تأمل قول موسى : لم يجرؤ أن يطلب الرؤية الجليلة دفعة واحدة بل جاء بفعلين دلالتهما متقاربة فقال : أرني ولم يقل ذاتك خوفًا ورهبة فجعلها مطلقة ثم تدرج : أنظر إليك ، فهو نظر يبتدئ من الأدنى إلى الجليل الأعلى كما تدل الصياغة على هذا التوجس والقلق والخوف فلم يفصح بمطلوبه دفعة واحدة ، وهذه المعاني وغيرها ينشرها الفعل أرني ـ أنظر وتوحي بها الصياغة .

---

(١) راجع البحر المحيط ٣٦٦/٧ .

كما جاء بمعنى العلم ومنه النظر المسند إلى الله تعالى وهو معنى كنائي كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٤).

كما جاء بمعنى الترقب والتوقع ، قال أحمد بن فارس في تفسير هذه الدلالة في نحو قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ونظرتك : كأنه ينظر إلى الوقت الذي تأتى فيه[1].

أما النظر بمعنى التدبر والتأمل والاعتبار فهو أكثرها وروداً في القرآن ، وقد يكون مبنيًا على تصويب المقلتين ورفع البصر[2] . وقد يخلص للاعتبار إذا منع من المعنى الحسي الأول مانع .

ثم إن الأمر بالتدبر والتأمل قد يكون في آيات الله المبثوثة في الكون من مشاهد الطبيعة وآيات الخالق والقدرة ما عظم منها وما دق ، إثارة لمعاني الجمال والجلال والانفعال بالآيات في النفس البشرية ؛ لأن الله خلق للجمال حاسة وملكة في النفس تنجذب للجميل فطرة ، وصمم الحواس على نحو تدرك به مظاهر الحسن وروح الجمال في الجميل لا لأن الجمال تلاؤم وحسن تنسيق أو حرية الحركة كما يرى العقاد ، بل لأن للجميل روحًا تهش إليها النفس ويميل إليها القلب على نحو ما فصل فلاسفة المسلمين كالغزالي وبعض الأدباء النقدة ذوي الحس المرهف كابن الأثير ، ثم توظيف هذا الانفعال بالجمال والجلال والإبداع والتلاؤم المعجز مع ترقية الحس والملكات النفسية توصلا إلى المؤثر المبدع الخالق ذي الجلال والإكرام ، وهذا يعد عند كثير من العلماء من دلائل توحيد الله حثا على تأمل حكمته وإبداعه في خلقها .

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٤٤٤/٥ .

(٢) راجع المفردات للراغب ص ٤٩٧ .

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١) والخطاب للكافرين بعثًا لهم على إعمال فكرهم المتعطل أن يفكروا فيما يحيط بهم وقيل إن الخطاب عام .

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس:٢٤-٣١) .

والطعام بمعنى المطعوم ، والآيات تأمر الإنسان أن ينظر ببصره وبصيرته في صنائع الله له في طعامه ويعدد النعم المتعلقة ببقائه ، والخيال يتابع هذه المشاهد الحركية والأحداث المتعاقبة من صب الماء وشق الأرض وإنبات ما اختلف لونًا وطعمًا ونفعًا ومكانًا وزمانًا ونوعًا وفاكهة وغذاء ، آثار رحمته ومنته وقدرته لا يقدر عليها سواه ولذا كثرت (نا) الدالة على العظمة والتفرد العالي بالإبداع والإنشاء[1].

ومن سياق آيات في سورة الروم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ثم يقول القرآن ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم:٤٨-٥٠).

والآية الأولى تثير الانتباه وتشغل العقل عن هذه العملية الخارقة التي تتم في طبقات الجو بعيدًا عن متناول الإنسان : مخلوقات مسخرة موجهة متفاعلة واعدة بيد القدرة ، إرسال الرياح وإثارة السحاب وبسطه ثم تراكمه وتجاذبه وتلاقحه ، ثم يتحول ودقًا غائثًا مبشرا ، والأفعال مضارعة حالية مصورة إعانة

---

(١) راجع في الآية البحر المحيط ، لأبي حيان ٤٢٩/٨ ونظم الدرر للبقاعي ٢٦٤/٢١ .

على إطالة الصورة ودوران العقل والخيال حولها وبخاصة العقل العلمي الذي في هذه التصويرات عونًا على بحثه في ظواهر الجو المثيرة .

ثم تكتفي الآية بالقول ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ ما إن ينزل الغيث حتى تنفض الأرض غطاءها الترابي ليتحول زرعًا وخضرة وأشجارًا ما لعطائها نفاد ، والفعل انظر فيه هذا الإدلال بالنعمة والمن بالعطاء والتنبيه على دوام الشكر والتوجيه إلى سعة رحمته وجليل قدرته ودائم نعمته[1].

وقريب من ذلك آية الأنعام وحولها يدنون العلماء ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٩٩) .

وهذه الآيات جاءت خاتمة خمس آيات شريفات تبصر بآثار القدرة والعلم والرحمة والإحسان للصانع المبدع سبحانه في لوحات تطوف بعالم الحب والنوى وتوالد الأحياء والإصباح والإمساء والشمس والقمر والنجوم هاديات في ظلمات البر والبحر وأحوال الإنسان بين الصلب والترائب والمستقر والمستودع آيات ٩٥-٩٩ ثم آية الماء النازل من السماء تخرج به نبات كل شيء ألوانًا وأفنانًا متنوعة الأنواع والألوان والطعوم والفوائد والآثار ، وقدم الزرع غذاء ، ثم تتسع الصورة للنخل سامقا برطبه غذاء وفاكهة ، ثم هاتيك الجنات المختلفات الألوان والعطاء المشبعة للعيون النهمة إلى الجمال والأذان التي تشنفها فاتن الألحان ، ثم هذا الدائم الخضرة المتنوع الفائدة الزيتون والرمان بعض أولئك متشابه هيئة ولونًا وطعمًا ومقدارًا وبعض غير متشابه ، وقد ألمح أبو حيان إلى شيء من أسرار الترتيب في الآية وحسن مساقه ، فقد بدأ بالزرع حبًّا متراكبًا

---

(١) راجع تفسير أبي السعود ٦٥/٧ .

قبل ذكر النخيل تلاؤمًا مع البدء صدر الآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ثم رتب الأنواع حسب الغذاء من زرع ونخل لأنه غذاء عند العرب ثم رتب بين الفاكهة حسب الأهمية».

والمهم أن هذه الأنواع متنقلة كما قال في الكشاف في الألوان والمذاق والقبول من حال إلى حال . وليس هذا دالاً فحسب على وجود الصانع القادر الرحيم المنعم ـ كما قال الرازي ـ مما هو داخل تحت الاعتبار والاستبصار كما عبر في البحر بل إشباعًا كما قلت لما ركب الله في الإنسان من حاسة تميل إلى الجميل فيما سخر له من الأكوان ولفتا إلى تأمل هذه الظواهر الكونية والبحث عن أسرارها والاهتداء بإشارات القرآن في اقتبالها ومعرفة أسرارها إعانة على تحقيق الخلافة في الأرض .

وفي قوله : ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ عند بدء الإثمار ثم عند تمامه وكمال ترقيه ـ كما سبق ـ للأحاسيس العليا وإعلاء لعاطفة الجمال والخير[1].

ولذا لم يقل «كلوا» كما قال في الآية التالية التي نعقد بينهما هذه الموازنة . قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام:١٤١) وتلحظ معي من الموازنة ما يلي :

١- في الآية الأولى أمر بالنظر في الأحوال والاعتبار بالمتغيرات والاستدلال على وجود الصانع وما تحصل به من معرفة الخالق والسعادة الروحانية الأبدية ، وهذا مقدم على فكرة الانتفاع المادي في الآية الثانية التي أخرها

---

(١) راجع في الآية الكشاف للزمخشري ٤/٢ وتفسير الرازي ١٠٥/١٣-١١١ والبحر المحيط ١٩١/٤ وتفسير أبي السعود ١٦٧/٣ وتفسير الآلوسي ٢٤٠/٨ .

لذلك ـ ولذا قدم الزرع ـ والله أعلم ـ في الآية الأولى لأنه سريع التغير والتحول تناسبًا مع غرض الآية ، وقدم النخل في الثانية لأنه جل اهتمام العرب ، فقد كان للنخلة أثر في حياتهم وفي لغتهم أيضًا ، وذكر الزرع مرتبة تالية للنخل وهو مناسب للانتفاع وصرف جزء الفقراء .

٢- لما كان الاعتبار والتأمل مقصد الآية الأولى ذكر فعل النظر وعلقه بالثمر بدء الإثمار ونهايته لما يتوالى على الثمر من تغير في اللون والرائحة والهيئة وكلمة: «ينعه» لها وقع نفسي جمالي خاص مناسب للفعل «انظر» مرادًا به عميق التأمل والتأثر ، أما الآية الثانية فجاءت في سياق يبين ما أحل الله وما حرم من خير الأرض والأنعام وما هو مباح للانتفاع ووقته وحق الله تعالى للفقراء .

ولذلك : أتى بالفعل «كلوا» إفادة لترجيح جانب الفعل وقيده ببدء الإثمار إباحة للمضطر وغيره أن ينتفع ـ بالمعروف ـ قبل إخراج الحق ، لأن رعاية النفس كما قالوا ـ مقدمة على رعاية الغير ، ثم إن الأصل في الأشياء الإباحة ومن هنا قدم الفعل جاريًا مجرى قوله ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1] وفيه الامتنان وطلب الشكر .

٣- ثم إن إطالة الآية الأولى ملائمة لفكرة الاعتبار ، فقد اتسعت اللوحات أو المشاهد زمنًا وأحداثًا أو كثرة جزئيات وهي مشاهد متوالدة متداخلة يخرج من المنظر منظر آخر ، ومن هنا تكرر الفعل أخرج ، ونخرج : ثلاثًا ، فالخضر يخرج من النبات والحب المتراكب يخرج من الزرع

---

(١) راجع في الآيتين : الكشاف للزمخشري ٢/٤١ / ٢/٥٦ ، وتفسير الرازي ١٣/١٠٥، ١١٢، ١٣/٢١١ والبحر المحيط ٤/١٩١ وتفسير أبي السعود ٣/١٦٧ وتفسير الآلوسي ٨/٣٨-٢٤٠.

والخضر ، ومعنى التبديل والإخراج قائم في القنوان الدانية في النخل ، وهنا جنات على الإطلاق فهو مشهد عام ولذا كان التعبير مشتبهًا أدل على التداخل وقرب الشبه بين الثمار ، وفي الآية الثانية : ذكر الجنات المعروشات وغير المعروشات دلالة على تدخل اليد الإنسانية عناية واهتمامًا بالانتفاع ، وجاءت مادة الأكل مرتين : (مختلفًا أكله ـ كلوا) والمشاهد قصيرة لهذه الغاية ، ثم إنه لم يذكر : الينع أي نهاية الإثمار لأن إباحة الأكل وقت الإثمار منسحبة على ما بعده من أوقات ، ومنها حال النضج التام ، فهنا أمر تشريعي : الإباحة ـ وإخراج الحق لذويه والنهي عن الإسراف والتحذير منه لأنها نعم يجب أن توضع موضعها .

بينما الآية الأولى : عقبت بما يدل على أثرها في القلوب الصافية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ باسم الإشارة المفخم ، والجمع والتنكير المغنى عن الوصف أي آيات جليلات مؤثرات مع تكرار تأكيد هذه الحقيقة وهي آيات ينتفع بها المؤمنون .

وكلمة المؤمن بما فيها من رقة وشفافية وصفاء مناسبة لهذه المشاهد الجليلة الجميلة .

وعمومًا فالواضح من هذه الآيات الكونية وهي قل من كثر من آيات القرآن التي تعالج هذا الموضوع تمام التلاؤم ، ودقة التصوير والترتيب واختيار الكلمات الدالة وسلاسة الإيقاع وبطؤه مع التقابلات العديدة وجمال التناسب المسمى بمراعاة النظير أو وحدة الرسم كما سماه سيد قطب رحمه الله ، وحسن توزيع الأجزاء في اللوحة أو الرقعة مع التوجيه إلى الأسرار والدقائق والأسباب ، وراء التغيرات مع هذا الروح الذي يسري في الأسلوب ، مما يحس ولا يوصف ، ويرسم كونًا أعمق في داخل الإنسان بما يثير من تداعيات فكرية

ووجدانية ويهز طاقات النفس من تذكر وتخيل وحس وعقل ، فليس هنا ترداد أو نقل لكتاب الكون المنظور بل أشمل من ذلك وأعمق وأكثر تأثيراً[1].

كما ننبه إلى أن النظر جاء في معرض الاستفهام كقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٥) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:٦-١١).

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠).

وتلحظ : توجيه الآيات إلى الكافرين مع صرف الخطاب عنهم إهانة ، والآيات مع ما فيها من الحث على التأمل والاعتبار فيها هذا الإنكار والتوبيخ والتعجيب على ترك التأمل في الآيات التكوينية في الآفاق والأنفس ، فأساليب الاستفهام تزيد هذه الإثارة وهذا الغضب المنكر ، والإيقاع أشد من آيات الأمر وهو متفاوت في شدته حسب السياقات وأشدها آيات ق ، وقد جاءت «نا» التي للعظمة والجلال ثماني مرات مع الإبداعات وصور الخلق بدءاً بالسماء إلى مظاهر الحياة بالماء على الأرض جلالا يسري في نسج العبارات ، وتأمل آيات

---

(١) راجع التصوير الفني ، سيد قطب ٦٧ .

الغاشية ففيها ما قدمناه من ظواهر بلاغية ، ومظاهر حسن ، وتزيد هذا الشد الأسلوبي في مقامات أشد قوة وأثر الاستفهام الإنكاري في الإيقاع والصياغة[1].

ثانيًا : كثرت الآيات الموجهة إلى النظر في آثار الماضين والاعتبار بما حل منهم بالمكذبين .

ولعل من أشد المشاهد أثرًا في النفس والحس تلك الرسوم الدوارس والربوع الخوالي ، وما تخيله للحس من صور الحياة الغابرة ، ومن أشباح الحياة الدائرة فهي مشاهد للعين ظاهرًا وللنفس في الضمير[2] وأكثر ما يرتبط فعل النظر بفعل السير لترتبه عليه بل هو وحده الوسيلة إلى النظر والاكتشاف لمجاهل التاريخ ، أو لما أعلمنا به القرآن اعتبارا بسنن الله في الأولين وهو نوع من دلائل التوحيد ـ كما يقول الرازي ـ ممزوج بنوع من التخويف[3].

كما جاءت الصياغة بفعل الأمر أو بالاستفهام أو بهما معًا متوالين حسب السياقات قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧) وهي آية مجملة فصلتها آيات العقاب الأخرى وقال تعالى ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام:١١) وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل:٦٩).

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (غافر:٨٢) وقد جاءت أساليب الاستفهام .

---

(١) راجع في الآيات تفسير أبي السعود ٢٩٩/٣ ، والكشاف للزمخشرى ٢٤٧/٤ والبحر المحيط ٤٦٣/٨ وأبا السعود ١٥١/٩ والتصوير الفني ، سيد قطب ١١٤ ، ١٢٣ .

(٢) راجع التصوير الفني ٧٠ .

(٣) تفسير الرازى ٢٢/١٣ .

يتوالى الفعلين السير والنظر في ست آيات وجاءت آية واحدة مدخول الاستفهام السير وحده في آية الحج ٤٦ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ بعد الحديث عن إهلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين والكافرين بموسى ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الحج:٤٤) .

كما جاءت أساليب الأمر بتوالي الفعلين في ست آيات أيضًا وهذا من عجيب التلاؤم الإحصائي في القرآن ، وعقبت الاثنتا عشر آية بالاستفهام بكيف عن عاقبتهم إلا في آية العنكبوت ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (العنكبوت:٢٠) .

وفي هذه الأساليب نجد الدعوة إلى الضرب في الأرض والنظر والاعتبار بأحوال الماضين والتفكر في أسباب هلاكهم أو التأمل فيما صاروا إليه وصولا إلى من بيده الخلق والأمر والإحياء والإفناء ، وتضيف أساليب الاستفهام التوبيخ والتقرير والإنكار لعدم السير والنظر وتعطيل العقول والقلوب لتعطل منافذ الإدراك.

ثم التعجب المثير الذي تختم به الآيات بكيف .

كما أن العاقبة قد تكون عامة خصصت في آيات أخرى ، أو خاصة تعود على ما في النسق .

وقد جاءت آية واحدة بثم آية الأنعام لبيان ما بينهما (السير والنظر) من التفاوت في مراتب الوجود لبيان خطر النظر والتأمل وهو الهدف من السير في الأرض ـ كما وضح أبو السعود[1].

---

(١) تفسير أبى السعود : ١١٤/٣ .

وثَمَّ آيات انفرد بها النظر على صيغة الأمر جاء بعده الاستفهام بكيف ، وهذا في العقاب الخاص المثير تعجيبًا من هول الانتقام وعظم الذنب كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٤) [1] في قوم لوط : والتنوين في «مطرا» للتنويع أي نوعا من المطر عجيبا بين بالآية الأخرى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

والمراد بالعاقبة هو إنزال الحجارة ، وذكر الوصف «المجرمين» لما فيه من علة الحكم فهو جرم مخصوص وجزاء وزجر مخصوص .

وقال تعالى في شأن ثمود وتآمرهم على قتل صالح عليه السلام ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل:٥٠،٥١).

فالفعل هنا مراد به التأمل والتعجيب من عاقبة مهولة لكفر فاجر ، ثم إن الخطاب عام لكل من يتأتى منه النظر ، وفكرة عموم الخطاب في البلاغة العربية نابعة ودالة على خطورة الحدث وعمومه واشتهاره وإثارته وغرابته سواء كانت أحداثًا دنيوية في الأسلوب القرآني أم شئونا أخروية . وقال تعالى بعد أن فصل أجزاء من قصة موسى مولدًا ونشأة وزواجا في مدين وبعثا ثم عنادًا من فرعون وملئه ثم إغراقهم عقابا ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص:٤٠).

والآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة المصورة من الأخذ والنبذ في اليم دلالة الاقتدار الظاهر ، ثم هوانهم عليه تعالى ، ثم اللازمة التي تكررت في مقامات متشابهة وكانت بمعنى خاص وعاقبة خاصة وقوم معينين بعيدا عن

---

(١) راجع التفسير الكبير الرازي ١٤/١٧٢ وتفسير أبي السعود ٣/٢٤٦ .

التكرار ، وانظر الفارق في الوصف بين إجرام قوم لوط وظلم فرعون وطغيانه تجد الدقة الملائمة لنوع الكفر وأسلوب الجرم[1].

ثالثًا : جاء الخطاب في الفعل : انظر خاصًا بالنبي ﷺ تعجيبًا له عليه السلام وإثارة لتأمله من أفعال المشركين المريبة وأقوالهم الغريبة ، ثم تعجيب أكبر من إعجاز القرآن وتصريفه البيان الباهر والآيات المنزلة القاهرة الإعجاز .

ومع أن مادة التصريف في القرآن من المثل والوعيد والقول ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ في عشرة أساليب جاء اثنان منها بفعل الأمر في سورة الأنعام ٤٦ ، ٦٥ من سياق قوي ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام:٤٦).

وقد بدأت الآية بالاستفهام الإلزامي تبكيتا ، وتهديدًا وإلزامًا بالحجة ، فإن أخذ الله ما أعطاهم من حاسة السمع والبصر وطمس قلوبهم فهل ثَمَّ إله غير الله يرد عليهم ما أخذ منهم ، والاستفهام الثاني للنفي ولتعظيم شأن الله تعالى وإثبات الوحدانية له ونفيها عما سواه . وهي حجة ملزمة مزلزلة فيها تهديد صعده الالتفات بالخطاب المهين المرعد ، ثم اتجه الخطاب نحو رسول الله ﷺ يعجبه من تصريف البيان وقهر الحجة بالقرآن لهم التي تصدع الصخر ، ولكنهم عنها معرضون غير متأثرين ، وفي الآية الثانية : ٦٥ يزداد الأسلوب والتهديد هولا فبعد آيات يقول القرآن ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام:٦٥) .

---

(١) راجع في حصر آيات المعجم المفهرس ص ٧٠٦ ومعجم ألفاظ القرآن ٥٣٨/٢ وراجع إن شئت تفسير أبي السعود مثلاً : ١١٤/٣ ، ١٣٤/٣، ٦٨/٣ ، ٢٠٤/٦ ، ١١٢/٥ ، ٥٢/٧ ، ٦٥ .

بهذا الأسلوب الخبري الذي يجعل العذاب معلقًا بالقدرة والإرادة متوقفًا على الإذن رصدًا ينصب عليهم من فوقهم عذابًا أو ينهد من تحت أقدامهم من حيث لا يحتسبون أو يوقع العذاب بينهم دمارًا وقتلا ، ذلك لأن الكون بيده والقلوب بين أصابعه ، إنهم عرب تنزل عليهم الآيات تستغرق النفوس هولا ، والتعجيب هنا كما في الآية السابقة من تصريف الآيات التي جاءت على طريق الالتفات بيانًا لجلالها واقتدارها ، ثم يختم الآية ذاما لهم بعدم الفقه مرجوا منهم ذلك أو ليفقهوا ذلك. ولذا فإن هذا التصريف للآيات سبب حامل على التدبر والفقه ، أو لمن عنده استعداد لذلك ، قال الرازي : أما من أعرض فلا يصرف الله لهم هذه الآيات[1] ولعله يعني أن الصادف المعرض لا يفيد منها وإن كان التصريف له ولغيره كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ لأنه المنتفع وحده مع أن إنذاره عام .

ولما كان الحديث مع كفار العرب وهم أعرف البشر بمواقع الألفاظ وأنواع المعاني وباهر النظم القرآني وإعجازه الفذ ، كان التعبير بالفعل «نصرف» من تنويع الأساليب والافتنان في التراكيب وإيراد ألوان من المعاني القدسية قادرة قاهرة ، وهذا معنى تصريف الآيات والقول . لكن لما جاء الحديث عن عيسى وأمه عليهما السلام وأتى بأدلة دامغة على بشريته ختمها بقوله : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:٧٥) .

وهذا الحديث مع أهل الكتاب من سياقات عنيفة تبطل الزعم بأن الله ثالث ثلاثة .

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٣/١٣ وراجع تفسير أبي السعود ١٣٤/٣ .

وقد نصب الأدلة على بشريته بالولادة أو التوالد دلالة العجز والحدوث ، ثم الموت دلالة أنه بشر مقهور جاء من عدم وانتهى إلى فناء ، ثم أكل الطعام كناية رائعة عن الحاجة والنقص والعوز والضعف مدة الحياة والارتزاق واحتراسًا ، حتى لا يتوهم أبله أن يعني الذم وصفه بالرسالة ووصف أمه البتول بأنها صديقة ، أقول لما كانت هذه الأدلة العقلية النفسية التي لا ترد مع أهل الكتاب وكانت حقًا واقعًا والجدال معهم باق إلى يوم الدين بالحجة والبرهان الدامغ لم يأت بالفعل : «يصرف» إذا ليس لهم فطرة العربي في مكة بل أتى بالفعل يبين».

إذ هو الملائم لإيضاح الحجة ، ولأنها مفحمة ملزمة تأخذ بالخناق والأنفاس أبدًا كرر الفعل «انظر تعجيبًا من تبيين الآيات أولا ثم تعجيبًا من إعراضهم المهزوم مع الاستفهام «أنى» مبالغة في التعجيب مع عدم الموانع ، والتعجيب الأول من بيان الحجة لا من حال الذين يدعون الربوبية كما قال أبو السعود ، وإن كان الأسلوب يشير إليه وثم لبيان التفاوت بين الأمرين[1].

قضية التأمل والاعتبار في القرآن

والواقع أن فكرة الاعتبار وإثارة التأمل أصيلة أساسية في الأسلوب القرآني أداء ومنهجًا ، ولذا جاءت على مناهج عديدة من القول وغلبت في مواد قرآنية .

ونكتفي هنا بإزجاء شواهد دون استقصاء من ذلك[2] :

العبرة كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ بالأسلوب الخبري .

الفعل : اعتبر : كقوله عن اليهود : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ والفعل هنا أمر اتحدت دلالته ومعناه البلاغي تركيزًا

---

(١) تفسير أبي السعود : ٦٨/٣ .

(٢) إن أردت الاستقصاء فراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، ومفردات الراغب ، وتحفة الأريب لأبي حيان الأندلسي .

في الدعوة إلى الاعتبار والاتعاظ من موقف أعداء الله ورسوله من اليهود وانقلاب كيدهم عليهم .

- الفعل تدبر مدخولا للاستفهام خاصًا بالقرآن نحو ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ ـ والفعل : تفكر : خبرا واستفهاما : نحو ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

- لفظ آية وآيات إفرادًا وجمعًا تعقيبًا على آيات كونية في الطبيعة ومظاهرها، والكون ومشاهده وما خلق الله من أجناس وأنواع ، وما أبدعه من آيات أثرا لصفات القدرة والخلق والعلم والحكمة ، وهي مبثوثة في الكون محيطة بالإنسان ، كما أنها مبثوثة في القرآن تصافح عينيك دائمًا ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ .

كما جاءت الآيات خاصة بالآيات المنزلة من القرآن موجهة إليها للأنظار والعقول كقوله تعالى من آيات الأنعام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أو موجهة إلى الاعتبار من غضب الله وانتقامه لهذه الآية المعقبة على جزاءات المكذبين لرسلهم في سورة الشعراء : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

كما جاءت لفظة موعظة في بعض أساليبها تفيد ذلك كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

كما جاءت الأساليب بين الخبر والاستفهام والأمر على أنحاء مختلفة ، وكل أولئك شحذ للعقول وإلهاب للقلوب لتصل من الدليل إلى المؤثر الواحد فهي دلائل توحيد ومنابع علم وكنوز عطاء للخير والجمال .

ومرتاض حسن للحس والخيال وسدة نور الصفاء والجلال تقرب من ذي الجلال والإكرام .

٢- الإباحة ويرتبط بها غالبًا : الامتنان والحث على الشكر قولا وعملا للمنعم الوهاب . وقد سبق في آية الأنعام ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ .

والواقع أن لهذا الفعل في صيغة الأمر أكثر من معنى بلاغي أساسي ، حسب المقام والخطاب والزمان والمكان .

١- للإباحة والرضاء والمن كخطاب الله لآدم وحواء في الجنة ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة:٣٥) .. وحيث للمكان المبهم أي من أي مكان في الجنة الواسعة ، فمع الإباحة التكريم والرضا ، ومع أن الإباحة والحظر متقابلين ، كما يقول الأصوليون[1] تسبق الإباحة بالحظر غالبًا أو تقابله . وعلماء المعاني لا يعنون بذلك .

والفعل « كلوا» جاء لبني إسرائيل : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة:٥٧) وخطابا للرسل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا ﴾ (المؤمنون:٥١) .

وهذه الآية مظهر من ظاهرة الإيجاز القرآني المثير حين يجمع المنادى في صياغة واحدة مع اختلاف أفراده زمانًا ومكانًا وذاتًا وصفة ، وذلك لوحدة الفاعل والقول أو المفعول ووحدة الصفة في المخاطبين أعني الرسل ، ومن هذه الظاهرة :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ (البقرة:١٣٥) وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ (البقرة:١١١) .

---

(١) راجع التفسير الكبير للرازى ٥/٣ .

وخطاب يهود المدينة ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩١) .

والمهم أن هذا جدير بالتأمل والبحث .

وآية الرسل : جاءت إثر قصة إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى ﴿ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ إيذانًا بأن إباحة الطيبات شرع قديم ، وتعريضًا ببطلان ما عليه الرهبانية من رفض الطيبات ، وقد روى الطبري أن ذلك الخطاب لعيسى عليه السلام تكريما وهو (كلوا) .

وروى عن الحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم أنه خطاب للرسول محمد ﷺ بخطاب الجمع إبانة لفضله وقيامه مقام الكل في حيازة كمالاتهم فالأمر (كلوا) للترقية .

كما يقول أبو السعود والرأي الأول قريب ، يدعمه حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات.. الحديث»[1] . وقال تعالى مخاطبًا المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة:١٧٢) بيانا للحلال المباح وحثًا على الانتفاع به وشكرًا لأنعم الله ، وانطلاقًا للعبادة وتحقيق الخلافة ، ونبه بالأكل على الانتفاع لأنه أعظمها إذ تقوم به البنية على الانتفاع»[2].

ثم قد جاء الأمر بالفعل موجهًا للأمة المحمدية خاصًا بحال معينة توهم فيها المؤمنون تحريم الأكل بذاته أو مطلق الانتفاع كما في الصيام والحج والزكاة وغنيمة القتال أو ما بين الزوجين كقوله تعالى :

---

(١) راجع تفسير جامع البيان ، الطبري ٢٢/١٨ وتفسير الرازي ١٠٤/٢٣ وتفسير أبي السعود ١٣٨/٦ .

(٢) راجع البحر المحيط ٤٨٤/١ .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة:١٨٧) روى أنهم كانوا إذا صلوا العشاء الأخيرة أو رقدوا حرم عليهم الطعام .

وقال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال:٦٩) روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت[١].

وقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ . قال ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (الحج:٢٨) فقد كان أهل الجاهلية إذا حجوا يأكلون قوتا لا دسمًا فهم المسلمون بمثله ، فنزلت كما كان العرب يتحرجون من الأكل من الهدي فأباح الله للمسلمين ذلك[٢].

وقال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:١١٨) وهو تشريع الزكاة ورد على المشركين حين يأكلون الميتة قائلين إنها أحق بالأكل لأن ما قتل الله أحق مما قتلتموه».

وفي ذلك وما يشابهه نجد مع الإباحة : التيسير والمن والتكريم والرحمة والحث على إخلاص العمل شكرًا للمنعم[٣] .

٢- جاء الأمر إلهامًا وتسخيرًا ورحمة سارية وخلقا جليلا مدبرًا في قول الله تعالى للنحل ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ (النحل:٦٩) .

ومن نسمات الرأفة وخفيف الإحسان قوله تعالى لمريم البتول في موقف رهيب حزين حاد الإثارة وهي تلد المعجزة ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ (مريم:٢٦) وهي على عين الرحمن حفظًا ورعاية وعناية ، وهذه السورة المباركة من السور التي كثر فيها ذكر الاسم الجليل الرحمن .

---

(١) راجع تفسير أبي السعود ٢٠١/١ .

(٢) راجع التفسير الكبير للرازى ٢٩/٢٣ ، ٣٦ ، تفسير أبي السعود ١٠٤/٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٧٩/٣ والإتقان للسيوطي ٨٢/٢ .

٣- جاء الخطاب للمؤمنين المنعمين في الجنة تكريما ورضا وإحسانًا وفضلاً وهو تكريم قولي ومجازاة رحيمة كقوله تعالى :

﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة:٢٤) ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(الطور:١٩).

وليس الأمر إباحة[١] كما يرى بعضهم لأن الجنة دار تكريم لا تكليف ، ولذا لم يذكر : الإسراف في الدنيا . وذكر «هنيئا» كلمة وردية يسري فيها الود الحبيب لمن عانوا الحياة شوقًا طائرًا إلى الحسنى والرضوان .

٤- جاء في القرآن خطاب تهكم وإهانة وتوبيخ وزجر قوله تعالى للكافرين ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ (المرسلات:٤٦) والغريب أن الخطاب في الدنيا يصفهم بما اتصفوا به لزومًا ، والجملة التعليلية : إنكم مجرمون : سبب للأمر والحدث فيهم لا دين لهم ولا آخرة ولا عقيدة ، فهم يقبلون على الطعام متعة وتلذذًا وانطلاقًا لمتعة طريفة ولذة جديدة ، فهم في دائرة دائمة من الأكل والمتعة والتوله البهيمي كناية عن شغف وفناء في الشهوة والدنيا كما عبرت الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ (الحجر:٣) وهو هذا : الأمل اللاهي يسرق منهم الحياة وهم في إغماءة الشهوة الجديدة .

قال الرازي في الآية الأولى «وهذا وإن كان في اللفظ أمرًا إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة»[٢] ولا نحس ـ في الآية ـ ما أحسه . إذ الآية على الأمر تهديدًا رهيبًا وإهانة مبكتة ، وهي قريبة المعنى من الآية ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (إبراهيم:٣٠) وقوله تعالى :

---

(١) راجع التفسير الكبير ، الرازي ١١٢/٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٢٨٣/٣٠ .

﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (الزمر:٨) والمثير في دلالة التمتع على صيغة الأمر أنها جاءت في سبع آيات في خطابات شديدة متوعدة في إهانة وتبكيت «على ألسنة الرسل» ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (الذاريات:٤٣) وعن ثمود أيضًا ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود:٦٥) وعن مشركي العرب ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً ﴾ (المرسلات:٤٦) [1] كما جاءت آية ثامنة : بدأت بالفعل: ذر : بمعنى دع واترك : وهذا الفعل في الدلالة القرآنية كله خاص بالعقاب والتهديد كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (المدثر:١١) ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح:٢٦) للخفة في نطقه وانزلاق اللسان بحروفه والسرعة المناسبة للانتقام الهائل .

أما الفعل تمتع في صيغة الماضي الخبري أو المضارع فهو وسيع الدلالة أعني منوع الدلالة . تشريعًا وترغيبًا وترهيبًا[2].

- التعجيز : حين يقتضي الأمر فعل ما ليس في طاقة المخاطب ليظهر عجزه ، فالعلاقة بين الأمر والتعجيز شبه التضاد لأن الأول كما يقول اليعقوبي في الممكنات والثاني في المستحيلات[3].

ومن أشهر أساليب التعجيز آيات التعجيز أو المعاجزة والتحدي للعرب - وهم أولو البلاغة والبيان أن يأتوا بمثل القرآن في بيانه أو بمثل عشر سور أو سورة واحدة[4].

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٨ . راجع مواهب الفتاح ، لليعقوبي ٣١٥/٢ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٨ .

(٣) مواهب الفتاح ٣١٥/٢ .

(٤) راجع الإعجاز البياني للدكتورة بنت الشاطئ ، ص ٥٢ وما بعدها .

والأرجح أن التحدي والإعجاز معًا قائمان للعرب ومن سواهم بالتعلم إلى يوم الدين[1].

قال تعالى من سورة الإسراء : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ (القصص:٤٩) وهذا تحد بالقرآن جملة ، وقال تعالى ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ (هود:١٣) وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها الوصف (مفتريات) لأنهم تعللوا بأنهم كيف يأتون بمعان مثل معاني القرآن ، فأعفاهم من ذلك وقرب لهم الغاية بأن يأتوا بمثل نظمه وسبكه وألفاظه ، كما جاءت آخر آية من آيات التحدي في سورة البقرة المدنية تحديًا لكافري المدينة ومن سواهم وكأنه إشارة إلى قيام التحدي والإعجاز ما كان إنسان ، وهو تحد بأن يأتوا بمثل سورة واحدة والآية الكريمة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٣،٢٤) .

وتلحظ من هذه الآيات ما يلي :

١- قضى عليهم بالعجز المطلق أول آية وآخر آية وصفًا لحقيقة ظاهرة حتى لو فرض أن ظاهرهم الثقلان أو تظاهروا وتعاضدوا على المعارضة فمآلهم الإخفاق ، والحكم مؤكدًا بالقسم وفي آخر آية نفي قاطع «لن تفعلوا».

٢- آية الطور فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين جاءت في سياق غاضب توالت فيه أساليب الإنشاء مع شدة الإيجاز اكتفاء بباقي آيات التحدي المبسوطة قليلاً تدعوهم إلى الاستعانة بمن شاءوا من الخلق واللازمة الفاذة

---

(١) راجع النبأ العظيم دكتور محمد عبد الله دراز ، ص ٨٥ .

« وادعوا من استطعتم من دون الله ـ شهداء من دون الله ـ ومع ذلك كان التحدي آخرا بسورة واحدة وهو نهاية في الإعذار والتحدي والتبكيت والتخجيل»[1] ومن مثله أي في حسن النظم وغرابة الأسلوب والمعاني .

٣- الخطاب لهم جميعًا أن يستظهروا بجموع أخرى دعوة إلى الاستظهار واستثارة لجموعهم أو جمعيتهم وهذا أدعى للاحتشاد .

٤- فعل التعجيز جاء بالأمر (ائتوا) بمعنى جيئوا وهو إشارة إلى تنزل القرآن من عند الله ، وأنه في تنزيله يسير ، كما أنه يشير إلى خاصية بشرية مقابلة وهو أن بليغ الكلام البشري تأتي به الفطرة سهوا رهوا ، ثم لما نفى أتى بفعل آخر غير الإتيان ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ فأتى بإن ، دون إذا قالوا لسوق الكلام معهم حسب حسبانهم ، فهم ما كانوا يعتقدون عجزهم عن المعارضة لاقتدارهم البلاغي ، والأولى أنه تهكم بهم كما يقول الواثق من نفسه بالغلبة لمن يقاوله : إن غلبتك وهو يعلم أنه غالبه تهكما به كما رأى الرازي[2]، وقد نحس فيها مع التهكم الاستدراج والمد لهم ليكون النفي القاطع صدمة محقرة ولطمة قاسية .

ولم لا نذكر مع هذه اللفتة المعنوية هذا الإيقاع التجانسي السهل بين الجملة الأولى والثانية ، وإن لإدغام النون مع اللام وارتفاع اللسان بهما مرة تناسبا صوتيًا مع باقي الجملة ، أما إذا ففيها أولا نشاز إيقاعي يطول في غير مكانه وصوت الذال غير ملائم أيضًا ، وقال : لن تفعلوا ولم يقل فإن لم تأتوا ، قال في الكشاف : لأنه أوجز وهو كناية عنه ورده أبو حيان لأن « تأتوا» أوجز وليس « تفعلوا» ، وتفرد أبو السعود بسر اختيار تفعلوا وهو الإيذان المقصود

---

(١) راجع الأمالي الشجرية ، ابن الشجرى ٢٧٠/١ والتفسير الكبير ، الرازي ١١٧/٣ والبحر المحيط ١٠٤/١ .

(٢) التفسير الكبير ، الرازي ١٢١/٢ .

هو إيقاع نفس الفعل المأمور به لإظهار عجزهم لا بتحصيل المفعول لاستحالته إذ مدلول الفعل هو نفس الفعل «من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة»[1] وأبو السعود رحمه الله قلب فكرة الفعل العام والفعل الخاص كثيراً وأدارها أو حل بها مشكلات أسلوبية عدة ، ويمكن أن نعيد صياغة ما قال هنا وأن نضيف إليه ، فنفي الفعل على عمومه وإطلاقه إنما هو نفي لأسبابه ومقدماته ووسائله وغاياته على سبيل الكناية الدالة ، إذ نفي العام دليل على نفي الخاص من باب أولى . بينما نفي الإتيان خاص لا يلزم منه نفي المقدمات النفسية والعقلية وغيرها كالوسائل والاستعداد وهو لم يحدث .

فقد حكم عليهم بالعجز بلن للتوكيد والتشديد إمعانًا في التحدي والتجهيل وتوعدهم بالنار : تهويلا وإيجازًا أي دعوا العناد والكفر المؤدي إلى النار ثم هي نار مخصوصة التي ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وهذه الحجارة قال بعضهم إنها الأصنام التي نحتوها من الحجارة وقرنوا بها في الدنيا كقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ .

وهو ترجيح الكشاف وسار عليه المفسرون ، ورد القول الذي فسر الحجارة بأنها من كبريت وقال إنها تخصيص من غير مخصص ، وهذا الذي رده أسنده الطبري[2] إلى ابن مسعود بأكثر من طريق وابن عباس وناس من الصحابة رضي الله عنهم واقتصر عليه ابن جرير الطبري ، وإنك لتحس مدى الإهانة والتحقير والوعيد اللاهب أولا لقرنهم بالحجارة وكيفما ذكرت الحجارة في القرآن . وقد ذكرت عشر مرات . فالظاهر التبكيت وفي كثير منها التهديد[3]

---

(١) راجع الكشاف للزمخشرى ٢٥٢/١ والتفسير الكبير ، الرازي ١٢٢/٢ والبحر المحيط ١٠٧/١ وتفسير أبي السعود ٦٧/١ .

(٢) راجع تفسير جامع البيان ، الطبري ١٣١/١ .

(٣) المعجم المفهرس ص ١٩٤ .

وفي الآية هنا : الناس هم الكافرون حقًّا فهم الوقود والموقد عليه ، فهو تعذيب ذاتي بشع لا يتحمله الخيال تصورًا ونعوذ بالله تعالى من العذاب .

ومن هذا التعجيز الذي ينبض به الأسلوب مع التكذيب والتعجيب قوله تعالى عن المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:١٦٨) فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد ، ويبثون الوهن في الصفوف ، بأن الخروج إلى الجهاد باب من أبواب القتل وقصف الأعمار ، دون أن يدركوا الحقيقة الكبرى وهي أن للأعمار آجالاً مكتوبة، فيتحداهم القرآن أن يدفعوا الموت حين تحين ساعته وللفعل «درأ» دلالة خاصة مقصودة لا يغني عنها العقل ، دفع ذلك بأن الدرء فيه تطلب حيلة ودهاء لدفع الحدث ثم استعمال القوة حين وقوعه ، يقال فلان ذو تدرئ أي قوى على دفع أعدائه[1] . والمهم أن اصطناع الحياة أو عدمها في دفع أسباب الموت سواء[2] .

التكذيب :

وقد كان التكذيب والتحدي من الدلالات التي صورها فعل الأمر للواحد والاثنين والجمع من «أتى» .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:٩٣) وقد ادعى اليهود أن الطعام كان كله حلالا فحرم يعقوب بعضه ـ على نفسه ـ زهدًا دون أمر الله ، فتحداهم بالتوراة بين أيديهم تكذيبًا لهم واضحًا ، وتوبيخًا ملموسًا إذ فيها ما حرم الله عليهم دون يعقوب[3].

---

(١) راجع مفردات الراغب ص ١٦٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ١١١/٢ .

(٣) راجع روح المعاني للآلوسي ١٩٣/١ .

ومن هذا التكذيب المنبئ عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد شديد ما جاء في سورة الصافات في تبكيت قريش على زائغ اعتقادهم أن الملائكة بنات الله تقليدًا لبعض القبائل كخزاعة وجهينة وبني سلمة وبني مليح ومن السياق الراعد ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الصافات:١٥٣-١٥٧).

يتوالى الاستفهامات الغائظة الغاضبة وفي قوله ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ انتقال تبكيتي إلى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً يعني ، بل ألكم حجة واضحة نازلة من السماء ، ضرورة أن الحكم بأن الملائكة بنات لا بد له من سند حسي أو عقلي ، وإذا انتفى فلا بد من سند نقلي تمثل ذلك في قوله ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ ﴾ وليس لهم كتاب يأتون به فهو تجهيل لهم وتسفيه لآرائهم وتعجيب من جهلهم استهزاء بهم مع تعجيز أن يأتوا بسند لا يملكونه[1].

كما جاء هذا الفعل صيحة حمقاء على ألسنة المكذبين تحديًا أخرق لرسلهم وتعجيزًا واهمًا نسجته خيالاتهم الآفنة ووساوسهم الهاجسة كقولهم لنبي الرحمة ﷺ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (يونس:١٥) وهو قول هاذر إذ يوهمون أن مصدر القرآن بشري كيدا ومخرقة ، ويريدون قرآنًا آخر ، له مقاييس ملائمة لعقولهم .

كما استعجلوا العذاب استهزاء ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال:٣٢).

---

(١) راجع الكشاف للزمخشري ٣/٣٥٥ .

كما جاء على لسان فرعون يتحدى موسى ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الأعراف:١٠٦) وقال المكذبون لنوح ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الأعراف:٧٠) .

وتكرر هذا التعبير على ألسنتهم لهود وصالح : استعجالاً للعذاب : وقال قوم لوط ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (العنكبوت:٢٩) وغير ذلك من هذا التحدي الساخر والتعجيز الواهم والاستعلاء الكاذب ، والإنكار المستريب .

ولعلك لاحظت أن ما جاء من الأساليب تعجيزًا أو تحديًا وتكذيبًا على ألسنة الرسل كانت أقوى تركيبًا وأشد وقعًا وأكثر تأثيرًا وتركيزًا وتلهيا وغضبًا ، كما تلحظ أن نهاياتها جاءت بفاء الفصيحة ﴿ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:٩٣) ﴿ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:١٦٨) وهذا من أساليب الاحتباك التي توالى فيها أسلوبا شرط مكررين وحذف فعل الشرط من الأول وجوابه من الثاني ، شدة سبك وتركيز وإشعاع بالمعاني ، وزادت أساليب التعجيز بمعارضة القرآن ذكر الشرط وأداته في الجملة الأولى مع الجواب وحذف الشرط الثاني ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ إظهارًا واثقًا وبسطًا مقتدرًا لإعجاز القرآن الكريم وعجزهم .

وقريب من معنى الفعل «هلم» وقد جاءت دالة على التكذيب والتحدي للمشركين في تحريمهم على أنفسهم أنواعًا من الذبائح مدعين أن الله حرمها في قول الله تعالى ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥٠) [1] فهو إبطال لاحتجاجهم كأنه قال : احضروا كبراءكم ومن يشهد لكم توبيخًا وتفضيحًا .

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ٥٢/٨ .

الإهـــانـــة :

ومنه الإهانة حين لا يعتد بشأن المأمور وهو كثير متنوع الأساليب في القرآن، والإهانة يلزمها غالبًا : التهكم والسخرية وقد تكون لونًا من ألوان التعذيب يوم القيامة كقول الله تعالى في الأثيم ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان:٤٧-٤٩) والفعل ذق وذوقوا عذاب الحريق جاء في أساليب نارية متوهجة ـ إن صح تعبيرنا ـ وتأمل إيحاءات الألفاظ الرهيبة : خذوه ـ اعتلوه ـ والعتل : الأخذ بمجامع الثواب سحبًا مهينًا[1]، وإيقافه وسط الجحيم أو بؤرتها ، وصب العذاب على رأسه تعميمًا لجسمه وتعذيبه بالتهكم ذق : والذوق لا يكون إلا لمطعوم يساغ ثم : إنك أنت العزيز الكريم بأسلوب القصر وضمير الفصل وهو قصر صوري يقال لمن هو في دركات العذاب لتكمل السخرية والتحقير وتصل قمتها ، وتلحظ أن هذا أسلوب جاء على ألسنة الزبانية المخلوقين ، أما الأوامر السابقة : خذوه ... فيها من القوة والسطوة والغضب ما لا يوصف والجمل تصدع الحس بما لا يحتمله الخيال .

ومنـــه قـــول الجبـــار : ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾[2].

والجسم المثلث لا يكون له ظل بل فيه وقدة النار واجتماع الهول وهم منطلقون هربًا من النار إلى وطيسها ، والظل ثابت تهكما ومنفى واقعًا ، وكيف يغني من اللهب وهو بشعبه الثلاث ألسنة عذاب رعيب ، وتوالي اللامات وعمق الإيقاع وجزالة الأسلوب صورت هول العذاب . ورهبة الوعيد وسطوة القهر وجلال الانتقام (المرسلات:٣٠-٣٣) .

---

(١) راجع الكشاف للزمخشري ٥٠٦/٣ .

(٢) ولما كان نفي لكثرة أو غزارة الظل لا ينفي القلة أتى بالجملة ولا يغني من اللهب ، نفيًا عامًا لكل غناء ، راجع نظم الدرر للبقاعي ١٧٨/٢١ .

ومن أساليب الإهانة عند الإمام القزويني رحمه الله قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الإسراء: ٥٠،٥١) .

فقوله : كونوا حجارة إهانة لهم إذ يسلبهم كل ما للإنسان من خصائص ، وتابعه العلوي وقد خالف بهذا الفهم جمعا من المفسرين الذين تبعوا الإمام الطبري في أن الأمر هنا للتقدير أي قدروا أن تكونوا ما شئتم حجارة أو حديدًا أو ما يكبر في صدوركم وهو الموت ذاته ، فالله قادر على بعثكم : وتأويل ما يكبر بالموت مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال بعض العلماء وهو تفسير يحتاج إلى تفسير ، ولذا قال الرازي وتبعه أبو السعود : افرضوا شيئًا آخر أبعد عن قبول الحجر والحديد تستبعد عقولكم كونه قابلاً للحياة[1] .

لكن نحس كما أحس القزويني أن قرنهم بالحجارة أو تحولهم إليها تقديرًا لون من الإهانة قد أومأنا إليه في هذه التعبيرات القرآنية .

التسخير والنكال :

وهو أخص من الإهانة إذ فيه يحدث المأمور به كتحويل بعض اليهود قردة في قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥) .

وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقي ، ويضاف إلى التسخير سرعة

---

(١) راجع في الآية : تفسير الطبري ٦٨/١٥ والكشاف للزمخشري ٤٥٢/٢ وتفسير البحر المحيط ٤٦/٦ وتفسير الرازي ٢٢٦/٢٠ والطراز للعلوي ٢٨٣/٣ وتفسير أبي السعود ١٧٧/٥ وبنية الإيضاح ٥٤/٢ .

التكوين ، أو كما قالوا سرعة الكون على هذا الوصف نكالا لهم وموعظة للمتقين[1].

التكوين :

وهو أعم من التسخير ويسمى الفعل التكويني أو الإيجادي بمعنى إبداع الأشياء وتكوينها .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ (البقرة:٢٤٣) ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠) ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢) ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ (هود:٤٤) وهذه الأساليب القرآنية ونظائرها كانت مثار خلاف في تأويلها بين العلماء ، وهو داخل فيما نسميه بالبلاغة المذهبية ، أعني الأساليب القرآنية والنبوية التي تنوعت الآراء تجاهها ، وليس هذا خاصًا بأسلوب المجاز فحسب ، بل امتد إلى ألوان من علم المعاني كالقصر بالتقديم بعد النفي واللام بين العاقبة ، أو أنها للعلة ، وغير ذلك كثير مما يقابلنا في الكشاف والانتصاف والبحر والتفسير الكبير ، وإنكار هذا إنكار لمتعالم في الفكر البلاغي نلقاه دائمًا في كتب العلم ، وحسبنا أن نقول إنه خاص وليس عامًا وأن المسيرة البلاغية تجاوزت ذلك من قديم .

وبدءًا فالمخاطب بالقول الإلهي قد يكون موجودًا في الآيات كالقوم الذين قال لهم الله موتوا ، والأرض والسماء في قوله : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ ، وقد يكون معدومًا كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ

---

(١) راجع في الآية : البحر المحيط ٢٤٦/١ وتفسير أبي السعود ١١٠/١ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٧٧/٣ والطراز للعلوي ٢١٣/٣ وتفسير الآلوسي ٢٨٣/١ .

أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ﴾ ... الآية .

وفي مثل هذه الأساليب نقل الإمام الطبري آراء ثلاثة دارت آراء العلماء وحتى اليوم بينها انحيازًا لرأي أو إبطالاً لآخر بشيء من السعة والتفصيل .

الرأي الأول : أن القول حقيقي في الموجود ويحمل عليه خطاب المعدوم تخصيصًا ثم قال إنه تخصيص من غير مخصص.

الثاني : أنه لا قول هناك بل جاء على الأسلوب العربي كقول الراجز :

امتلأ الحوض وقال قطني سلا رويدا قد ملأت بطني

ثم ذكر له شواهد ترددت بعد في كتب العلماء .

الثالث : كأنه رد على الأول أو إكمال له وهو أنه لا ضير في خطاب المعدوم لأنه في علم الله موجود . وقد رجح هذا الرأي[1].

وقد تبع الزمخشري الرأي الثاني فقال إن قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ تمثيل عن قابليتهم للموت في ساعة واحدة ، والمعنى فأماتهم لكن أخرج مخرج الشخص المأمور بشيء المسرع للامتثال من غير توقف ولا امتناع ، وهذا سر التعبير بالأمر ومثل هذا عرف مشهور في اللغة كما أن هذا أرجح ـ عند الرازي ـ على أمر رسولهم أن يقول لهم موتوا[2].

ثم إن الشيء قبل أن يوجد كان معدومًا حال توجه الأمر ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾ ، إذ لو كانت موجودة ـ كما يقول الرازي ـ لكان

---

(١) راجع تفسير الطبري ١/٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) راجع الكشاف والانتصاف ١/٣٧٧ و٣/٤٤٥ وتفسير الرازي ٦/١٦٤ وتفسير أبي السعود ١/١٥١ ، ٤/٢١١ ، ١/١١٠ وحاشية الشهاب علي البيضاوي ٢/٢٣٠، ٢/٣٢٧ ، ٧/٣٩٢ ، وتفسير الآلوسي ٢٨٣ والطراز للعلوي ٣/٢٨٣ والإتقان للسيوطي ٣/٢٧٧ وتفسير غرائب القرآن ، النيسابوري ١/٣٩٨ .

المعنى يا موجودا كن موجودا وذلك لا يجوز ، ثم إن كونها عدما يمنعها من الفهم والخطاب ، وهذا ألجأ إلى القول بالتمثيل ، وقد تبع الزمخشري حشد من العلماء كالرازي وأبي السعود والبيضاوي والشهاب والعلوي وسيد قطب ، ومع أن ابن المنير نقد الزمخشري في انطلاقه لفظة التخييل على كلام الله وقال مع صحة المعنى وإرادة التصوير فإطلاقه سوء أدب وتبعه بعضهم ، اشتهر هذا الوصف عند الشهاب والعلوي الذي وضع له عنوانًا وبحثًا والآلوسي وسيد قطب ، ثم قال الإمام الشجري : إن القول قد يطلق على حديث النفس ومنه في التنزيل : ويقولون في أنفسهم ، وعلى الفعل بمعنى الحركة والإيماء بالشيء نحو قال برأسه كذا فنطحني ، وقال بيده كذا فطرف عينه ، وقالت النخلة كذا تمايلت ، فعبروا بالقول عن الفعل الذي هو حركة كما أسندوا القول إلى ما لا يصلح منه كالجمادات والأعضاء كقول الآخر :

فقالت له العينان سمعا وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب

ففي الآية عنده ـ تعبير عن الإرادة بالقول وهو يلتقي مع الزمخشري في ذلك وكان معاصرًا له توفى ٥٤٢هـ بالكرخ .

كما أن هذا الرأي ردده البلاغيون كالسكاكي والقزويني ومن دار في فلكهم ولف لفهم[١] .

الرأي الثاني : للطبري والمهدوي وابن عطية ومكي فيما نقل أبو حيان وأيده ، وانتصر له ابن تيمية وابن القيم من أن المعدوم في علم الله بمنزلة الموجود بل هو موجود في علمه .

قال الإمام ابن تيمية : « المخلوق قبل أن يخلق كان معلومًا مخبرًا عنه مكتوبًا ، فالذي يقال له كن هو الذي يراد وله ثبوت وغيره في العلم والتقدير ،

---

(١) راجع الأمالي للمرتضى ١/٣١٣ ، ٣١٤ .

وليس بممتنع خطاب المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه قبل توجيه الإرادة إليه»[1].

قالوا: ولا يجوز أن يحمل القول على المجاز لتأكيد الفعل بمصدره أو المصدر بالمصدر إذ أن هذا أمارة الحقيقة وهي حقيقة خاصة تليق بجلال الله وصفاته المقدسة.

ويؤيد هذا قراءة كن فيكون بالنصب على أنه جواب الأمر الحقيقي، وقول النيسابوري ينزل الأمر المجازي منزلة الحقيقي إبعاد وتكلف لا طائل تحته لغة، والإمام أبو حيان يستشف من هذه الأساليب قوة للكتابة الدالة على المقدرة وتفعال المأمور في لحظة خارقة[2].

وقد شن الإمام محمد بن المرتضى اليماني في كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب يونان» هجومًا على الزمخشري ونقد منهجه قائلاً: إنه كان له ولع بالمجاز في أساس البلاغة والكشاف حتى في مشاهد القيامة كقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث، والعجيب أنه في الكشاف يذكر رأيًا مقابلاً هو نطقها حقيقة ويستشهد له بحديث ثم يضعف الرأي بلفظ قيل وهل بعد النص الصريح تأويل[3].

---

(١) راجع مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤١٧ والإيضاح للقزويني ص ٤٧٠ والطراز ٣/٣-١٠.

(٢) راجع تفسير الطبري ١/٤٠٦ ودقائق التفسير لابن تيمية ٣/٥١٣ والرسالة التدمرية له ص ٧٠، والبحر المحيط ١/٢٤٦، ٢/٢٥٠، ٢٧١، ٣/٣٣٢، ٤٤٥، ٤/٢٧٦، ثم راجع: ترجيح أساليب القرآن، محمد بن المرتضى اليماني.

(٣) راجع رأي الزمخشري في هذه المواطن من الكشاف ١/٣٧٠، ١٥١ وما بعدها، والرازي ١٧/٢٣٤، ٢٠/٣٣، ٢٧/١٠٨.

كما يتصل بهذا أيضًا إثبات النطق لما لا ينطق عرفا كالجبال ، والطير وتسبيح كل شيء وكلام الهدهد والنملة ونطق الأعضاء يوم القيامة ، وقد تأولها في الكشاف إلا كلام الهدهد والنملة فلم يستطع ، ولزمه الحق في ذلك إذ الأسلوب يدل على عقل الهدهد وأنه تكلم مختار مفرط ويستحق العقوبة ، ولو كان ذلك معجزة لسليمان ما كان لتهديده معنى وكذلك بتبسمه من النملة دال على أن ذلك حقيقة .

وسمعت من الشيخ محمد متولي الشعراوي أيده الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ إن تأويل التسبيح بمعنى الدلالة نوع من فقه المعنى وهو خطأ لأن الله يقول ولكن ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وفيه رد على القائلين بالمجاز وهي لمحة ذكية ، لكن ثبت في الأحاديث الصحيحة تسليم الحجر والشجر على رسول الله ﷺ وتسبيح الحصى في كفه حتى سمعه الصحابة ، فإما أن يكون الخطاب في « تفقهون» مطلق يقيده ما جاء بشأن الأنبياء الذين يفقهون الدلالة وتظهر لمن حولهم : معجزة وتأييدًا لهم وهي معجزات تظهر أمورًا كامنة واقعة ولا تخلقها خلقًا من عدم ، وإما أن يكون النطق والتسبيح حقائق خاصة وعلى وجه معين مناسب لهذه المخلوقات حسب قوانينها التي أودعها الله فيها كقوله ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام:٣٨) وهذا خارج عن الفقه المعروف والعقل البشري .

ثم إن حقائق العلم وذبذبات الصوت وموجات الضوء وخلق السمع الإنساني مناسبًا لأصوات ذات ترددات خاصة دون سواها يؤيد ذلك ، صفوة القول إنها حقائق مودعة في هذا الكون المليء بالأسرار . حقائق معينة لا يدركها الإنسان إلا عندما يسلط عليها شعاع من القهر الإلهي فتظهر في صورة معجزة[1]، أما أحداث يوم القيامة فهي حقائق مكيفة بقوانين اليوم الآخر يؤمن بها كل مؤمن .

---

(١) رجع ذلك ابن عطية فيما نقله الزركشي ٢٤٦/٢ وأبو حيان ٣٦٤/١ البحر المحيط .

والقرآن الكريم حين يثبت النطق أو الإجابة أو الشهادة أو التسبيح أو غيرها لمخلوقات غير بشرية يعاملها معاملة العقلاء في الصياغة من جمع العاقل وإثبات ضمائر العقلاء بل أشرف الضمائر والجموع وهي المذكورة . تأمل : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾:﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ ﴾ وهذا غير فكرة التغايب التي قال بها الزركشي من أن المراد في الآية الأولى[1] من فيهما من المخلوقين تغليبًا ، وغريب أن يكون فيهما خلائق قبل خلقهما.

وطائعين من طعنا أي انقدنا ، يقال : طاعت الناقة تطوع طوعًا : إذا انقادت . ثم إن هذا أيضًا غير فكرة اعتقاد الكافرين الخاطئ في أصنامهم من منحها النفع والضر والإغاثة والإدراك ، ثم مخاطبة القرآن لهم حسبما يعتقدون إذ هو استدراج أسلوبي يعقبه كر وإبطال لزعمهم ، بالحجج الصادعة الدامغة .

والجمع واضح في الجلود والنمل معنى ، أما السماء والأرض فيبدو والله أعلم أنه إظهار تام للخضوع والعبودية وكأن كل جزء من أجزائهما قال ذلك القول ، فلفظ طائعين يصور الإذعان المطلق جرسا ولفظًا ودلالة وجمعًا وظلالاً ، دلالة الاهتمام البالغ بالمبادرة إلى الانقياد ، ولعلك فهمت بعد هذه الجولة سر تعبير الإمام أبي حيان في الأوامر : فقال لهم الله موتوا ، كن فيكون ، يا جبال أوبي معه والطير ، ائتيا طوعا أو كرها ، وغيرها حين جعلها للكناية المصورة لجلال القدرة وبالغ العظمة لأن الكناية ـ على الأرجح ـ لا تمنع إرادة المعنى الحقيقي المناسب لما يليق بالله تعالى وكمالاته .

التسوية :

وذلك في مقام توهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين : ومنه خطاب الله لنبيه الكريم وقد عزم ـ لقلبه الكبير ـ أن يستغفر لعبد الله بن أبي رأس النفاق

---

(١) البرهان للزركشي ٣٠٦/٣ .

حين مات وكان ابنه صحابيًّا جليلاً فقال القرآن ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (التوبة:٨٠) .

وقال الله تعالى في شأن المنافقين ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:٥٣)[1]. والأسلوب في الآيتين مهيب رهيب . وقال سبحانه عن الكافرين في النار ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور:١٦)[2].

وقد أفاد الأمر والنهي معًا فيما سبق مع الأسلوب التسوية وشديد الإهمال.

ومن المعروف : أن التسوية كمعنى بلاغي اقتضاه مقام خاص جاء في أساليب مختلفة من الخبر والاستفهام والأمر والنهي تعديلاً للفكر أو السلوك ، أو إظهارًا لحقيقة ينبغي ألا تغرب عن المخاطب وهي لا تبعد عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الوسيع في دعوة القرآن الكريم .

التهديد :

وهو أخص من الإنذار ، لأن الإنذار تخويف مع إبلاغ ، بينما التهديد يبرق بالغضب والوعيد . والعلاقة بين أسلوب الأمر ومعنى التهديد المضادة[3] قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت:٤٠).

وهو نمط عجيب من البلاغة القرآنية تجمعت فيها الأزمنة وتداخلت الحاضر والمستقبل يوم القيامة والحاضر الدنيوي والمُتَحَدَّثْ عنهم كافرون أولا ، وموازنة بين الكافرين والمؤمنين في الجزاء ، ثم التفات يبلغ بالأسلوب

---

(١) راجع الكشاف ١٥٩/٢ ، ٢٠٤/٢ .

(٢) انظر مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٢٦ ط زرزور .

(٣) راجع شروح التلخيص ٣١٤/٢ .

قمة التهديد في خطاب مزلزل للكافرين ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ وليس ثَمَّ فاصل أسلوبي بين الدنيا والآخرة ، فالجملة الأولى بدأت بالتهديد ثم في لمحة نجد الآخرة مقامًا سوقها ، والاستفهام يجمع في موازنة واحدة بين لقطتين فهناك من يؤخذ أخذًا في قهر وامتهان وذلة ويلقى كشيء رذل نتن في الناس .

وفي المقابل هنا من يسير الهوينى اكتسى أمنا وسلامًا ودعة إننا نراه باسم الثغر مشرق الجبين ، وهي موازنة غير متكافئة تعقدها سطوة القدرة . ولذا فقد حذفت النتيجة لإشراقها بل إن ذكر الخيرية هنا فيها مسحة من السخرية بالمكذبين ، فأي خير في جزائهم الرهيب وفي لمحة بمثل الحاضر يملؤها الوعيد المرعد ينصب تلقائيًا على النوع الخاسر من البشر بدون ذكر صفاتهم ، أو سبق نداء لهم ، فهم هم الملحدون وهم هم الملقون في النار ، إنه التفات في ثلاث كلمات ملتهبة الحروف اعملوا ما شئتم : بالإطلاق في الفعل والمفعول ، فليس فيه إباحة للشر بل إنه الوعيد الشديد ، وماذا يصنع الكافر أمام الله خالقه الجبار وهو مقيد الخطو بسنن راغمة ، وإن ربك لبالمرصاد .

التعجب

كقوله تعالى ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ وقد سبق عديد من الآيات دل فيها فعل الأمر : انظر على التعجيب وصعد بعده الاستفهام هذا المعنى .

وقد ذكر السكاكي من استعمال الإنشاء بمعنى الخبر قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ كما ذكر السيوطي الآية على إفادة الأمر للتعجب ، والواقع أن المعنى إنشائي وهو التعجب[1] واللفظ خبري لأنه ما جنى على صورة الأمر إذ الضمير في « بهم » فاعل والصيغة هنا تعجب قياس .

التمني :

وقد أدى التمني بأساليب الأمر والنهي والاستفهام والخبر كما سيأتي ، ومن

---

(١) راجع الإتقان للسيوطي ٣/٢٧٨ .

الأمر مرادًا به التمني قول المعذبين ﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٧) وليس دعاء ، لأن وقت الدعاء حيث التكليف والبلاء في الدنيا .

وقولهم لمالك خازن النار ﴿ يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (الزخرف:٧٧) .

الدوام :

وذلك إذا طلب وقوع فعل واقع كقول الله تعالى على لسان المؤمنين ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) وقد يتعاون الأسلوب على إفادة معنى الإلهاب والتهيج فوق الدوام والاستمرار كما في خطابات الله للمؤمنين من نحو قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٣) ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١) وأسلوب الشرط هنا ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تكرر كثيرًا عقب توجيهات وأوامر إلهية حفزًا للهمم وحثًّا على التسابق للخير وإلهابًا وترغيبًا ، أي إن كان لديكم قدر من الإيمان فداوموا بإخلاص على المأمور به من توكل أو طاعة ونحوهما .

ومن طلب الدوام قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب:١-٣) وهذا كما يقول الزركشي من خطاب العين أي الشخص المعين والمراد الغير ، فالخطاب للنبي ﷺ ـ والمراد أمته لأنه كان أول المتقين وأتقى الناس لله وحاشاه ﷺ ـ من طاعة الكفار[1].

ومنه ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (يونس:٩٤) .

---

(١) البرهان للزركشي ٢/٢٤١ .

وحاشاه ﷺ من الشك وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكفار ، وعن ابن عباس لم يشك ﷺ ولم يسأل ، ومثله ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ (الزخرف:٤٥)[1].

وفي المقامات العنيفة الخطاب توقفت طويلاً حين يفهم من ظاهرها خطاب النبي الرحيم ، ففي الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦) .

كان الأسلوب للغائب حتى لا يواجه النبي الكريم بما يسوء كقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ .

والكلام على سبيل الفرض والتمثيل للمحال بيانًا بأن القرآن حق وأنه من عند الله وحده وأن الرسول صادق في التبليغ مع إبراز جلال الألوهية وقوة الحفظ لهذا الذكر الحكيم .

أما الآية الشريفة ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٥،٦٦) وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٥) .

أما الآية الأولى فقد تبع كثير من المفسرين الزمخشري كالرازي وابن الأثير وأبي السعود والبيضاوي والشهاب والآلوسي والعلوي أنه على سبيل الغرض للإلهاب والتهيج للمعصوم ﷺ ، إقناطًا للكفرة وإيذانًا بشناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه ، وأحس الرازي بهذا الوقع العنيف متسائلاً : كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن

---

(١) راجع الإتقان للسيوطي ١١٢/٣ .

رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم وأجاب أن قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا» وهذا يئول إلى كلام الكشاف من أنه فرض وتقدير لا واقع له ، وبسط بعض العلماء المعاصرين القول بأن فيه إشارة إلى بسطة سلطان الربوبية وغلبتها ، وأن النبوة في أسمى صورها تؤمر وتنهي فهو تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة مع بيان أن هذا الأسلوب في هيمنته وتعاليه لا يصدر عن بشر[1] :

لكني كنت أرتجف فرقًا وحياء فكيف يصف الكافرين ـ قبل بالخسران ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ على سبيل القصر ثم يهدد النبي ـ ولو فرضًا ـ بثلاثة أقسام مؤكدة وأسلوب شديد الهول ـ على إحباط عمله وخسرانه إن أشرك .

ثم كيف يؤمر النبي في الآية قبلها أن ينكر عليهم الدعوة إلى الشرك مع التوبيخ والتهكم والتعبير بالجهل ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾؟ أيأمر بالتوحيد في استعلاء ظاهر ثم يهدد بالطرد إن أشرك ، إن الجبار لا يسأل عما يفعل ولكن المقام هنا يرفض ما أوله الكثيرون . ولقد جاء في القرآن آيات أشد هولاً اقتضاها المقام .

ومن هنا رأينا الإمام أبا حيان يقول : لما كان الإشراك مستحيلاً على من عصم الله وجب تأويل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ على ضمير السامع ، ومضى الخطاب

---

(١) راجع الكشاف ٤٠٧/٣ والرازي ١٣/٢٧ وأبا السعود ٢٦٢/٧ والآلوسي ٢٤/٢٤ وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣٥٠/٧ ودلالات التراكيب ، دكتور محمد أبو موسى ص ٢٧٠ .

عليه ، ويدل على ذلك إفراد الخطاب إذ لو كان للمخاطب في الآية لكان التركيب لئن أشركتم ليشمل ضميره وضمير من قبله[1].

وقريب من هذا الرأي ما أشار إليه الزركشي ـ رضي الله عنه ـ فقد جعل هذا الخطاب من باب خطاب العام من غير قصد لشخص معين والمعنى : اتفاق جميع الشرائع على ذلك .

وهو يقصد بخطاب العام ما يكون فيه المخاطب غير مشخص لجلال الحدث كما نجد في القرآن من التعبير ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أو انظر ونحوها .

أو أن في هذه الأساليب حذفًا : بمعنى أنه مقول لقول محذوف وقد نسبه الإمام أبو عمر الزاهد ـ غلام ثعلب ـ في كتابه (الياقوت) إلى الإمامين ثعلب والمبرد على تأويل : قل : لئن أشركت ، وقل يا محمد إن كنت في شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود ونظائر ذلك مما تقدم[2].

ولنعمد إلى الآية ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ نستشف منها ما يلي :

١- أكد الوحي باللام الموطئة القسم وقد وهو ليس وحيًا جديدًا بل وحي ماض يبدأ مع بدء النبوات على الأرض ، فكل نبي أوحى إليه ، ولم يلتزم الترتيب الزمني بل قدم النبي ﷺ تكريمًا وتشريفًا ودرجة كما قال ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ الآية وغير ذلك كثير .

٢- إذا كان الوحي عامًا فلم خص النبي وحده بهذا الخطاب العنيف ، وحذف ما ووجه به كل نبي . مع أن المقام ليس مقام تعنيف للأنبياء .

---

(١) البحر المحيط ٤٣٨/٧ ، ٤٣٩ .

(٢) البرهان للزركشي ٢٤٢/٢ .

٣- الخسران ذكر وصفًا في الآية قبلهما للكافر ، وهنا تقدير الخسران لمن أشرك كما جاء في القرآن حبط العمل في الكافر كقوله ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ (المائدة:٥٣) ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:٨٨) ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (محمد:٣٢) وجاءت المادة في المرتد ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ (البقرة:٢١٧) وأغرب ما جاء في مادة الحبط عدم التأدب مع النبي ﷺ بالجهر له بالقول ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات:٢)[1].

- كل هذا يؤيد رأي المبرد وثعلب من تقدير القول ، أي أوحى إليك وإلى كل نبي أن قل لكل إنسان لأنه مفطور مخلوق على التوحيد ، وقد جاء حذف القول في أكثر من ألف موطن ، وقال أبو علي الفارسي فيما يروي ابن جني «حذف القول حديث البحر ولا حرج».

ومن معاني الأمر : التشريف ومنه كل ما جاء في القرآن العزيز من فعل «قل» كالقلاقل أي السور التي تبدأ بقل كالمعوذتين والإخلاص والكافرون ومن الآيات : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٨٤)[2] .

ومنه المشورة كقول إبراهيم الخليل لولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات:١٠٢) . مشورة له في أمر جلل لعلمه قوة يقينه وكمال عقله .

وقال ملك مصر ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف:٤٣) وقالت بلقيس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (النمل:٣٢) .

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص ١٩٣ .

(٢) راجع البرهان ٢/٢٥١ .

والأسلوب ينبئ ـ مع المشورة عن الحيرة والفزع ومحاولتها كأنثى التخفف من أعباء ثقال وخوفها من اتخاذ القرار بل إن الجملة الثانية لتكشف القناع عن ضعف بشري زاده ضعف الأنثى ارتعاشًا وقلقًا .

الدعاء والتضرع

ومنه : التضرع والدعاء وقد قيل في استعمال الأمر في الدعاء والالتماس حقيقة ، ونقدم هذه الدراسة في الدعاء القرآني .

١- جاء الدعاء بأسلوب الأمر والنهي والاستفهام والخبر خروجًا عن المعنى اللغوي والاصطلاحي إلى معنى الدعاء وهو التضرع من الإنسان لربه وخالقه والتضرع أحد المعاني التي يدل عليها الفعل دعا قال تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة:٢٨٦).

كما جاء في صورة المصدر النائب عن فعله ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥) ومن الاستفهام قول موسى ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ (الأعراف:١٥٥) أي لا تهلكنا على رأي بعضهم .

كما جاء بأسلوب الخبر والتعريض في مقام يمنع من : التصريح كقول آدم وحواء بعد أن تلقى آدم من ربه كلمات التوبة هذه . ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) وهو تعريض كله حياء وانكسار بعد أن أكلا من الشجرة ، وقول موسى لمّا هرب من مصر بعد قتله المصري ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (القصص:٢٢) وقوله عليه السلام بعد أن سقى للمرأتين ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:٢٤) والأول أسلوب شرط والثاني رجاء والثالث خبر ، أدى ذلك كله معنى الدعاء .

ومن التعريض على لسان أيوب الصابر المبتلى لم يدع الله صراحة أدبًا ورضا بالبلاء المقدور أنه لم يدع صراحة حتى لا يتهم نفسه بشيء من الجزع أنه مقام عال لنبي مقرب اكتفى بالتعريض المهذب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣) ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص:٤١) .

وقد أغنى تلميحه فوق التصريح وأعطاه الله رحمة من عنده فالقرآن يعقب على عطاء الله للأنبياء في سورة الأنبياء بقوله ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ إلا أيوب فقال : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ (الأنبياء:٨٤) دلالة على خصوصية الرحمة . وفي سورة (ص) ذكرت عطايا الأنبياء وخص أيوب وحده بالرحمة ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وهي الرحمة الخاصة بمعافاته من البلاء والشفاء التام برفع الألم والسقم أدل على الرحمة .

- كما جاء الدعاء بصيغة الاستعاذة لجأ إلى الله وهربا إليه ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧،٩٨).

وقد جاء من دعاء نوح عليه السلام ـ من سورة هود . أثناء الانتقام المحيط بالطوفان وفي موقف الغضب الجبار لم يجرؤ العبد الصالح وهو في سفينته اللاعب بها هوج الأمواج باسم الله مجراها ومرساها لم يجرؤ على الدعاء لابنه العاصي صراحة بل كنى ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (هود:٤٥) نعم المقام للحكمة والإرادة النافذة دون الرحمة ، فالكون كله في غضب ، فبين له ربه أن عاطفة الأبوة يجب ألا تنسيه أمر النبوة ، فابنه كان عملا فاسدًا كغيره طهر الطوفان منه الأرض ثم عاتبه في شدة ﴿ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فانطلق في ضراعة وحياء في دعاء رامز ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

وكثرة الضمائر والظروف وحروف الجر توحي بالوجل والخوف والاضطراب .

- كثرة الدعاء الجماعي عن الدعاء الفردي الذي تناول أكثره أحداثًا خاصة بالداعي كدعاء موسى في سورة طه قبل توجهه إلى فرعون بمصر ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ (طه:٢٥) .

ودعاء إبراهيم في سورة الشعراء ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الشعراء:٨٣) .

ودعاء نوح ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح:٢٦) .

ودعاء زكريا ويونس وأيوب لشئونهم الخاصة .

- كل دعاء يتناسب مع الداعي وقدره ومطلبه ، فدعاء الأنبياء يختلف أسلوبًا ومقامًا عن دعاء عباد الرحمن في سورة الفرقان .

- التزم في الدعاء اسم رب وربنا دون اسم آخر من أسمائه الحسنى لأن صفة الربوبية ـ بما فيها من معاني التربية والإنعام والتفضل وهي آثار لا تنقطع دنيا وأخرى ـ أنسب وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملاً في الإجابة.

ولم يذكر وصف آخر إلا في موطن واحد في سورة يوسف من دعائه ختاما لأحداث قصته المثيرة التي خطتها يد القدر في حكمة وسطوة وعناية .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١).

فقد بدأ الاسم «رب» ثم «فاطر» أي يا فاطر السموات والأرض ، وهذا مناسب لعظيم العطاء والاقتدار على النعم الخاصة في أحداث القصة المحكمة من إخراجه من السجن وإيتائه الملك وتعليمه التأويل ، كما أنه مناسب لحكمة يوسف في جوامع دعائه .

- وقد يسبق الدعاء ثناء على الله كثناء إبراهيم في سورة الشعراء ويوسف ، أو الاعتراف بالإيمان وكأنه سبب للدعاء أو مبرر لإجابته . ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ (آل عمران:١٩٣).

وقد يعقب الدعاء بتذييل يؤكد مضمونه ويقوي الأمل في الإجابة : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٩) ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ (المؤمنون:٢٩) ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون:١١٨) .

كما التزم حذف أداة النداء من رب لكثرة الاستعمال والإحساس بالقرب الداني والإيناس بهذا المقرب .

- قدم ضمير الداعي على المفعول وهو ذات الدعاء أملاً في الإجابة وطمعًا في الرحمة وتصويرًا لأشواق النفس حين تضع آمالها على باب الكريم المنان ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ ، ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ﴾ .

وفي الفعل : اغفر قد يضمن معنى اللازم بمعنى هب لنا الغفران فلا يذكر الذنوب نحو : رب اغفر لي ولوالدي .. الآية ، وقد يحذف ضمير الداعي وقد جاء في آية واحدة في مقابلة من يدعو من الله إلهًا آخر ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون:١١٧،١١٨) وهذه المقابلة جعلت الدعاء عامًا لكل المؤمنين كما التزم ذكر الذنوب مع الغفران والسيئات مع التكفير ، وإذا اجتمعا فالذنوب في الكبائر والسيئات في الصغائر ، وإذا افترقا شملت اللفظة مدلول الأخرى كقوله ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ ، ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ والله أعلم .

النهـــي

وهو طلب الكف عن فعل ، وصيغته : لا تفعل وهي حقيقة في التحريم[1] .

وقد خرج النهي إلى معان بلاغية منها :

الدعاء نحو : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران:٨) .

الكراهة : كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء:٣٧) وقوله ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لزيادة التقرير ، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق به المرح ، والجملة الخبرية : إنك ... تعليل للنهي[2] وتهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض والجبال ، فليس أكثر قوة ولا أكبر ولا أشد منهما تعريضًا بهذا المنتفش الصدر الرافع الأنف الماشي على صدور قدميه والفناء يدب فيه . وقد ذكر السيوطي هنا الكراهة . والواقع أن النهي عن الرذائل مطلقًا حسية أو نفسية إنما هي نهي وحظر على الحقيقة ، وقد استفاض النهي عن ذلك في القرآن كوصايا لقمان ، وآيات الحكمة والوصايا في سورة الأنعام وغير ذلك .

الإرشاد : كقوله : ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾(المائدة:١٠١).

التيئيس : وقد تأدى كغيره بعديد من الأساليب كقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التحريم:٧) ، ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ (التوبة:٦٦).

التهكم والتيئيس كقوله تعالى : ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (الفرقان:١٤) .

---

(١) راجع بغية الإيضاح ٥٦/٢ والإتقان ٢٧٨/٣ .

(٢) راجع أبا السعود ١٧٢/٥ .

ومن معاني النهي كما قال السيوطي :

بيان العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩) أي عاقبة الجهاد الحياة لا الموت . وفي هذا تسامح لأنه معنى من المعاني التي دلت عليه الآية كلها ولا يؤخذ من النهي وحده[١].

وظاهرة النهي عن الحسبان لها شأنها في القرآن الكريم تغييرا للمفاهيم أو تعديلا لها بما يتفق والقرآن ، سواء أفاد الأسلوب مدحًا وتكريمًا أم ذمًّا وتوبيخًا ، وقد جاء النهي عن الحسبان في تسع آيات تقريرًا أو بمعنى أدق نفي المفعول الثاني عن الأول وإثبات مقابله في مقام مسيطر يبدأ بالنفي وينتهي بالإثبات ، والحسبان بمعنى الظن في بعض المعاجم[٢]، وفرق الراغب بينهما بأن الظن أن يخطر الإنسان النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر ، والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك[٣].

وفي الآية التي سيقت : موضع الفائدة أي الإخبار عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون ، وفيه رد كما قال الرازي ـ على من قالوا إن الجهاد يفضي إلى القتل فهو خطأ لأن الآجال بيد الله ثم إن القتل في سبيل الله أجل من الحياة لأنه مفض إلى نوع جليل من الحياة والقربة والكرامة وأفضل أنواع الرزق[٤].

---

(١) راجع الإتقان ٨٢/٢ .

(٢) راجع معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥٩/٢ وتفسير الرازي ٩٤/٩ والمعجم الوسيط ١٧١/١ ومعجم ألفاظ القرآن ٢٥٣/١ .

(٣) المفردات للراغب ١١٧ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ٨٨/٩ .

وقال تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (آل عمران:١٨٨) وقال سبحانه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (إبراهيم:٤٢) .

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٥٧) وأكثر ما جاء في مواطن التهديد والترهيب على سبيل التعريض وأقله في التكريم والترغيب ، والخطاب للنبي ﷺ إرشادًا وتعليمًا وأمرًا بالتبليغ ، وقرئ في آية الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أي لا يحسبن حاسب أو أحد على التعميم في الفاعل تأكيدًا للحدث وإشهارًا لأنه حقيقة أخروية[1]، ويقرب من النهي عن الحسبان الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي لمدخوله كقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ (القيامة:٣) ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦) وإن كان النهي أشد وقعًا إيقاعا في مقامات حاسمة قوية لا يقصد فيها هز النفوس وسياستها إثارة كوامنها كما في الاستفهام .

وعلى كلٍّ فالأحداث المثبتة بعد النهي عن الحسبان قد تكون موضع غفلة من البشر وبخاصة أن أكثرها غيبي يتعلق بالجزاءات الخاصة تكريمًا أو نكالاً ، والبعث أو قوة الكفر في نظر المسلمين وقد اهتمت بها السياقات لتكون على ذكر من المؤمن أبدًا ، وهذا من أسباب تكرار « لا تحسبن » في سياق واحد وفي أكثر من مقام مع ما نبهوا إلى ما يظن أنه طول في السياق فاصل بين المفعول الأول وبين المفعول الثاني موطن الفائدة . ونظن أنه أشمل من ذلك فائدة صياغة ومدلولاً وترسيخًا وإيقاعًا .

موازنة :

وقد جاء في آية سورة البقرة ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة:١٥٤) وبالموازنة بينها وبين آية آل عمران نلحظ ما يلي :

---

(١) راجع البحر المحيط ١١٣/٣ .

١- جاء الفعل تقولوا هنا لأن المشركين كانوا يقولون إن أصحاب محمد ﷺ يقتلون أنفسهم ، ويخسرون حياتهم ، فقال الله : ولا تقولوا كما قال المشركون أنهم يذهبون إلى الفناء ولا ينشرون ، ولكن اعلموا أنهم أحياء ، وقال الأصم يعني لا تسموهم بالموتى وقولوا لهم الشهداء الأحياء .

٢- لما كانت آية البقرة تنهاهم عن التشبه بالكفار في القول ودلالته كان الأسلوب قويًا تصحيحًا للعقيدة ، ووزنًا للألفاظ بميزان دقيق ، قبل النطق بها ، ثم جاء التذييل مقررا عاتبًا «ولكن لا تشعرون» دل على العتاب صياغة الفعل «يقتل» تصويرًا حاليًا استحضارًا للمشهد ، فهذا الذي يسفك دمه وتزهق روحه في سبيل الحق لا يكون إلا حيا ، أما آية آل عمران فجاءت في شهداء أحد وإن كانت عامة ، ولذا رق الأسلوب وفاح رحمة وحنانا : فليس النهي عما يدور في الأفواه بل عن الحسبان والخاطر يطوف بالقلب نهيًا عن الظن ، والقول من باب أولى ، والفعل «قتلوا» حقق الاستشهاد وأكد النهي ، وهذا ناسب التكريم الخاص للشهداء وتعديد ألوان رائعة منه تثبت الحياة مضاعفة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩،١٧٠) الآيات ..

ترغيبًا في الجهاد المخلص رفعًا لكلمة الله في الأرض . رب الأولى والآخرة[1].

وقد نجد في بعض آيات الحسبان معتركًا للعلماء كقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(آل عمران:١٧٨).

---

(١) راجع تفسير الرازي ١٤٦/٤ .

فبقاء المتخلفين من المنافقين عن الجهاد ، وعدم إصابة بعضهم ليس خيراً من قتل الشهداء في «أحد» لأن هذا البقاء صار وسيلة الخزي والعقاب ، وقتل الشهداء وسيلة إلى الثناء والثواب ، وقد أول المعتزلة اللام في «ليزدادوا» على أنها لام العاقبة إثباتًا للغرض والباعث والحكمة ورده الرازي وأبو حيان وغيرهما لعدوله عن الظاهر ، والصواب أن اللام للتعليل أو لام الإرادة كما يسميها أبو السعود بمعنى أن يفعل الله تعالى فعلا ، يحصل منه شيء آخر ، وهذا غير الباعث الممنوع ، وقال الزجاج : إن الآية في قوم أعلم الله نبيه أنهم لا يؤمنون أبدًا وليست في كل كافر إذ آمن بعضهم ، وقال مكي وهو الصحيح من المعاني[1] والمعنى البلاغي نهى الكافرين عن السرور بإملاء الله لهم وبقائهم وتحسيرهم بيان أن ذلك شر محض واستدراج وكيد يحيق بهم ضرره . استكثارًا من الإثم واستحقاقًا لمهين العذاب ، وقرئ : ولا تحسبن : بالخطاب تسلية للنبي ﷺ وإظهارًا لعاقبة الكفر . وقيل الخطاب للعموم قصدًا إلى إشاعة فظاعة حالهم .

ومن معاني النهي البلاغية :

الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة :

كقول الله تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٢) وجاء أوكد في قول الله تعالى خطابًا مباشرًا للأمة المحمدية ـ وتحس هنا بالفارق بين الأمم وأقدارًا من الاختلاف بين المتكلم إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ثم رب العزة والجلال في آية التقوى والاعتصام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ بالنداء والتنبيه والوصف لأي ، والوسم بالإيمان ، وهذا الاختصاص بالتكريم يناسب الأمر بالتقوى الخاصة ، تكريم على قدر التكليف والوفاء به .

---

(١) راجع تفسير الرازي ١٠٨/٩ والبحر المحيط ١٢٤/٣ وتفسير أبي السعود ١١٧/٢.

قال الطبري : لا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم حتى لا تأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين لأن أحدًا لا يدري متى تأتيه المنية[1].

وقد أضاف إليه الزمخشري وصاغه بدقة فقال «النهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا كقولك : لا تصل إلا وأنت خاشع فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته ، لإظهار أن موتهم ـ لا على حال الثبات على الإسلام ـ موت لا خير فيه وأنه ليس بموت السعداء وأن من حق هذا الموت ألا يحل فيهم[2].

فالمراد الحث والبعث على دوام الأمر على الإسلام كما لخص الرازي[3] والزجر أبلغ زجر عن الموت غير مسلمين شده اهتمام بهذا الأمر ، ولذا لم يمزج بهذه الوصية وصية أخرى ، والنهي هنا موجه إلى الوصف أو القيد دون المقيد ، إذ لا ينهي عن الموت عقلاً لأنه ليس في مكنة الإنسان كما أشار الطبري ومن بعده[4].

والواقع أن هذا جزء من قضية النفي ومنه النهي وأثرها الأسلوبي وسرها البلاغي ، فقد يدخل النفي أو النهي على جملة فينفي أحد جزأيها أو هما معًا أو على موصوف أو مقيد دون القيد أو العكس أو ينفيهما معًا .

والحاكم في ذلك دلالة المقام والسياق والقرائن بعامة ، وقد ورد كل أولئك في كتاب الله تعالى كما جاء في الأساليب العربية . وقد تعرض لشواهده العلماء حينما تقابلهم في مناقشاتهم القضايا القرآنية أو اللغوية ، سواء كانوا علماء اللغة والنحو أم علماء التفسير أم علوم القرآن وبيان مشكله ومتشابهه

---

(١) تفسير الطبري ٤٣٨/١ .
(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٣١٣/١ .
(٣) تفسيره الرازي : ٧٣/٤ .
(٤) تفسير الطبري ١٦٢/٨ ، وتفسير الرازي ٧٣/٤ .

وحتى علماء أصول الفقه ، وكان لعلماء البلاغة وبخاصة في البديع مشاركة بمقدار ، وقد حاول الزركشي رحمه الله أن يضم النظير إلى النظير ويجمع شتات ما تفرق فوفق في شيء من ذلك ، وتبعه السيوطي فجمع ذلك في موطن واحد ضغطه ضغطًا أطال بعض جوانبه وتركه قواعد مجمدة كشارات الطرق قاعدة ومثال .

وقد تناولنا النفي مع التقديم في كتاب آخر عالجنا منه جوانب ونكمل هنا ما يتصل بالمقام : وأكثره ما دخل النفي أو النهي على أسلوب فيه قيد أو وصف .

والغالب في الأسلوب القرآني أن يتوجه ذلك إلى القيد أو الوصف كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (الإسراء:٣٧) فليس نهيًا عن مطلق المشي بل مقيدًا بالمرح والاختيال ، وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ (الكافرون:١-٥) .

فليس نفيًا للعبادة على إطلاقها بل مقيدة بالمفعول إتمامًا للفائدة . وسر التعبير بما في جانب الحق تعالى وهي للإبهام والجنس العام ؛ لأن امتناعهم من عبادة الله تعالى ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا جاهلين به ، والمعنى كما قال السهيلي : إنكم لا تعبدون معبودي الذي أعرفه دونكم وأنتم جاهلون به لا كراهية لذات المعبود ولكن كراهية لاتباع محمد ﷺ كبرا وحسدًا وأنفة وشهوة لمخالفته في العبادة مع الازدواج في الكلام وهو أصل في البلاغة .

أما التغيير في صياغة الفعل بين ماض ومستقبل ، فهو إيماء إلى عصمته ﷺ من الزيغ والانحراف ، وأن معبوده واحد في الحال والمآل ، ولذا جاء بالفعل المضارع في جانبه واسم الفاعل الحالي ، ثم جاء بالمضي حين أخبر عنهم

«عبدتم» لأنهم يعبدون أهواءهم التي تتغير بها الآلهة ماضيًا واستقبالا[1]، ثم نفى عنهم عبادته مستقبلا استيفاء للزمن .

ونقل ابن القيم رأي السهيلي وزاد أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة ، فأتى بما الدالة على هذا المعنى وهذا معنى قول النحاة : إن ما تأتي لصفات من يعلم .

ثم إن ما إن دخلت على ماض كان فيها رائحة الشرط في العموم وهذا مناسب لهم ، ولذا لم يأت الماضي في جانب الرسول عصمة له من الزيغ أبدًا ، ولذا لا يوصف المؤمن بأنه عابد بل عبد الله دون الكافر ، ثم قد جمع في الآية بين النفي والإثبات وهو مفاد شهادة التوحيد[2] .

أما القيد أو الوصف الذي يقع في الجملة فقالوا إن أكثر ما يكون للتخصيص أو التوضيح نحو : زيد التاجر عندنا ، ورجل صالح عندنا ، وقد يأتي للمدح نحو بسم الله الرحمن الرحيم ، أو الذم : فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، أو التأكيد نحو أمس الدابر ، أو البيان نحو : لا تتخذوا إلهين اثنين ، والإحاطة والعموم نحو : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وفي الأرض هنا قيد للبيان والعموم : وهذا القيد قد يفيد على معاني أخرى حسب السياق فقوله تعالى : ﴿ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يجوز إرادة العموم أو أنه تنبيه على أن ما فيه مادة الحياة وبقاؤها جدير به الإصلاح لا الإفساد تبكيتًا[3]، لكن حين تأتي هذه الأوصاف أو التقييدات في أسلوب النفي أو النهي لا بد من وقفة[4] لأنهم قالوا : إن النهي والنفي ينصرف إلى القيد غالبًا ، وهذا يخالف أن

---

(١) راجع نتائج الفكر ص ١٨٣-١٨٥ .

(٢) راجع التفسير القيم لابن القيم ص ٥٢٨ وما بعدها .

(٣) راجع في الوصف : المفتاح ص ١٨٧ ، والإيضاح للقزويني ص ١٢٠٠ .

(٤) البرهان للزركشي ٢/٤٢٢-٤٢٧ ، والإبهاج في شرح المنهاج ، للسبكي شرح المنهاج ١/٣٧٢ .

يجيء الوصف للمدح أو الذم ، فمثلاً قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ (الأنعام:١٥١) وقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ (آل عمران:١٣٠) ولا يجوز توجه النهي إلى القيد وإلا كان المعنى النهي من قتل الأولاد بسبب الفقر وجواز قتلهم بغير هذا السبب ، وتحريم الربا إذا كان أضعافًا مضاعفة ، وجوازه إذا لم يكن كذلك وهو فاسد قطعًا ، وإذن فالوصف في الأول للواقع الذي كانت تتصف به القبائل ذمًّا وتشنيعًا ، وفي الثانية وصف لازم للواقع أيضًا إذ كان الربا يتضاعف معاملة ذمًّا وتبكيتًا .

والسؤال هنا : على أي أساس يتم التمييز بين أنواع الأوصاف ما كان مدحًا أو ذمًّا ، وما كان تقييدًا وتخصيصًا ؟

الواقع أننا لن نجد في الكتب الموضوعة في البلاغة إلا ما ذكروه في البديع مما يسمى نفي الشيء بإيجابه ذكره ابن رشيق وفصله ابن أبي الأصبع وهو أن يثبت المتكلم شيئًا في ظاهر كلامه وينفي ما هو من سببه ، والمنفي حقيقة في باطن الكلام هو الذي أثبته لا الذي نفاه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

فالظاهر نفي هذه الجوارح ، وباطن الكلام نفي الإلهية عمن يسمع ويبصر من الآلهة فكيف بمن لا يسمع ولا يبصر منها ، وقد ندمج هذا النوع في تجاهل العارف الواقع موقع التوبيخ ومنه ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ فالمنفي في الظاهر الإلحاف والباطن السؤال مطلقًا »[1].

والآية الأولى التي ذكرها : تنفي الجوارح كناية عن نفي الألوهية عن آلهتهم، دون نفي الإلهية عمن يسمع ويبصر فلا تدل عليه الآية ، أما ما سماه تجاهل العارف فقد نبهنا إلى تسمية السكاكي : سوق العلوم مساق غيره ، التزامًا بالأدب مع القرآن ، والآية الثانية لا تصلح شاهدًا على ما ذكره في التعريف مع

---

(١) راجع العمدة لابن رشيق ٦٥/٢ وبديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ١٥٣ .

طوله وعدم دقته إذ ليس فيها إثبات . بل إن النفي في الظاهر للقيد ، وتدل القرينة على نفي القيد والمقيد جميعًا .

ثم إن ابن أبي الإصبع ـ رحمه الله ـ أراد أن يعلل لهذه الظاهرة فقال : إن العرب متى أرادت المبالغة التامة في شيء قلبت الكلام فيه عن وجهه لينتبه السامع عندما يرد على سمعه كلام قد خولف فيه عادة أهل اللسان إلى أن هذا إنما ورد لفائدة فينظر فيرى حصول زيادة في الكلام مبالغة لو لم يقلب لم تحصل»[1].

وفكرة : مخالفة أهل اللسان بقلب الكلام عن وجهه إرادة المبالغة التامة ، غير دقيق ، ولا واضح ، وهو يعني : خروج الكلام على مقتضى الظاهر ، وما سماه ليس قلبًا للكلام لشهرة القلب في قولهم : عرضت الناقة على الحوض وخرق الثوب المسمار ، وقولهم في اللفظ المفرد : طاغوث . ثم إن هذه الأساليب في كلام العرب وفي القرآن الكريم ليس مخالفة لأهل اللسان بل هو أسلوبهم وصميمه على أن المبالغة التامة مرتبطة بهذا القلب المزعوم ، وأدق منه وأكثر توفيقًا الإمام أبو حيان حين علق على قوله تعالى ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ بقوله إذا نفي حكم عن محكوم عليه مقيد ، فالأكثر في لسان العرب انصراف النفي لذلك القيد ، ويجوز أن ينفي ذلك الحكم فينفي ذلك القيد ، فيكون على هذا نفي السؤال ونفي الإلحاح ، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ثم قال ملخصًا «نفي الشيئين تارة يدخل حرف النفي على شيء فتنتفي جميع عوارضه ، ونبه على بعضها في الذكر لغرض ما ، وتارة يدخل حرف النفي على عارض من عوارضه والمقصود نفيه فتنتفي لنفيه عوارضه»[2].

---

(١) راجع العمدة لابن رشيق ٦٥/٢ وبديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ١٥٣ .
(٢) البحر المحيط ٣٢٩/٢، ٣٣٠ .

والواقع أن تفسير هذه الظاهرة نجدها عند الإمام القرافي ، قال فيما نقله الإمام علي بن عبد الكافي السبكي في كتابه : الإبهاج في أصول الفقه :

« إن الوصف إذا كان غالبًا لازمًا لتلك الحقيقة في الذهن بسبب الشهرة والغلبة فذكره إياه مع الحقيقة عند الحكم عليها لعلة ، لحضوره في الذهن ، لا لتخصيص الحكم به .

وأما إذا لم يكن غالبًا ، فالظاهر أنه لا يذكر مع الحقيقة إلا لتقييد الحكم به ، لعدم مقارنته للحقيقة في الذهن حينئذ ، فاستحضاره معه ، واسجلابه لذكره عند الحقيقة عند الحكم إنما يكون لفائدة ، والغرض عدم ظهور فائدة أخرى فيتعين التخصيص »[1].

وقد أعجبني ضياء الدين بن الأثير رحمه الله حين يحاول وضع قاعدة بلاغية ثم يساور الأساليب فيجد ما يخالفها أن يرجع ـ إجلالاً للحق ـ عما وضعه كقوله : « إذا جاءت صفتان يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتفي بذكرها دون الأخرى التي تجيء ضمنًا وتبعًا » قال وجدت ما ينقضه : قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ذلك أنه ذكر النهر مع أنه أشد من قول أف[2]، وقد غابت عنه ـ وقت تحليل الآية ـ فكرة التأكيد مع أنه كان بها حفيا ، والواضح أنه من تأكيد المفهوم اعتناء بشأن الوالدين ، ومن النهج القرآني أنه حينما يريد أن يوفر العناية والحث والرغب والاهتمام بالأمر لخطير أثره يتبعه بنهي يؤكد مفهومه بعد الأمر به كما في قوله تعالى : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ (البقرة:٤١) .

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢) أما المخالفة بين الأسلوبين صياغة في آية البر بالوالدين فقال الرازي : إن المراد بقوله : فلا

---

(١) الإبهاج في شرح المنهاج ، للسبكي ٣٧٢/١ .

(٢) راجع المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢٣٣/٢ .

تقل لهما أف : المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير ، والمراد من قوله (ولا تنهرهما) المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له ، [1]، والواقع أن هذا تقييد أو تخصيص لدلالة (النهر) دون دليل إذ معناه : الزجر وهو عند أبي حيان ارتقاء إلى النهي عما هو ـ من حيث الوضع ـ أشد من قول «أف» وهو ينهرهما ، وعند أبي السعود أيضًا وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص ، وقد خص بعضه بالذكر إظهارًا للاعتناء بشأنه[2] وهو توكيد كما قلت كالآية ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ والملاحظ في هذه الآية ترتب التوكيد تصاعديًا ذلك أن اشكروا بمنزلة التوكيد لاذكروني للتلازم بينهما ، وقوله ولا تكفرون : تأكيد للشكر والكفر من كفر النعمة على حذف مضاف أي لا تكفروا نعمتي إيذانًا بأن كفر بالمنعم ، قال أبو حيان : لو كان من الكفر ضد الإيمان يقال «ولا تكفروا بي»[3] وهذا حق لأن ثَمَّ كثيرًا من الأفعال يحدد حرف الجر ونوعه دلالة الفعل نحو كفره وكفر به ، ودلالة الثاني من خلال الاستعمال القرآني على الكفر ضد الإيمان ونحوه ، رغب فيه وعنه ، وسها عنه وفيه وعشوت إلى الشيء وعشوت عنه ونحوها[4].

والمهم أن توكيد المفهوم لا يكون إلا في مقام له شأن وخطر كذم الإيذاء للوالدين عقوقًا أو شكر للمنعم أو إخلاص العبادة كما في قوله تعالى خطابًا للأمة المحمدية ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٣٦) ووازنها بما حكى الله

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠/١٩٠ .

(٢) راجع البحر المحيط ٦/٢٧ وتفسير أبي السعود ٥/١٦٦ .

(٣) البحر المحيط ١/٤٤٧ .

(٤) راجع البيان للخطابي ٣٢، ٣٣ .

تعالى عما وجهه لبني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة:٨٣).

نجد بسطًا وتفصيلاً وإحاطة بجوانب الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا ، ومبالغة في إحقاق ذلك وترسيخه اعتناء بشأن هذه الأمة ؛ لأنها خير أمة أخرجت للناس نزل عليها الدين كاملاً إلى يوم الدين ولذا أعقب الأمر بالنهي عن ضده ، وقال « وبذي القربى » قصدًا إلى الاستقلال في الإحسان إليهم ، بينما كلف بنو إسرائيل بما يلائم مزاجًا وزمانًا ومكانًا وأمة غريبة الأطوار ليست هي الخاتمة ، ولذا لم يكن الأمر بالعبادة مباشرًا بل عن طريق التوثيق والعهد الجازم إلزامًا بالحجة ، ثم كان الأسلوب الجامع بين النفي والإثبات « لا تعبدون إلا الله » ولم تأت الباء في « وذي القربى » ومع كل ذلك كان التولي وكراهة التكاليف الطاهرة ، ولذا عقب بالالتفات المؤنب وفيه تعبير وتركيز على نفورهم الذي جاء في صورتين تأكيدًا « التولي بالماضي والإعراض الدائم : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

وقد لحظ الرازي هذا التفاوت في الأقدار والأعمال والجزاء فقال : وانظر كيف أمر بنو إسرائيل بذكر النعمة يعني قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ والأمة المحمدية بذكر المنعم : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ... الآية[1].

ومن مجيء النهي الأمر توكيدًا قوله تعالى ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ فالنهي كالتأكيد لقوله اعتزلوا . اهتمامًا بخطورة هذا الشأن الخاص[2].

---

(١) راجع تفسير الرازي ٣٣/٣ والبحر المحيط ٢٤٤/٣ .

(٢) راجع تفسير الرازي ٦٨/٦ .

وقد لاحظت معنا أن ترتيب الأوامر والنواهي في النسق القرآني يخضع لدقة خارقة ، ويحتاج بحثًا متفرغًا ، فإتيان النهي بعد الأمر هو الأصل وقد تتوالى الأوامر أو النواهي أو تتعاقب والحاكم في هذا طبيعة الغرض والمقام ، وتأمل هذا النسق من خطاب بني إسرائيل ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة:٤٠-٤٣) فقد جاءت ثمانية أوامر وثلاثة نواه .

وفي تسلسل ذلك ووضع الجمل وضعها ترتيب عجيب وسبك وبناء للكلام بعضه على بعض من أن الواو بين المعطوفات لا تقتضي ترتيبًا - كما قال أبو حيان[1].

عود على الصفة في النفي والنهي :

١- قد يكون القيد بعد النهي أو النفي للتصوير والإثارة ذما أو ثناء لأنه من الأوصاف اللازمة . ولذا لا يتوجه إليه النفي أو النهي إلا من خلال لزومه واندراجه في الموصوف قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١) وهذا الخطاب للفقراء ، وقال تعالى في شأن الأغنياء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [2] فهو نهي عن الفعل مطلقًا ، وذكر هذا القيد وصفا لما كانوا عليه . وإن كان العلة في قتل الأولاد عندهم قدحًا وتبشيعًا وتشنيعًا وعدم

---

(١) البحر المحيط ١/١٨١ .

(٢) راجع أسرار التكرار للكرماني ص٧٥ .

ثقة في الرزاق المتين ، ولذا كانت الجملة بعد النهي مقررة لسبب النهي «نحن نرزقهم وإياكم ـ نحن نرزقكم وإياهم»[1].

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهي نهي عن الربا مطلقًا كما جاء في قوله ﴿ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وذكر القيد وصفًا للحال الشنعاء التي كانوا يوقعون الربا عليها ، وفيه توبيخ ، وخص الأكل مرادًا به المعاملة والانتفاع . لأن الأكل غالب في الانتفاع به وهو المقصود الأعظم من المال وأكبر الدوافع للضرب في الأرض[2] والارتزاق ، وطلب العيش والسعي وفعل الأكل حين يأتي منهيًا عنه في القرآن فهو كناية مصورة للشراهة والالتهام غالبًا كما سيأتي ، ومن ذكر الوصف اللازم قوله تعالى لليهود الذين يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ثم يكفرون ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

والآية : تدعوهم إلى الإيمان بالقرآن الذي ذكر كنايته (بما أنزلت) لتكون دعوى بدليلها أي لأني أنزلته فإذا كانت التوراة منزلة فالقرآن مثلها ، وهي لا يناقضها بل نزل مصدقًا لما بقي معهم منها والنهي ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ دل على أمر من مفهوم السياق أي كونوا أول مؤمن به : تعريضًا بسوء تقديرهم ، وذكر الأولية هنا أفحش لما فيها من ابتداء الكفر وبخاصة إذا كانوا موقنين أنه حق[3] ثم وضع اليد على دائهم الذي يمنعهم من الإيمان في أسلوب نهي مستقل تركيزًا على هذه العلة الخبيثة ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وهو طلبهم الرئاسة أو الهدايا والمنح على فتاواهم الآثمة الباطلة كإنكارهم

---

(١) راجع البحر المحيط ٤/٢٥١ .

(٢) راجع الكشاف للزمخشري ١/٤٦٣ وتفسير الرازي ٥/١١٨ والبحر المحيط ٣/٥٤ وتفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٤/٥٥ وتفسير أبي السعود ٢/٨٤ .

(٣) راجع الكشاف ١/٢٧٦ والبحر المحيط ١/١٧٧ .

صفة رسول الله ﷺ ، وأن المغفرة أكيدة لهم وغير ذلك مما يشيع في عامتهم ويصدهم عن الهدي ، وهو ثمن قليل من قليل هو متاع الدنيا ، ووصف الثمن بالقلة من الأوصاف اللازمة التي لا مفهوم لها ، فهو بخس زهيد تافه وسما لهم بالجشع والغباء وهو أيضًا من لوازمهم[1]، وقد يكون القيد بالشرط ، ومفهومه ـ كما قالوا ـ أقوى من مفهوم الصفة كما في قوله تعالى وقد جاءت إماء لبعض المنافقين ـ يجبرونهن على البغاء مع كراهيتهن له حبا في المال ، حين إلى الرسول ﷺ شكيات ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ (النور:٣٣) قال الكرماني شرط في الظاهر وليس بشرط ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ وقال غيره : الشرط لتفحيش الإكراه على ذلك ، لأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة زجرًا وتقبيحًا لسلوكهم ونعيا عليهم[2].

فعل الأكل بعد النهي في القرآن :

وقد جاء في ستة أساليب ، أسلوب واحد مراد به دلالته اللغوية الخاصة بمعنى مباشرة الأكل دون مطلق الانتفاع كقوله تعالى في أكل الذبح ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ (الأنعام:١٢١) [3] وجاء خمس مرات في الأموال خاصة وعامة .

كقول الله تعالى عن مهور النساء : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء:٢) وفي أكل أموال الناس بالباطل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء:٢٩) ﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (النساء:٢٩) وعن مال اليتيم ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ (النساء:٦) ولا شك أن

---

(١) راجع تفسير الرازي ٤٢/٣ .

(٢) راجع البحر المحيط ٣٨٠/٨ والشهاب ٣٧٨/٦ والإبهاج ٣٧٨/١ .

(٣) المعجم المفهرس ص ٣٥ .

تخصيص صورة من صور الانتفاع بالمال وهي الأكل تصوير لهذا الحدث الخاص بما يصحبه من حركات نهمة شرهة مقبلة بحيوانية على افتراس المال الحرام وبخاصة للضعاف كاليتامى والنساء تحقير وزجر قاس وذم لاذع ترهيبًا ثم ترغيبًا في التعفف .

وإذا كان هنا نهي عن أكل مال اليتيم فهناك آيتان في هذا الصدد تنهيان عن مجرد الاقتراب من مال اليتامى قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾(الأنعام:١٥١، والإسراء:٣٤) ونلحظ هنا ما يلي :

١- الآيتان مكررتان جاءت إحداهما في الوصايا العشر من سورة الأنعام والثانية من آيات الحكمة في سورة الإسراء ، وهي آيات صيغت في صورة قوانين ثابتة مركزة لتحفظ ويعمل بها أبدًا ، ومن هنا وفر الأسلوب كل صلاحية واحتياط وشمول .

٢- لم ينه عن الأكل مرادًا به الانتفاع المباشر بل عن مجرد القربان منها ، وهي كناية مصورة داعمة للمعنى لأن اليتيم نبتة غضة ضعيفة والطمع فيهم - ممن لا خلاق لهم - أشد .

وقد جاء النهي عن القرب من الشيء في إحدى عشرة آية[1] آيتان عن قرب الشجرة لآدم وحواء نحو : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة:٣٥) ، (الأعراف:١٩) وعن قرب مال اليتيم في آيتين سبقتا وآيتان عن قرب الزنى والفواحش : الأولى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ (الإسراء:٣٢) والثانية من وصايا الأنعام (الأنعام:١٥١) وآية عن قرب الصلاة في حالة السكر ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ (النساء:٤٣) وآية عن قرب المشركين من المسجد الحرام ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (التوبة:٢٨) وآية يهدد يوسف إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ﴿ فَإِن لَّمْ

---

(١) المعجم المفهرس ص ٥٤٠ .

تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ثم آية واحدة كان للقرب دلالة خاصة في قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢)[1].

وقد أمر المسلمين باعتزال النساء في المحيض وهو اعتزال خاص ثم أكد الأمر بالنهي ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ : نهيًا لا عن القرب منهن بل والتمتع بما سوى ما اشتمل عليه الإزار رحمة بهن ، فقد كانوا في الجاهلية تقليدًا لليهود والمجوس يقاطعوهن تمامًا ، وإنما هو نهي عن قربانهن وهو والاعتزال كناية عن الجماع ، والقرآن دائمًا حين يعالج ما أحل يكنى عن الجماع بكنايات رقيقة مهذبة كالمس ، واللمس والقرب والإتيان ، أما ما يتعلق بالفاحشة والزنا واستلاب الأعراض فهو يعالجها بحسم وصراحة ويشدد النكير على من لا حياء عنده كآيات الزنا في القرآن . وتلحظ في الآية هذا التحذير بالأمر والنهي معًا . ثم جاءت الإباحة بعد الحظر ، وكثيرًا ما يعقب أمر الإباحة التحريم . كما قال أبو حيان . لكنها إباحة مقيدة بمكان الزرع قطعًا على الشيطان نفثه وهمزه ، ثم علل ذلك بأعلى وأنقى دافع للالتزام وهو حب الله للتوابين والمتطهرين ، وتلحظ تكرار مادة الطهر ثلاثًا والتوبة من اللمم مرة سموا بالإحساس ، وتوجيهًا للغرائز ورقيًا بالمسلم إلى أفق الطهارة والنقاء لأنه هكذا دائمًا بالذكر والإيمان .

ولا بأس من تحليل بعض الآيات التي جاء القرب فيها كناية عن المبالغة في النهي عن الفعل كقوله تعالى : لآدم وحواء ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٣٥) ، (الأعراف:١٩) وقد أشار البيضاوي والشهاب إلى ما في الصياغة من خصائص تفيد المبالغة القوية

---

(١) راجع في الآية الكشاف ٣٦١/١ والبحر ١٦٨/٢ وأبا السعود ٢٢٢/١.

في النهي : تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في التحريم ، وتنبيهًا على أن القرب من الممنوع المشتهى يورث داعية وميلا نفسيًا يقوي ويلهي عن داعي الشرع والعقل «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» تصويرًا لحقيقة نفسية كبرى ، ثم إنه رتب العصيان على القرب مع أنه مرتب على الأكل ، كما أن الظاهر أن يقول «فتأثما» في الجواب فعبر بالظلم الذي ينصرف إذا أطلق في القرآن على الكبائر وقد يدل على الكفر ذاته ، وقوله «تكونا» دالة على الدوام ولم يقل : ظالمين على التنبيه بل قال : «من الظالمين» وهذا التعبير أعني هذا الأسلوب من جعل المتحدث عنه أو المتكلم أو المخاطب منسوبًا إلى قوم غلبت عليهم صفة معينة كما أشار الزمخشري في آية الشهادة على الوصية في المائدة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ ﴾ : وهذا أبلغ من قولك إني آثم ، فكأنه كناية عن تحقيق الوصف أي فتكونا ظالمين منتسبين إلى قوم ظالمين ، وقد كثر هذا الأسلوب الذي نسجت عليه التعابير لهذه الكناية المصورة لمقتضى المقامات[1].

وفي الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ النهي في الظاهر للمشركين وفي الباطن للمؤمنين ، فهو كناية عن نهي المؤمنين عن تمكينهم كما قال العلماء[2].

بين النهي عن القرب والاعتداء :

وفيما يتعلق بحدود الله جاء من المتشابه قوله تعالى : عن الاعتكاف في المساجد أثناء الصيام وشروطه من البعد عن النساء : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٧) كما جاء بعد أحكام الطلاق والعدة

---

(١) راجع في آيات القرب البحر ٢٥٢/٤ ، ٢٥٥/٣ والشهاب ١٣٦/٢ ، ١٦٥/٤ ، ٣١٦ .

(٢) راجع مثلاً حاشية الشهاب ٣١٦/٤ .

والإيلاء : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة:٢٢٩) والإسكافي والكرماني وأبو حيان وأبو السعود على أن ما كان من الحدود نهيًا كان النهي عن قربانه أبلغ كآية الاعتكاف ، وما كان منها أمرًا نهى عن مجاوزته وهو معنى الاعتداء في آية الطلاق إذ بينت الآية عدد الطلاق ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد متناسب أن ينهى عن التعدي[1]، ونلحظ هنا أن آية الطلاق بالغت في التهديد بتكرار الاسم الجليل ووضعه موضع الضمير لتربية المهابة والروعة والتخويف من انتهاك حدود الله ، كما أن التعقيب بأسلوب الشرط ، وما فيه من ترتب وتسبب ولزوم بين الجزاء والشرط وكذلك التعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك) إبعادًا وذمًّا وضمير الفصل والظالمون بهذا الوصف الخاص على سبيل الحصر بتعريف الطرفين وتأكيده بضمير الفصل كل ذلك ، بلوغًا بالتهديد والتنفير إلى أقصى مدى .

لأن تشريعات الطلاق والعدة والإيلاء كلها حدود لا يمكن النهي عنها ؛ لأنها حلول لمشكلات اجتماعية ، وإنما ينهى عن تجاوزها رفضًا ، أو مخالفة وتجاوزًا ، تساهلاً في التكاليف وما يترتب عليه من تسبب وهمجية في شئون الأسرة التي كثف القرآن عنايته باستقرارها على هدى من الله ، وهذا بعض من أسرار التعبير بالاعتداء دون القربان إذ لا يتأتى والله أعلم .

النهي عن الكون على صفة :

وهذا للقصد إلى التأكيد والمبالغة ، وإنما يكون هذا في مقامات يتطلب النهي عن الكون على صفة دون النهي عن نفس الصفة أعني الاتصاف بها .

---

(١) راجع الرازي ٦٨/٦ ، ١٠٣/٦ والبحر ٥٤/٢ وأبا السعود ٢٢٧/١ ودرة التنزيل للإسكافي ص ٣٦ وأسرار التكرار للكرماني ص ٤١ .

والواقع أن النواهي في القرآن منها ما جاء مباشرًا داخلاً على الصفة في مقامات التشريع والتأديب والأخلاق ، نهيًا صريحًا قاطعًا وهو أكثر النواهي في القرآن كقوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام:١٥١) .

والنوع الذي دخلت فيه لا على الكون جاء في ثلاثين أسلوبًا وهي كثرة في ذاتها قليلة بالإضافة إلى النوع الأول الأغلب[١] ، وقد عللوا بلاغة ما نحن بصدده أنه يدل على عموم الأكوان المستقبلة على تلك الصفة ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة ، فهو نهي عن عموم يستلزم عموما ولذلك كثر النهي عن الكون ، والكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي لأن الكون والوجود ـ كما قال الرازي ـ ليس مقدورًا للمخاطب حتى ينهى عنه حقيقة[٢].

وأكثر هذه الأساليب جاء خطابًا لرسول الله ﷺ تثبيتًا وتنزيهًا وتسلية وربطًا على قلبه الشريف وقد تفاوتت أساليب النهي عن الكون على النحو التالي :

١- النهي عن الكون بحذف النون من الفعل « يكن » كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٢٧) ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ (هود:١٠٩) دلالة على القلة الضئيلة فهو نهي عن التعرض لأدنى ضيق من مكر المشركين أو أدنى شك في بطلان عبادتهم .

٢- النهي مع إثبات النون كقوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (آل عمران:٦٠) .

---

(١) المعجم المفهرس ص ٦٣٨-٦٤٠ .

(٢) راجع الرازي ١٣١/٤ والبحر ٤٣٦/١ والشهاب ٢٥٦/١ .

ولما كان الحرج مما لا ينهى عنه ، والشك غير متوقع كان نهيًا عن التعرض للحرج بطريق الكناية ونهي عما يوقع في الريب ، باكتساب المعارف المزيلة للشك .

وفي الآية : فسر الزمخشري الحرج بالضيق والرازي بالضيق أو الشك وضعفه أبو حيان وقال : إن كان صح عن ابن عباس فالمراد النهي عن التعريض له بطريق الكناية كما في قولهم : لا أرينك ههنا ، فإنه في الظاهر للمتكلم وفي الواقع للمخاطب أي لا تكن ههنا بحيث أراك ، إذ الرؤية مترتبة على الوجود في المكان ففيه كناية ، فكأنه في قوله ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ كناية مترتبة على كناية ، والمعنى لو كان الحرج مما ينهى عنه لنهيناك عنه فلا تتعرض له ضيقًا أو شكا أو غيرهما كما فسر ابن عطية[1] ، وفيه تنزيه للنبي ﷺ عن النهي المباشر لأن ثَمَّ ما يزيله ويكون سببًا لشرح الصدر وطمأنينة القلب وهو القرآن العظيم .

والآية الثانية جاءت أثر مثل عيسى وخلقه وأنه مثل آدم وقيل آية المباهلة ولما كان الشك غير متوقع ،والكون ليس مقدورًا له كناية عما يصح النهي عنه ، أي ما يوقع في الريب باكتساب المعارف اليقينية ، وأجاز بعضهم أن يكون الخطاب لغير معين أو للرسول والمراد أمته ، وفيه كناية أخرى قوله من الممترين إذ قولك ـ كما في الكشاف ـ فلان من العلماء أبلغ من فلان عالم لأنك تشهد له كونه معدودًا في زمرتهم ، وسر هذا التركيب متعالم عند العلماء نبه إليه ابن جني في الخصائص ثم سار على الدرب كثيرون فهو لتأكيد النهي[2].

---

(١) راجع الكشاف ٦٦/٢ والرازي ١٦/١٤ والبحر ٢٦٦/٤ والشهاب ١٤٦/٤ .

(٢) راجع الكشاف ٤٣٣/١ وراجع حاشية الشهاب ٢٥٦/١ ، ١٧٨/٢ ، ٧١/٤ .

وجاء من هذا اللون قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥) والنهي توكيد للأمر دال على الكناية المصورة .

وجاء في سورة النمل تسلية للرسول الكريم وتسرية لإعراضهم عن الآيات القرآنية والكونية : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النمل:٧٠) أما آية النحل السابقة ١٥٧ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فهي آية شفيقة نزلت تصبر النبي والمؤمنين في شهداء أحد العظام على هامتهم أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، وقد ملأ القلوب الأسى والحزن فنزلت الآيات العديدة تصف جزاءات الشهداء عند الله كما في آيات آل عمران وتصبر النبي والمؤمنين وتسلي .

والمقام رفيق حزين وحذفت النون بيانًا لتركه أدنى أضيق مما يمكر المشركون .

وهذه المجموعة الثانية ومثلها عديد من الآيات جاء الفعل فيها على الأصل « يكن » بثبوت النون تناسب مع السياق الذي جاءت فيه .

٣- قد تحتاج المقامات قدرًا أكبر من التأكيد ملاءمة جاء فعل الكون مؤكدًا كقول الله تعالى بعد آيات تحويل القبلة وأسرارها ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة:١٤٧) .

لأنه ﷺ ووجه بحملة تشكيك ـ على حد التعبير المعاصر ـ من اليهود والمنافقين وهم مزدوج كما يقول الكرماني فكان الحسم وتأكيد النهي[1] .

أما قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٥) .

---

(١) أسرار التكرار للكرماني ص ٥٠ .

فقد ذكر أبو حيان رحمه الله الآراء العديدة التي تجعل الخطاب للنبي الكريم ، ثم ردها في حزم وجعله للسامع على العموم كأنه قيل « ولو شاء الله أيها السامع ذلك أن قوله ولو شاء الله لجمعهم على الهدى إخبار بأنه لا يقع في الوجود إلا ما شاء الله وقوعه ، وهذا من قبيل الدين والعقائد ، والرسول ﷺ عالم بمضمونه مأمور بتبليغه[1].

ثم إن هذا الفعل قد خوطب به المؤمنون تحذيراً من التشبه بأقوام ضالين وتجريداً للإيمان الخالص ، وإقامة للخلق الإسلامي المستقل ، وتربية للشخصية الإسلامية في إطار النظرة الإسلامية العامة للسلوك ، وذلك في نحو سبع آيات[2] كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران:١٠٥) ﴿ لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران:١٥٦) ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال:٢١) إلى آخر هذه الأساليب .

وهو تشبيه منهي عنه أو مسلوب والطرفان من ألوان الطباق المتقابل بين الشخصيات المتصفة بصفات متقابلة تصويراً وترغيباً وترهيباً .

كما جاء النهي دون تشبيه في قوله تعالى ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ (الروم:٣١،٣٢) وهذا أبلغ من القول ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا ﴾ هنا إذ فيه إلهاب وتنفير من الإشراك مؤكدة للأمر بالتقوى وإقامة الصلاة وفيه إيحاء بأن في التقوى والصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين الذين توزعوا شيعا من كفر وشرك وإلحاد وما دار في هذا الفلك اللعين .

---

(١) البحر المحيط ١١٦/٥ .

(٢) المعجم المفهرس ص ٦٣٧ .

ضرب آخر من النفي

والقيد اللازم قد يأتي صفة لموصوف منفي فينتفي الموصوف والصفة أو المقيد والقيد جميعًا . وقد جاء ذلك لأسرار بلاغية عالية .

تأمل قول الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَىٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة:٢٧٣) .

فهم من الفقراء المتجملين الذين لا يبدون فاقتهم لا بلسان الحال ولا المقال ، تعففًا وأنفة واحترامًا للذات ، وقد نزلت في فقراء المهاجرين الذين تركوا دنياهم في مكة . وكانوا نحو أربعمائة وهم أصحاب الصفة وكانوا رهبانًا بالليل صوامًا بالنهار مغاوير في الحرب لم يشغلوا عن رسالتهم أولئكم الرجال الذين وصفوا في الآية بخمس صفات ، يحسبهم الذي لم يختبر أمرهم من التجمل وترك المسألة أغنياء ، وقوله تعرفهم بسيماهم : أبطل الرازي أن يكون صفة الوجه ، أو جهة الفقر ونحوه لأنه علامات الفقر الواضحة ، بل هي الهيبة والوقار وسمة الإيمان القوي فهو صفة مدح وكمال . ويضعف ما رآه الكشاف من رأييه وهو أن يكون سؤالاً بتلطف ، ورجح نفي السؤال والإلحاح جميعًا وهو ما عليه جمهور العلماء ، ومن أسرار هذه العبادة التعريض بالسائل الملحف في السؤال ، وقد ألمح الزجاج إلى أنهم نوع من الفقراء العظام الذين لم تخرج الأرض أمثالهم تأدبًا بأدب الله وإقبالاً عليه ورضا بالقليل مع السعي والحركة النافعة الدءوب .

وقد نظر العلماء بالآية الشريفة وأمثالها بيت امرئ القيس :

على لا حب لا يهتدى بمناره إذا ساقه العود النباطي جرجرا

واهتمام العلماء بالتنظير للأساليب القرآنية من الشعر الجاهلي بدأ مبكرًا جدًّا مع ملاحاة نافع بن الأزرق للإمام عبد الله بن عباس في فناء الكعبة وسؤاله عن حروف من القرآن وطلبه تعضيدها بالشعر العربي ، ومن ناحية أخرى

فإحياء الشعر الجاهلي كان من أهم الأمور لبيان بلاغة العرب الذين تحداهم القرآن ، ثم لبيان مدى سموق البلاغة القرآنية أو بتعبير العلماء لتعرف حجة الله في الإعجاز .

وانتقد أبو حيان تنظير العلماء ولحظ أن الشبه في مطلق انتفاء شيئين لأنه يلزم من نفي المنار نفي الهداية التي هي بعض لوازمه ، ولا يلزم من نفي الإلحاف نفي السؤال بل يلزم من نفي السؤال نفي الإلحاف إذ نفي العام يدل على نفي الخاص ، والتشابه التام غير صواب كما لحظ أبو حيان ، ويبقى أن نقول إن بين الهداية والمنار عمومًا وخصوصًا ولا يلزم من نفي أحدهما نفي الآخر .

فإن خصصت الهداية بكونها هداية منار لزم من نفي أحدهما نفي الآخر[1] .

وقال تعالى في الكافرين الذين يجادلون في آيات الله ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر:١٨) فهو نفي للموصوف والصفة أي لا شفيع فيطاع إذ ليس للكافر شفاعة كقول العرب : «ولا ترى الضب بها ينجحر»[2] ومثل الآية : قوله تعالى عن المعذبين ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ فليس لهم كيد يغني يوم القيامة[3] وقد نقل الإمام تاج الدين السبكي أسرارًا عدة لهذه الصفة نوجزها منها : قطع أطماع الظالمين وتيئيسهم لأنهم يتطلعون إلى الشفيع وهذا أنكى لهم ، ومنها : أن من الشفعاء من تقبل شفاعته وهو المقصود هنا فدل عليه يريد أن مفهوم العبارة يدل على إثبات الشفيع والشفاعة وذلك في جانب المؤمنين ، ومنها : أن الغالب في الشفاعة استعمال لفظ القبول والنفع وما أشبهها ، أما الطاعة فإنما تقال في الأمر فذكرها هنا لأن شأن الظالمين في

---

(١) راجع في الآية الكشاف ٣٩٨/١ والرازي ٧٩/٧-٨٢ والبحر ٣٢٩/٢ .

(٢) راجع الرازي ٥٠/٢٧ والبحر ٤٥٧/٧ .

(٣) راجع الشهاب ١٠٨/٨ .

الدنيا القوة ، والمتكلم منهم بمنزلة من يأمر فيطاع ، فنفى عنهم ذلك تبكيتًا وحسرة في الآخرة ، كما أن فيه إشارة إلى شدة ذلك اليوم العصيب ، وإن شدته بلغت مبلغًا لا ينفع فيه إلا شفيع له قوة يطاع لو وجد وهو لا يوجد وهذا قريب مما قبله وفيه نفي النصرة وتحقيق الإطاحة بهم .

وقد ذكر الزمخشري فائدة أو سرًّا للصفة هنا وضحه توضيحًا نكتفي بتلخيص ابن المنير له بقوله فائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفي الصفة ، لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعًا ، كقولك ليس معي سلاح أحارب به تعني كيف تتأتى مني المحاربة ولا سلاح معي ، قال ابن المنير قلت : فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين[1] .

وهذا مثل حين يقف العلماء أيًّا كان اختصاصهم أمام آية قرآنية يستشفون أسرارها ويقتبلون إلهامها وظلالها تتبعًا بالحس والفكر لإيماضها وعطائها ، وهو لون طيب من ألوان التحليل الفني المبدع .

وقريب من الآية في نفس الغرض قوله تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾ (المدثر:٤٨) والنفي يتناول مدخوله من شفيع وشفاعة ، كما يومئ إلى وجود شفاعات ينتفع بها في هذا اليوم للمؤمنين[2] ومنه : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات:٣٦)[3] فهو موقف خاص يقال فيه : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فلا إذن ولا اعتذار كبتا لمشاعر الحسرة الكامدة في قلوبهم .

الصفة للتأكيد لا للتقييد :

كقوله تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ (المؤمنون:١١٧) وليس ثَمَّ إله آخر معه برهان ، بل المراد نفي الإله

---

(١) راجع الإبهاج ٢٧٦/١ ثم الكشاف والانتصاف ٤٢١/٣ .

(٢) راجع البحر ٣٨٠/٨ .

(٣) المرجع السابق ٤٠٨/٨ .

الباطل على أبلغ وجه لأن الوصف مؤكد لا مقيد كقوله ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ (آل عمران:١٥١) والبرهان الحق والسلطان الأبلج طريقه تبيين الله ، والآلهة الباطلة مستحيل أن يكون لها دليل أو برهان ، فهو نفي للسلطان والنزول معًا مبالغة في نفي الشريك بنفي لازمه على الطريق البرهاني[1]، ولا يخفى عليك أن الصفة في البلاغة تعني المعنى القائم بالغير كما تلحظ في الآية الأخيرة .

نفي الشيء لنفي ثمرته

ذلك أن الشيء إذا فقد ثمرته وما لأجله كان سر وجوده كان نفيه أولى من إثباته ، بيد أنه قد يثبت الفعل ثم ينفى في سياق واحد ، والإثبات هنا لصورة الفعل فحسب وشكله دون فحواه ، كقوله تعالى في مقام الذم للكافرين بأشق ما يذم به عربي على نفسه ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ ﴾ (التوبة:١٢) فقد أثبت لهم أيمانًا نفاها عنهم على وجه التأكيد ونفي الجنس ، لأنهم نقضوها نقضًا بعد توثيقها وتأكيدها ، وتأمل موقع «من» هنا الدالة على تثبيت العهد والإقامة عليه زمنًا ، ومن ثَمَّ يكون النقض أدخل في الإجرام والقبح .

وعن كتب السحر عند اليهود واشترائها قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٠٢) قال الطبري فيما نسبه إلى بعضهم أثناء تأويله «وإنما نفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله لو كانوا يعلمون بعد وصفه إياهم بأنهم قد علموا من أجل أنهم لم يعملوا بما علموا وإنما العالم العامل بعلمه . ثم ذكر أنه مرجوح وأن الأولى أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا بجعله

---

(١) راجع في الآيتين : البحر ٣/٧٧، ٦/٤٢٥ والشهاب ٤/١٦٥، ٦/٣٥٠.

جملة «ولقد علموا» بعد «لو كانوا يعلمون» وتقديم جمل على جمل في التأويل رأي لا يقوم ، ثم إن الزمخشري التقى بالمرجوح وصاغه بفن ولباقة قائلاً : «أثبت لهم العلم أولا على سبيل التوكيد القسمى ثم نفاه عنهم جعلهم حين لم يعملوا كأنهم منسلخون عنه» وقد نقل السكاكي هذا التحليل بمجمل ألفاظه ، وقد حرصت على تتبع الفكرة تاريخيًّا حتى الطبري لأن القزويني والزركشي والسيوطي وكثيراً من المعاصرين تقليداً ينسبون هذا التحليل للإمام السكاكي[1]، والآية تذم اليهود وتشنع عليهم اشتغالهم بالشر وشغفهم بالضرر وأنهم جبلوا عليه فحتى كتب السحر أقاموا لها ـ سوقًا نافقة حبًّا مستغرقًا في المال عن طريق الشر ، وتأمل الجناس اشتروا كتب السحر ليشروا أي يبيعوا أنفسهم للشيطان والجحيم ، تحس أن هؤلاء جبلوا على التجارة الضارة وبخاصة ما فيه دمار العقيدة والعقل والمال فكأنهم تخصصوا في تدمير كل خير جاءت به الأديان .

ومن النفي والإثبات بيانًا لتأييد الله لرسوله :

قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧)[2] وكان هذا في غزوة بدر حين احتشدت قريش فأتاه جبريل فقال خذ قبضة من التراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلي كرم الله وجهه : أعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا». وكان المسلمون ـ بعد المعركة ـ يفتخرون بمن قتلوا وأسروا . فبين الله لهم أن النصر من عنده وأنهم لم يقتلوهم ولكن الله قتلهم بتسليط المؤمنين عليهم .

---

(١) راجع الطبري ٣٧١/١ والكشاف ٣٠٢/١ والبحر ٣٣٤/١ والمفتاح ص ١٧٢ والإيضاح ص ٩٢ والإتقان ٨٢/١ .

(٢) راجع فيها الكشاف ١٥٠/٢ ، والبحر ٤٧٧/٤ وأبا السعود ١٣/٤ ومشكل القرآن للعز بن عبد السلام ص ١٢٦ .

وإلقاء الرعب في قلوبهم ثم لون الخطاب في قوله «وما رميت» إظهارًا لهذا الشيء المعجب الفاذ ، وهو بيان حال الرمي إثباتًا ونفيًا إذ تغير المرمي من الحصباء ، في مسارات محددة راصدة قاذفة مع تكثرها وإصابتها أهدافها كل حصاة بعين تحمل في ذراتها هولاً ورعبًا يزن جبلاً ، أي وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار الجليلة حقيقة حين فعلتها صورة فذلك خارج عن طوق البشر ، إعجازًا وتأييدًا وحثًا على مزيد الشكر .

ومنه قول الله تعالى : صدر سورة الحج مصورًا الهول الأكبر يوم القيامة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

إن الأسلوب يلف النفس البشرية في دوامة من الهول يذرها ذاهلة خاشعة .

تعبيرًا مزلزل الجلال عن معاني تشيب لها الولدان : هو مروع يذهل المرضعة عما هو قطعة منها وفلذة كبدها ، وتضع الحامل ـ من رعب ـ حملها . دون أن تدري ـ والناس في ترنحهم وتخاذل جوارحهم وهمود نفوسهم وانقلاب حماليقهم خشوعًا كسيرًا سكارى وما هم بسكارى ، وأين المسكر والموقف يطير العقول الراشدة .

لقد أثبت صورة السكارى الشكلية بتداخل حركاتهم ، واختلال توازنهم وضياع إرادتهم والتشبيه البليغ اتحد فيه المشبه بالمشبه به ، وحتى لا يظن أنهم سكرى على الحقيقة نفى عنهم السكر على وجه التأكيد ، وأصوات الحروف الخاصة وائتلاف الإيقاع الخاص وتوزيع حروف المد مع كثرة حروف السين واللام والعين في تناسق يجعل للإيقاع وقعًا نفسيًا عميقًا إن أثر الإيقاع ضروب من الجلال والرهبة والهيمنة .

وهذا اللون اهتم به علماء البديع تحت اسم الإثبات والنفي ، كما نصوا على ما شمل فيه النفي الموصوف والصفة بأنه نفى الشيء بإيجابه[1].

ثم إن فكرة العام والخاص كانت تخايل للعلماء فيظهرون سرها البلاغي كقولهم إن استعمال العام في النفي أبلغ وآكد ، لأنه ينفي الخاص من باب أولى ، واستعمال الخاص في الإثبات أبلغ لشموله العام . ومن الأول قوله تعالى في حوار بين نوح والملأ من قومه : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فبالغوا في إثبات الضلال تأكيدًا مكررًا ، وجعلوا الضلال ظرفًا له ، ووصفوه بالوضوح المبين ، فبالغ في نفي الضلال عن نفسه أي ليس بي شيء من الضلال وقدم الظرف «بي» لاختصاص النفي به وإثبات الضلال لهم وهو تعريض بضلالهم[2]، ومنه ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾[3].

ومن الثاني : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ من مثل ضربه الله للمنافقين في سورة البقرة : فهو نفي للضياء من باب أولى إذ في الضياء دلالة على الزيادة ، فلو قيل «ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا والغرض كما يقول في الكشاف «إزالة النور عنهم رأسًا وطمسه طمسًا» وهو متلائم مع قوله تعالى وتركهم في ظلمات لا يبصرون» ثم مع إسناد الذهاب إلى لفظ الجلالة عز وجل ودخول الباء على النور لبيان المحو الكامل المنتقم[4].

---

(١) راجع العمدة ٧٦/٢ والمثل السائر ٢٢٩/٢ وبديع القرآن ص ١٥٢ والبحر ٣٥٠/٦ والتصوير الفني ص ٦٠.

(٢) راجع الشهاب ١٩٧/٤ والمثل السائر ٢٣١/٢ .

(٣) راجع المثل ٢٣٣/٢ والبديع القرآني ص ١١٦ والتفاسير التي سبقت في تحليل الآية .

(٤) راجع في الآية الكشاف وحاشية السيد ١٦٩/١ ومشكل القرآن للعز بن عبد السلام ، ص ٨١ والشهاب ٣٠٩/١ .

وانطماس البصائر فكلما ازداد ضوء الحق تألقًا وإشراقًا ازدادوا هم ظلمة وانتكاسًا[1] .

تبادل الأساليب :

بمعنى دلالة أسلوب على أسلوب آخر مبالغة ودقة تصوير ، ووفاء بالأغراض:

١- من ذلك ورود الخبر مرادًا به الأمر حثًّا على المسارعة إلى الامتثال ، وكأنه نفذ ثم أخبر عنه ، وهو كثير كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ (البقرة:٢٢٨) ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ (البقرة:١٩٦) ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة:٢٣٣) ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾(آل عمران:٩٧). وأكثر ما ورد من ذلك أمور تشريعية لا تستقيم بدونها الحياة عبادة وسلوكًا واجتماعًا .

٢- من الخبر مراد به النهي قوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ (النور:١٧) : أي لا تعودوا .

٣- من الخبر مرادًا به الدعاء ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧،٩٨) .

٤- قد يعبر بأسلوب النفي عن أسلوب النهي وذلك حين يقتضي المقام اعتناء بشأن المنهي عنه وتأكد طلبه فيعبر بالنفي إخبارًا كما مر في تعليله كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وأسلوب النفي وإلا مناسب لأخذ الله الميثاق على بني إسرائيل . ويعضد ذلك قراءة ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ والقرينة على تأويل النفي دلالة السياق ، ثم دلالة الواقع الحالية وهو أنه لو كان خبرًا ما تخلف وقد وقع

---

(١) انظر النبأ العظيم دكتور دراز ص ١٦٨-١٧١ .

منهم عبادة غير الله تعالى ، ومثله قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة:١١٣) أي لا تستغفروا لهم ، ودخول ما على كان ولام الجحود مبالغة في التعليم والعقاب ، أي ما كان ينبغي لهم فعل ذلك ماضيًا حتى يحرصوا على تركه آتيًا ، ومثله ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦) وهو مطلق وإن قيده الإمام ابن الشجري بأن ذلك قبل أن يأمره بالقتال : يريد آية السيف في سورة التوبة .

وقال الله تعالى : معددا جرائم اليهود ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩٣) حظرًا للقتل وتنفيرًا منه بتصوير المنهى عنه بصورة تنفر منها النفس والطباع ، وتأمل : دماءكم فهم يقتلون أنفسهم بأيديهم تأكيدًا لبشاعة القتل وتمهيدًا للتشنيع عليهم حين لم يمتثلوا ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1] .

بين النفي والنهي

وقد يتوقف أو يختلف العلماء في بعض الأساليب المنفية هل هي نفي ظاهرًا وباطنًا أو دالة على النهي كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٩).

فقد روى الطبري عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم أن المراد بالمطهرون الملائكة أو الملائكة والرسل وليس أصحاب الذنوب من البشر ، والكتاب المكنون : المصون عند الله .

---

(١) راجع في تبادل الأساليب : الأمالي الشجرية لابن الشجري ٢٧٢/١ والمحصول للرازي قسم ٥٢/١١ والإيضاح للقزويني ص ٢٤٥ .

ثم اختار العموم فالمطهرون شامل للملائكة والرسل ومن كان مطهراً من البشر ، ويفهم من هذا أن النفي مراد به النهي على رأيه .

وتردد الرأيان عند الزمخشري وأبي حيان وأبي السعود فإذا كانت الجملة «لا يمسه» صفة أخرى لكتاب مكنون فهو نفي وإخبار ، وإن كانت وصفًا للقرآن «إنه لقرآن» فهو نفي بمعنى النهي ، أي لا ينبغي أن يمسه إلا من كان على طهارة من الناس[1] .

ورجح الرازي أنه نفي وإخبار لفظًا ومعنى ، وأن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ بدليل ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ذلك أن تسلسل ألفاظ الحفظ يبدأ بمنشور ثم مستور ، فإذا كان شريفًا عزيزًا لا يكتفي بالصون والحفظ بل يستر عن العيون ، فإن ازداد عزة فبأن يكون مخزونًا ثم يجعل مدفونًا فقوله : مكنون أي محفوظ غاية الحفظ فذكر اللازم وأراد الملزوم ، وذكر كلمة كتاب لتأكيد الرد على الكفار إذ يقولون إنه مخترع ، فقال في كتاب أي لم ينزله بعد الملك إلا بعد أن أخذه من كتاب فهو ليس بكلام الملائكة فضلاً عن الجن «ومكنون» ردًا على من قال أساطير الأولين .. ثم هو يضعف رأي ابن عطية القائل بأن المعنى على النهي[2] ويرى الرازي أيضًا أنه لو كان المراد نفي الحدث لقال لا يمسه إلا المتطهرون أو المطهرون بتضعيف الطاء ، ومع أنه في الكشاف حكى القراءتين قال الرازي القراءة المشهورة الصحيحة المطهرون من التطهير لا من الأطهار[3].

والرازي رحمه الله كان عقلاً كبيراً جباراً وله لمحات فذة جليلة في تفسيره ، وفكرة سلسلة ألفاظ الحفظ من الأفكار البكر التي لم يستغلها العلماء في اللغة

---

(١) راجع الكشاف ٥٩/٤ والبحر المحيط ٢١٤/٨ وأبا السعود ٢٠٠/٨ .

(٢) راجع الرازي ١٩٣/٢٩ والبحر المحيط ٢١٤/٨ .

(٣) الرازي ١٩٦/٢٩ .

والبلاغة ، ذلك أنه لم يكتف كالعلماء بإنكار الترادف ، وحتى اجتهادهم أحيانًا في تعيين دلالة المترادفين كصنيع الخطابي والراغب ، بل إنه لمح هذا الاختلاف في درجات المعنى وتسلسله ومناسبة كل لفظ بدرجة من المعنى لمقام خاص ، وهي فكرة فاذة لو استغلت في المعاجم وعلم الدلالة والبلاغة والنقد في تحليل النصوص وبيان إصابة المعنى الذي أكثروا منه قولاً واصفًا دون مزيد من التطبيق ، نعم لو استغلت لأعطت اللغة بعامة والقرآن بخاصة بعض المكنون من أسراره الجليلة .

المهم أن الرازي كان مرجعًا أساسيًّا لتحليلات ابن القيم في بدائع الفوائد لهذه الآية التي ذكر فيها ما ذكره الرازي وزاد تأكيدًا لرأيه أن الآية مكية في سورة مكية تتضمن أصول العقيدة ، وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي وهو حكم مس المحدث للمصحف ، وأنه لو أريد المصحف لم يكن في الإقسام بهذا القسم العظيم الجليل كبير فائدة[1]، فالمعنى على النفي تكريمًا وتنزيهًا وترغيبًا في القرآن أليق وأخلق بالآية . والله أعلم .

* * *

(١) راجع بدائع الفوائد لابن القيم ١٩/١ والتفسير القيم لابن القيم ص ٤٨٢ .

الاستفهام القرآني

الاستفهام لون من ألوان التعبير ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس ، ويبث أخفى الخواطر والهواجس باعثًا في نفس المتلقي شتى الإيحاءات المتوهجة المتداخلة ، فتحس نبض القلوب في نبض الكلمات وحرارة الانفعالات في التعبيرات ، التي تنتفض حرارة وحياة ، وهو أسلوب لا يعتمد المنهج العقلي المجرد بل يغلب عليه إثارة العواطف وشحن الوجدان ، فهو أسلوب وجداني بالدرجة الأولى ، ولا شك أن الاستفهام القرآني كغيره من وسائل الأداء حياة مليئة نابضة لا يعالج عالم الإنسان الداخلي والخارجي ، أو الأكوان المحيطة به والتحام الإنسان بها فحسب بل يمد جناحيه ليستوعب الزمان كله بأقسامه وأحداثه بل وما قبل الزمان وما بعده من نشأة الخلق ومشاهد البعث .

مناهج البحث في الاستفهام القرآني :

في التراث الإسلامي أكثر من اتجاه في البحث الاستفهامي :

- فهناك منهج النحاة وأكثرهم يذكر أدوات الاستفهام ودلالاتها والتمييز بينها وهم يعرضون - أثناء بحثهم - لبعض معانيها البلاغية في تخفف وسرعة وتمثيل دون تحليل غالبًا بدءًا بسيبويه ثم من بعده ومن أبرز هذه المؤلفات أمالي ابن الشجري ، والمغني لابن هشام .

- وهناك منهج المفسرين بدءًا بالكشاف ، فهم في تفسيرهم للذكر الحكيم يذكرون المعاني البلاغية لأدوات الاستفهام وبعض أسرارها وعلاقتها بالسياق أحيانًا ، وأبرز من اهتم بذلك الإمام الرازي والشهاب الخفاجي .

وهناك اتجاه المؤلفين في علوم القرآن كالزركشي والسيوطي ، وللزركشي رحمه الله ـ منهج اختص به فقد قسم الاستفهام إلى استفهام خبرى يشمل الإنكار بنوعيه (التوبيخي والتكذيبي) والتقرير بنوعيه (التحقيق وحمل المخاطب على الإقرار) وكذا ما يتفرع مع التقرير من معان بلاغية أوصلها أحد عشر معنى ، وإلى استفهام إنشائى وهو ما أفاد معنى إنشائيًا كالأمر والنهي والدعاء والتمني ونحوها وقد بلغ بها ثمانية عشر معنى ، وجعله الإنكار والتقرير بمعناه الثاني يئول إلى الخبر دعوى بلا دليل ولي لأعناق الأساليب ومخالفة للعلماء ، لأن معنى الاستفهام مصاحب لتركيب الاستفهام ومعناه ، كما أن للسيوطي رحمه الله اتجاهًا خاصًا أيضًا في الإتقان ومعترك الأقران ، فقد عدد معاني الاستفهام تباعًا دون تحليل وأوصلها إلى اثنين وثلاثين نوعًا ، وقد اتبعه الدكتور أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية ، قصدًا إلى تكثير الأقسام دون داع ، إذ تداخل الأقسام وانضواء كثير من الأنواع تحت الإنكار والتقرير والتنبيه مثلاً ثم إنه اتبع طريقة السرد والتمثيل دون التحليل[1].

وهناك منهج البلاغيين من مدرسة السكاكي وهو أمثل المناهج ، فهو يبدأ بالبحث في الدلالات الحقيقية للأدوات ـ على ضوء ما كتب عبد القاهر في الدلائل ـ ثم المعاني البلاغية المتولدة عنها بمعونة القرائن ، وقد قدم الأستاذ عبد العليم فودة بحثًا طيبًا لأساليب الاستفهام القرآني عالجه من الناحيتين النحوية والبلاغية ، واهتم بالجانب الإحصائي ودلالاته ، والحق أنه بحث موجز جدًا كان من الممكن أن يخرج في أضعاف حجمه وبخاصة في الجانب البلاغي ولذا فقد عنده الجانب التحليلي للأساليب ، وتعاون النسق لأداء معنى

---

١١) وهذا غير ما ذكر الزركشي والسيوطي في بحث الأدوات فقد تعرضوا لأدوات الاستفهام واستعمالاتها والاهتمام بالأدوات لون من البحث قديم تجده عنده الرماني في حروف المعاني والمرادي وابن هشام راجع مقدمة حروف المعاني للدكتور عبد الفتاح شلبي .

قوي يقتضيه المقام ، كما أن فكرة الموازنات بين المتشابهات لم توجد أصلاً ، ثم إنه جعل المعاني الأصلية أحد عشر معنى والفرعية خمسة عشر ، وهو تقسيم ذوقي أو شخصي انطباعي فهو عد التعجب والاستبطاء من المعاني الفرعية ، ومع أنها وكثيراً غيرها جاء أصليًا في عديد من الأساليب ، وتأمل قول الله تعالى ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ فالتعجب هنا أصيل أدى بالأمر والاستفهام أو بالاستفهامين المتوالين ـ كما سيأتي ، قال ابن الأثير في النهاية «ألم تر إلى فلان أو إلى كذا» كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء وعند تنبيه المخاطب كقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي ألم تعجب لغفلتهم أو ألم ينته شأنهم إليك»[1] كما أنه ـ جزاه الله خيراً ـ قد يذكر معنى ذوقيًا بحتًا دون دليل كقوله في الآية : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ على ألسنة الملائكة لله خالقهم جعله للإنكار والتعجب وهو معنى غير مناسب ضعفه العلماء إلى غير ذلك مما يأتي أثناء البحث .

ونعتقد أن الاستفهام القرآني وغيره من طرق الأداء يتسع لمناهج عديدة تتآلف ولا تتنافر ، بيد أن ما نميل إليه علاج البلاغة القرآنية من خلال الأغراض والقضايا ما أمكن ، ويترتب على ذلك عقد الموازنات الأسلوبية التي تتكشف فيها الدلالات وتتكيف فيها الصياغة على نحو يناسب الأنساق المختلفة أو المتقاربة ، ويعين على استشفاف ما تمتلئ به التراكيب من شحنات شعورية أو ما يستكن في طواياها من ظلال وإلهام ، وهذا أدعى إلى التحليل الفني للأساليب التي يتآذر فيها النسق في وحدة خارقة على تصوير المعنى بجزئياته ، فغالبًا ما يكون قطع التراكيب من جسم النسق مدعاة لتجاوزات في

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١٧٨/٢ .

الأحكام ، على أن استحضار المعنى العام في أساليبه المتنوعة وعلى وجوهه المختلفة يضع أيدينا ـ كما سبق ـ على فيض من دقائق الأسرار البلاغية تتكيف بها الكلمة صياغة واستعمالاً .

وقد وجدنا لهذه الطريقة آثارًا طيبة ، ثم إننا لا نتعصب لمنهج معين ، بل إن التراث كله وما ألف المعاصرون في فروع المعرفة الإسلامية والعربية مرتاض لنا ومراح نأخذ منه ما يدعم رأيًا أو يكشف وجهًا من القول ، سواء كان صاحبه صاحب نحو أم أصول وسواء انتمى إلى الاتجاه الأدبي البلاغي أم البلاغي المنطقي ، حتى في حاشية أو تقرير ، المهم توفيق الله تعالى في اكتشاف خافي العلاقات بين الأساليب والآراء ، والصبر على ارتياد هذا العالم العجيب عالم التراث المهيب الذي أسس صرحه آلاف العقول النابغة على مدى قرون متطاولة من عمر الزمان .

وقد اقتضى طول البحث تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء ، أولا : دلالة أدوات الاستفهام ، ثانيًا : الاستفهام الحقيقي في القرآن وخصائصه ، وثالثًا : الاستفهام البلاغي أو المعاني البلاغية للاستفهام وهو أخطر الأقسام وأكبرها .

١ - الاستفهام :

أصوله البلاغية ودلالة أدواته :

الاستفهام : طلب حصول الفهم ، أو طلب حصول الشيء في الذهن ، فقولك : أزيد قائم : طلب لحصول نسبة القيام إلى زيد ـ في الذهن ـ ووجودها فيه . ويستلزم ذلك اتصاف الذهن بالعلم بتلك النسبة . وقد اعترض على ذلك بصيغ خاصة في صيغ الأمر : كقولك «علمني أمرًا» فهو طلب لحصول أمر هو العلم في الذهن ليصير معلومًا وقد رد على ذلك بأحد أمرين :

الأول : أن يقال إن الاستفهام طلب ذلك بأدوات مخصوصة .

الثاني : عميق دقيق ذلك أن الكيفيات النفسية ووجودها في الذهن والنفس تحدث بأحد طريقين :

الأول : أن يتصف بها الإنسان وتترتب عليه آثار خارجية ككون الإنسان شجاعًا يخوض المعارك ، أو عالمًا يكتشف الأمور ويسمى هذا الوجود النفسي أو الأصلي .

الثاني : تصور الشجاعة والعلم دون الاتصاف به ويسمى وجودًا ظليًا أو مثاليًا ، ولا تترتب عليه آثار خاصة ، والوجود الأصلي متحقق في الأمر ، نحو علمني ، أي حصول العلم من حيث اتصاف النفس به ووجوده فيه على طريق الأصالة وإن كان مستلزمًا تصوره في الذهن . والوجود الكلي أو المثالي متحقق في الاستفهام ، نحو أزيد عالم ، فهو طلب لحصول نسبة العلم إلى زيد في ذهن المتكلم ووجودها فيه أو تصورها تصورًا ظليًا أو مثاليًا أو انعكاسًا لما عند المخاطب ، وهذا التصور لعلم زيد لا تترتب عليه معرفة بقضايا العلم ولا آثار خارجية أخرى .

ولذا فالاستفهام : طلب إدراك أمر ، والأمر ، طلب وقوع أمر لا إدراكه ، وهذا حاسم في بيان الفرق بين ما يتشابه في الأسلوبين من بعض التراكيب[1] .

والمطلوب معرفته قد يكون مفردًا أو نسبة ، وإدراك المفرد يسمى تصورًا ، وذلك عند التردد في تعيين أحد الشيئين أي يتردد المتكلم في تعيين أحدهما بعيدًا عن النسبة كقولك أزيدًا أكرمت أم بكرًا ؟

والتصديق هو إدراك وقوع النسبة التامة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها ، بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه في جملته مصدقًا للجواب إثباتًا بنعم أو نفيًا بلا ، كقولك هل قرأت السهيلي ؟ وكما يسمى تصديقًا يسمى حكمًا وإسنادًا وإيقاعًا أو إيجابًا وسلبًا ويكون الجواب بنعم أو لا ، بينما يكون الجواب عن التصور بتعيين المسئول عنه وذكره ، سواء كان أصلاً في الإسناد كالمسند إليه والمسند أم متعلقًا كالمفعول والظرف والحال .

---

(١) راجع في هذه الدقائق : حاشية الدسوقي ٢٤٦/٢ وحاشية عبد الحكيم ص ٣١٨ وتقرير الإمبابي ١١٠/٣ .

أدوات الاستفهام ودلالتها الحقيقية واستعمالاتها :

وهي : الهمزة وهل ، ومن وما ومتى وأيان وأين وكيف ومتى وكم وأي .

والهمزة يطلب بها التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهل يطلب بها التصديق فقط وباقي الأدوات يطلب بها التصور فقط .

وإطلاق التصور على تعيين المفرد تجوز في التسمية والتعبير لأن التصور فرع التصديق ، وتعيين المفرد وتعلق النسبة به هو تصديق ـ كما نص المحققون ـ فالتصور إصلاح ولا مشاحة فيه .

استعمال الهمزة :

والهمزة يليها المسئول عنه ، والمشكوك فيه ، ذلك أن الجملة بما فيها من مسند إليه ومسند ومتعلقات متعددة يصلح كل واحد من ذلك أن يشك فيه وأن يسأل عنه.

ولذا جعلوا تقديم المسئول عنه بعد الهمزة قرينة ورفعا للتوهم والإلباس ، فلو قلت : أزيدًا أكرمت يوم الجمعة ؟ اقتضى أن زيدًا هو المسئول عنه ، المطلوب تعيينه ، وأن الإكرام منك ثابت له في هذا الظرف .

وإذا أتيت بأم المعادلة أو المتصلة التي يكون ما بعدها معادلاً ومساويًا لما يقابله داخلاً معه في حيز الاستفهام متصلاً به كانت قرينة على تعيين المسئول عنه تقول : أزيدًا أكرمت أم عليًا ؟ أيوم الجمعة سافرت أم يوم الخميس ؟ ولا يجوز أزيدًا كرمت أم أهنت ، لأن تقديم زيد يعني أن الشك فيه وأنت تطلب تعيينه ، وقولك : أم أهنت : يعني أنك تشك في الفعل أهو الإكرام أم الإهانة ، وهما متضاربان لأن تقديم المتعلق يعني القطع بوقوع الحدث .

ومن الدقائق التي اهتدى إليها عبد القاهر في محاولته استكناه أسرار التراكيب واكتشاف دقائقها من خلال التغيرات في النظم بين ما يجوز وما لا يجوز وما يحسن وما يقبح ، وما يؤدي معنى خاصًا في تقديم كلمة

لا يؤديه لو تأخرت مما يدخل في فلسفة التعبير أو فلسفة الدلالة والأسرار الخفية لبناء العبارات .

من ذلك أنه إذا ولى الهمزة الفعل فقلت : أبنيت الدار ؟ أضربت زيدًا ؟ كان الشك في الفعل وفي حدوثه ، ولذا لا يجوز أن تقول : أبنيت هذه الدار ؟ أكسرت هذا الزجاج . لعدم صحة المعنى : لأن تقديم الفعل يعني أنك شاك في حدوثه . أوقع أم لم يقع ؟

وقولك : هذه الدار ، وهذا الزجاج يعني أن الفعل واقع وأنت تشير إليه ، وهما متدافعان .

ويجوز : أأنت بنيت هذه الدار ؟ لأن الشك في الفاعل ، ولا يجوز أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ، أأنت كتبت الرسالة التي كنت تسطرها : للتناقض في مدلول العبارة ، فتقديم الفاعل يعني أن الفعل قد وقع والموصول يعني أنه لم يقع .

كما يجب أن يكون الفعل خاصًا مع تقديم الفاعل ، تقول : أأنت كتبت هذه القصيدة ؟ ولا يجوز أأنت قلت شعرًا قط ، أأنت رأيت إنسانًا ، إذ لا يعني للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ، لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول من قال هذا الشعر ؟ من بنى هذه الدار؟.. فأما قول شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى تسأل عن فاعله .

كما يجوز أن تقول : أقلت شعرًا قط ؟ أرأيت اليوم إنسانًا ؟ لأن قول الشعر على إطلاقه أو رؤية إنسان يجوز ألا تقع من المخاطب[1].

---

(١) راجع الدلائل ص ٨٥ وما بعدها ، وشروح التلخليص ٢/٢٥٠ وحاشية الإمبابي ٣/١١٠ .

وفي قولك أأكرمت زيدًا يمكن أن يكون للتصور أو التصديق بمعونة القرائن سؤالاً عن المفرد أو عن النسبة ، ويجاب عن الأول بالتعيين : أكرمت أو أهنت وعن الثاني بنعم أو لا .

فإذا دخلت الهمزة على جملة اسمية وذكرت بعدها أم المتصلة نحو أزيد مسافر أم بكر قادم : الأحسن أن يلي الهمزة المسئول عنه تقول : أعندك زيد أم في الدار ؟ وقال الشريفي في شرح المفتاح يجوز المخالفة نحو : أعندك زيد أم عمرو ، وألقيت زيدًا أم عمرًا ؟ كما قال سيبويه : التقديم في نحو أزيدًا لقيت أم عمرًا أحسن ، وأنك لو أخرت فقلت ألقيت زيدًا أم عمرًا لكان جائزًا حسنًا[1].

هل :

أما هل فهي لطلب التصديق لا غير وتدخل على الجملتين الفعلية وهي الأصل والاسمية . تقول : هل قام زيد ؟ وهل زيد قائم ؟ قالوا ولاختصاصها بطلب التصديق امتنع أن يقال هل زيد قام أم عمرو لأن وقوع المفرد بعد أم دليل على أنها متصلة ، وأم المتصلة لتعيين أحد الأمرين مع العلم بثبوت أصل الحكم ، وهل لطلب التصديق فبينهما تدافع .

فإن ورد ما يوهم ذلك أولت «أم» على الانقطاع كقول النبي ﷺ لبعض صحابته «هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا» والمعنى بل تزوجت ثيبًا ، وقد ردوا بهذا التأويل على ابن مالك الذي أجاز أن تقع هل موقع الهمزة واستدل بهذا الحديث[2].

ولاختصاص هل بالتصديق قبح «هل زيدًا ضربت» لأن التقديم يستدعي حصول التصديق بنفس الفعل ، فتكون هل طلبا لحصول الحاصل وهو عبث ،

---

(١) راجع عروس الأفراح ٢٥٣/٢ وتقرير الإمبابي ١١٤/٣ .
(٢) راجع تقرير الإمبابي ١١٦/٣ ومغني اللبيب لابن هشام ٤٤/١ .

وإنما لم يمتنع لاحتمال أن يكون «زيدا» مفعول فعل محذوف أو يكون التقديم لمجرد الاهتمام لا للتخصيص ، لكن ذلك خلاف الظاهر لعدم وجود القرينة ، فإن وجدت قرينة على أنه لمجرد الاهتمام لم يقبح ، هكذا قالوا ، والواقع قبحه لا لهذا الاهتمام في التقديم بل لأن إعراب «زيدًا» مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده قبيح عندهم ، لأن فيه حذف فعل الأول وحذف مفعول الثاني دون داع بخلاف الاستعمال المعهود : هل زيدًا ضربته فإنه لا يقبح على أن تجويزهم التقديم للاهتمام فيه إلباس ، وكثرة هذا التمحل دليل على ضعف الأسلوب : هل زيدًا ضربت».

أما مذهب السكاكي فهو أن تقديم الاسم لا يفيد التخصيص إلا إذا كان نكرة وكان مقدمًا عن تأخير ، فاعلاً في المعنى ، نحو : رجل عرف ، ولذا جاز عنده الابتداء بالنكرة لأنها مقدمة من تأخير ، وإذا أخر فقيل عرف رجل : كان رجل بدلاً في الضمير في عرف ، وحين يتوفر الشرط ويفيد التركيب الاختصاص يقبح أن يقال هل رجل عرف بل لا يصح[1].

وقد اعترض على السكاكي بأن التركيب زيد عرف ليس للتخصيص عنده ويلزمه أن قولك هل زيد عرف غير قبيح مع أنه قبيح باتفاق العلماء ، والواقع أننا لا نلزم السكاكي بشيء لم ينص عليه .

وقد علل بعضهم قبح : هل رجل عرف ، وهل زيد عرف بأن هل بمعنى قد في الأصل وأصلها : أهل وتركت الهمزة قبلها لكثرة الاستعمال وكثرة وقوعها في الاستفهام فأقيمت مقامها وتطفلت عليها ، وتشربت معناها ـ كما يقول السعد ـ وقد من خواص الأفعال فكذا ما هي بمعناها ، وإنما لا يقبح دخولها على الجملة الاسمية نحو هل زيد قائم لأنها إذا لم تر الفعل في خبرها تسلت عنه وذهلت بخلاف ما إذا رأته فإنها تذكرت العهود وحنت إلى الألف المألوف فلم ترض باقتران الاسم بينهما .

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٢٣ .

وهذا الرأي الذي علل له السعد في المختصر على التلخيص تعليلاً شاعريًّا مجازيًّا هو رأي جمهرة من العلماء كسيبويه والكسائي والفراء والمبرد والزمخشري والرضي والقرطبي ومن تبعهم ، وقد جعلوا هل في قوله تعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ بمعنى قد أتى ونسب إلى عبد الله بن عباس وقتادة رضي الله عنهم .

كما رووا بيتًا من الشعر دخلت فيه الهمزة على هل بيانًا لأصل معناها ، وكأنه قد حدث لها تطور دلالي . قول الشاعر :

سائل فوارس يربوع بسدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

ونازع في ذلك بعض العلماء منهم السيرافي ، وأبو حيان وابن هشام والبهاء السبكي الذي أفاض في ذلك . وناقش في حيدة وأمانة ، وأبطل أن تكون هل بمعنى قد ولا تساويها في الحكم .

وذكر أن السيرافي في أول كلام سيبويه بأن المراد أن هل يستقبل بها الاستفهام كما أن قد يستقبل بها الخبر .

وقال السيرافي عن البيت أنه بهل غير معروف والصواب أم هل رأونا ، كما ذكر السبكي رد شيخه أبي حيان على ابن مالك في ذلك ثم قال في نهاية تقريره البديع «وبالجملة ما ذكره الزمخشري من كون هل بمعنى قد أن أراد المرادفة فهو في غاية البعد أما قول المصنف (القزويني في التلخيص) أنها في الأصل بمعنى قد ، وما أوهمه كلامه من أن أصلها ذلك ، ثم صارت للاستفهام فلم يقل به أحد فيما علمت» وحقًّا ذكر الزمخشري ذلك في المفصل وفي الكشاف ولكنه ليس أبا عذره ، بل نقل عن غيره من السابقين كأبي عبيدة والفراء والمبرد كما تقدم ، كما أن قول البهاء من أنه لم يقل أحد فيما علمت من أن أصلها قد ثم صارت للاستفهام ، فقد قال به كثير كالرضي وغيره ، وقد ردد

ابن هشام هذا الرأي ، والرد على الرأي الأول بإيجاز : أما هل في آية الإنسان السابقة وآية الغاشية : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ فلم تتفق كلمة العلماء فهي عند الطبري خبر ويفهم من شرحه إفادتها التقرير . وفي الكشاف بمعنى قد للتقرير والتقريب وتبعه النيسابوري وأبو السعود في الآية الأولى ، أما آية الغاشية فقال إنه استفهام أريد به التعجيب بما في حيزه والتشويق إلى استماعه وأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن تنقل ويتنافس في تلقيها[1].

وضعف أبو حيان رأي الكشاف وقال : إن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض ، وكثير من العلماء على أنها في آية الإنسان للتقرير . وقد انفرد الإمام البقاعي برأي عجيب هو أن الاستفهام إنكاري على معنى أنه يترك سدى ، أي ليس الأمر كذلك بل ما أتى عليه شيء من ذلك بعد خلقه إلا وهو شيء مذكور ، فهو المراد من العالم الذي ما خلق إلا لأجله ، فكيف يترك سدى وكيف لا يبعث بدليل قول ابن مسعود رضي الله عنه وقد سمع رجلاً يقرؤها «يا ليت ذلك لم يكن»، وقد أجاز أن تكون هل بمعنى قد إن قدرت الهمزة قبلها وهو يتبع الكشاف في ذلك ، كما نقل البقاعي عن الإمام جعفر ابن الزبير ما يفهم منه التقرير والتعريف لا الإنكار وهو الأوضح ، ورأيه في الإنكار غير معروف لأن الآية تومئ إلى أزمنة سبقت خلقه كان عدمًا كقول الله لزكريا ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[2].

---

(١) راجع في هذه القضية : دلالة هل : الطبري ١٢٥/٢٩ ، ١٠١/٣٠ والكشاف ١٩٤/٤ وشرح المفصل ١٥٢/٨ والبحر المحيط ٣٩٣/٨ وأبا السعود ٧٠/٩ ، ١٤٨/٩ وغرائب النيسابوري ١٠٩/٢٩، ٧٧/٣٠ والإيضاح للقزويني ص ٢٢٩ وشروح التلخيص ٢٦٠/٢ والمغني لابن قدامة ٣٥٢/٢ وشرح عقود الجمان ص ٥٠ وأساليب الاستفهام في القرآن ص ١٠٩ .

(٢) راجع نظم الدرر للبقاعي ١٢١/٢١-١٢٣ .

وهل تخصص المضارع بالاستقبال[1] بحكم الوضع كالسين وسوف ، وتخلصه لذلك بعد أن كان محتملاً له وللحال ، وهذا خاص بالمضارع ، فإن دخلت على الماضي فلا تخصصه أو لا تقلب معناه إلى المستقبل قال تعالى : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ﴾ (الأعراف:٤٤) ولذا لا يجوز بلاغة دخولها على مضارع حالي كقولك : هل تضرب زيدًا الآن ؟ وهل تؤذي عليًّا وهو أخوك ؟ فهذا لا يجوز لأن قولك «وهو أخوك» قرينة على أن الاستفهام للإنكار ، ولا ينكر في العرف ما يقع في المستقبل .

وهل لا تصلح لإنكار الفعل الواقع في الحال ، بخلاف الهمزة ، تقول : أتضرب زيدًا وهو أخوك ؟ أتؤذي أباك ؟ وقال تعالى ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٨) ولا تقع هل موقع الهمزة في ذلك كله .

والقرينة الدالة على أن المضارع حالي قد تكون لفظية ، ولا علاقة لها بالجملة الحالية التي تأتي مع الفعل في كل حالاته وأزمنته تقول «هل تذاكر غدًا وأنت مسافر» وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم:٤٢). وقال ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠) وقال الشاعر :

سأغسل عني العار بالسيف جالبا ... على قضاء الله ما كان جالبا[2]

ولكون هل مقصورة على طلب التصديق وتخصيصها المضارع بالاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالفعل ، فدخولها على الفعل أكثر من الاسم واستدعاؤها له أشد ، ذلك أن التصديق هو الحكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفي والإثبات إنما يتوجهان إلى المعاني والأحداث التي هي مدلولات الأفعال لا إلى الذوات التي هي مدلولات الأسماء والمراد الصفات المعنوية القائمة بالغير ، والنفي والإثبات يتوجهان إلى الأمور القائمة بالغير ، بخلاف المشتق

---

(١) صحح البهاء هذه العبارة بأنها تخصيص الاستقبال بالمضارع بمعنى أنه لا يكون المضارع إلا للاستقبال ذلك أن المضارع قد يكون للماضي حين تدخل عليه بعض الأدوات وراجع عروس الأفراح ٢/٢٧١ .

(٢) راجع شروح التلخيص ٢/٢٧٠ ، وتقرير الإمبابي ٣/١٢١ .

فإن مدلوله ذات مقيدة بالحدث ، وبخلاف المصدر فمدلوله : الحدث من حيث هو ، وبخلاف الذات نحو : زيد ، فهو قائم بنفسه ، ولا يقوم بغيره .

المهم أن شدة ارتباط هل بالفعل وضعا جعل دخولها على الجملة الاسمية لا يحسن إلا من بليغ متمرس يحس نبض الأساليب في مقامات راقية حين يقصد الدلالة على الثبوت أو الاستمرار الثبوتي ، وإبراز ما سيوحد في معرض الموجود إخراجًا لهل على أصل وضعها ولذا كان قوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٨٠) أدل على الشكر من «فهل تشكرون» وطلبه لكمال العناية به والرأفة بعباده حيث رضي منهم ما هو أهون عليهم وأيسر من الشكر غير مقيد بزمان من الأزمنة ، والآية ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ أدل أيضًا على كمال العناية من قولك «أأنتم شاكرون» لأن الجملة مع الهمزة وإن أفادت الثبوت إلا أن لهل دلالة أقوى في إفادة هذا المعنى ؛ لأن انتزاع هل من اختصاصها وضعًا وإدخالها على الاسمية لا يكون إلا لأمر فني بالغ يخرج بها عن طبيعتها ، ولذا حملها بعض العلماء على إفادة الأمر في قوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة:٩١) أي انتهوا ، وإذا قال عمر رضي الله عنه انتهينا مع ما فيه من استقصار الهمم وشحن الإرادة ، وعن صناعة الدروع وإلانة الحديد لداود عليه السلام جاءت الآية ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ أي اشكروا الله على ذلك ، وفيه إيماء إلى التقصير في الشكر ، قال البيضاوي «أخرج الأمر في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع»[1].

ولعلك أحسست بجفاف التحليلات الخاصة بالفروق بين دلالات الأدوات واستعمالاتها لأنه أشبه بفلسفة اللغة والغموض وراء أسرارها واكتشاف ما تخلعه الأدوات على الأساليب المختلفة الصياغة من ضروب المعاني البلاغية التي ترجع أساسًا إلى ألوان الشعور ، وليس هذا طلبًا للصحة اللغوية بل للجمال البلاغي .

---

(١) راجع حاشية الشهاب على البيضاوي ٦/٢٦٧ .

الاستفهام الحقيقي في القرآن

من المتعالم أن القرآن الكريم مليء بالنماذج البشرية والشخصيات المتقابلة إلى حد التباين يضرب في أعماق التاريخ على مدى القرون المتطاولة ليحدثنا عن الأمم والأقوام الماضية وعن أنبيائهم وعن المؤمنين بهم والكافرين ، كما يصور لنا ما قبل تاريخ الإنسان في الملأ الأعلى عن قصة خلق آدم ويكشف المستقبل أو ما بعد الزمان في عالم الآخرة بقوانينه الخاصة وما فيه من تقابل مثير بين المعذبين بانفعالاتهم المتهرئة المتقدة ، وبين المنعمين في سلامهم النفسي ودعتهم المترفة ، ولذا غلب الاستفهام البلاغي تصويرًا حيًّا لمشاعر متباينة فتجاوز مائتين وألفا تعبر عن هذا الحشد الزاخر من الأحاسيس المركبة ، وقل الاستفهام الحقيقي بما لا يجاوز عشرين أسلوبًا وهي أساليب لم تصدر عن رب العالمين عالم الغيب والشهادة بل جاءت على ألسنة الشخصيات القرآنية[1].

والعجيب أن الاستفهام الحقيقي في القرآن لم يكن مقصورًا على طلب معرفة شيء مجهول كما حده العلماء في حسم ، بل كان هذا المعنى الحقيقي مبطنًا بألوان من المعاني الثانوية الخصبة والظلال المديدة التي لا تخرجه عن كونه حقيقيًّا وهذا من عجيب شأن القرآن .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٣)[2]

---

(١) راجع في الإحصاء : أساليب الاستفهام في القرآن ص ١٩٢ .

(٢) البحر المحيط ٤٠٢/١ .

والاستفهام «ما تعبدون من بعدي» مع أنه حقيقي نلمح فيه أيضًا ما ردده أبو حيان عن العلماء من أنه تجربة لهم . ولم يقل يعقوب «من» بدل «ما» لئلا يتطرق إليهم الاهتداء وإنما أراد أن يختبرهم ، وينظر ثبوتهم على ما هم عليه ، كما رأى بعضهم من الاستفهام الشفقة والدعوة إلى الإخلاص في الدين وألا تلهيهم الدنيا وهذه الشفقة هي مبعث الوصية لبنيه وأهله ، وفهم أبو السعود منه التقرير على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه إذ به تتم وصيته ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1] لكن الواضح أنه حقيقي يفيد الاختبار مبعثه الشفقة ضمن وصيته بالتوحيد والإسلام .

وفي قول موسى للمرأتين فيما يذكر القرآن ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص:٢٣) فهو استفهام عن الشأن ودفعهما الماشية خوف الزحام مبعثه شفقته ورحمته عليه السلام وحبه عون الضعيف ودهشا من قوم لا يقدمون أضعفهم !

وفي استفسارات فرعون المتكبرة حينما دعاه موسى وهارون عليهما السلام إلى الله الواحد ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه:٤٩-٥٢) [2].

فقوله ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ : استفهام حقيقي ، فيه التعاظم والطغيان ولذا أضاف الرب إليهما ولم يقل فمن ربنا : ليلتئم مع ادعائه الألوهية ، وكأن الكون عنده امتلأ آلهة لكل فريق إله ، ولذا كان رد موسى ملجما قامعًا ﴿ رَبُّنَا

---

(١) راجع تفسير أبي السعود ١/١٦٤ .

(٢) المرجع السابق ٦/٢٠-٢٢.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي رب العالمين خالق كل شيء وقائم عليه ، ولذا كان سؤال اللعين التالي ﴿ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ نابضًا بالذكاء العاتي ليصرف موسى عن دعوته ويدخله في متاهات تاريخية غامضة تشغله عن أمر الدين ، ثم ليجد لنفسه مجالاً للأخذ والرد وادعاء العلم وبخاصة أن لمن سبقه من المصريين تاريخًا ضاربًا في أعماق الزمان ، فأجابه موسى عليه السلام ـ كما قال أبو السعود ـ بجواب عبقري بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما هو بصدده من الدعوة ﴿ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ ﴾ ولو قال الإمام بجواب ملهم لكان أولى لأنه أثر لإجابة دعائه ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾ وتساؤل فرعون الحقيقي يومض بمعاني المخاتلة والاستدراج والمكر وحب الجدل الصارف عن الحق وتأكيد الذات وما إليها وهي لا تخرج الاستفهام عن كونه حقيقيًا .

وقول سليمان عليه السلام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ (النمل:٨) .

ففيه حث واستعانة وتشريف بالتكليف وتأمل الفارق بين الاستعانة المستعلية المشرفة هنا وبين استعانة بلقيس واستشارتها وهي تتهاوى تخاذلاً وضعفًا وانعدام حيلة وبهرًا أضافت إليها خشعة الأنثى استخراء فاقعا في قولها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ (النمل:٢)[1].

إن وراء الأسلوب انكسارًا ودمعًا مقهورًا حبيسًا ، وفي إحضار عرشها قال في الكشاف ليغرب عليها ثم ليريها بعض ما خصه الله من تعاجيب واختبارًا لذكائها ، وقال عيسى عليه السلام ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ (الصف:٤).

---

(١) راجع البحر المحيط ٧٦/٧ .

وهذه الاستفهامات وغيرها عقبت بجواباتها ، سواء طابق الجواب السؤال كما في سؤال موسى ويعقوب وسليمان وعيسى ، أم لم يطابق لغرض بلاغي ومعنوي كالآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة:٢١٩) وفي آية ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ (البقرة:٢١٥) الآية : فهم يسألون عن الأصناف والأنواع فوجهوا إلى الأهم وهو انفاق ما فضل عن الحاجة قليلاً أو كثيرًا من أي نوع طالما كان حلالاً في إخلاص ، وفي الآية الثانية : وجههم إلى هؤلاء المحتاجين إلى عونهم وبرهم وبخاصة إذا كانوا ضعافًا مكسوري الأجنحة جبرًا للتصدع الاجتماعي المسلم .

وقد لحظت أن الاستفهام الحقيقي محال صدوره من جهة الحق سبحانه ، ونقل الشهاب أنه يسمى استخبارًا إذا كان من جهته تعالى لأنه لا يقتضي عدم العلم بالجواب ، بخلاف الاستفهام وتقييده الاستخبار بأنه لا يقتضي الجهل بالجواب تخصيص أو تقييد بلا دليل من وضع أو استعمال إذ معنى : استخبره : سأله عن الخبر وطلب أن يخبره ، كما أن الاستخبار كاصطلاح علمي لم يشتهر عند المتأخرين . ولذا كان الرأي على أن الاستفهام من جهته تعالى لا يراد به حقيقته بل معان بلاغية بحسب المقام ، وفي المسألة جوانب أمسكنا عنها لحينها .

* * *

المعاني البلاغية للاستفهام القرآني

درج علماؤنا على أن يذكروا ـ غالبًا ـ لكل أسلوب استفهامي ، معنى بلاغيًّا كالاستبطاء أو التمني أو الإنكار التوبيخي أو التكذيبي أو التقرير وما إليها ، يقصدون ـ رحمهم الله ـ أن هناك معنى أو إحساسًا مسيطرًا هو الأصل ، ولا ينفي معاني أخرى ممتدة متصلة بالمعنى الأصلي . ذلك لأن هذه المعاني التي ذكروها معان شعورية تموج في النفس الإنسانية متداخلة متعانقة أو متقاربة ، وربما كان هذا سببًا لما نراه من تعدد الآراء حول المعنى الذي يبديه أسلوب واحد ، وليس ذاك من باب التعارض بل التقارب لأن هذه المعاني شديدة التعانق أو التقارب ، وللثقافة والموهبة المتذوقة نصيب في تعيين المراد ، ثم إن النفس البشرية المنفعلة بما تتلقى دائمة التقلب ، كما ننبه إلى أن هناك ما يعد تجمعات للانفعالات أو المعاني البلاغية كالإنكار والتعجيب والتبكيت والتوبيخ والزجر وما إليها مما يمت إلى القوة والشدة والغضب ، وهناك العتاب والترقيق والشفقة والتوجيه والإرشاد والترغيب في جانب آخر وغير ذلك .

ثم إن الأسلوب كله بجمله وكلماته وحروفه ودلالاتها وجرسها وصوتها بما في ذلك الاستفهام المتصدر بدلالته وصوته كل ذلك يتآزر في تصوير المعاني البلاغية أصلية وثانوية ، ومدى قوتها ودرجة اهتزاز النفس البشرية المنفعلة بها لا إفراط ولا تفريط بل قصد واستيفاء يناسب المقام ، بل إن هناك فيما أحس ـ وبخاصة ـ في الأساليب الراعدة ـ ضغطًا على الأجزاء الأولى من التركيب ، ومع أن اللغة الفصحى ـ على الأرجح ـ لا يظهر فيها النبر أعني الضغط على مقطع دون غيره ـ كما يقول علماء الصوتيات ـ نجد بوضوح في بعض التراكيب الخاصة هذا الشد النطقي أو النبر على الأداة وما يليها متميزًا في النطق

ويعين عليه طريقة الصياغة من اختيار حروف معينة كل ذلك مختلف عن الأسلوب الخبري ، والترتيل الجيد المتكرر قد يعين الأذن المرهفة على إدراك ذلك .

كما نلحظ في أسلوب الاستفهام ، غالبًا ـ الترقي أو تصعيد المعاني ، ذلك أن أداة الاستفهام تحدث في التركيب ما يشبه التيار الكهربي تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانًا توهجًا وتأججًا حتى يصل إلى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام .

وفي القرآن يتفاوت المعنى كالإنكار والتوبيخ مثلاً قوة وضعفًا حسب المتكلم وحال المخاطب لا يشبه أسلوب أسلوبًا ولا غاية غاية في سورتين مثلاً ، إلا فيما تشابه واهتم به العلماء ، ثم إن هذه المعاني البلاغية زائدة على معنى الاستفهام من طلب معرفة للمجهول كالتمني والسخرية ، لكن كيف يفيد الأسلوب هذه المعاني؟ أهو على طريق المجاز أم الكناية أم يبقى على حقيقته؟

للبهاء السبكي رأيان ، أولهما أن إفادة هذه المعاني على طريق المجاز المرسل ، فالعلاقة في الاستفهام الإنكاري : أن المستفهم عنه مجهول ، والمجهول منكر ، فاستعمل لفظ الاستفهام في الإنكار بهذه الملابسة المصححة للمجاز الإرسالي بمعونة القرائن[1] .

ثم رجع إلى رأي آخر هو أن الاستفهام يكون حقيقيًا أبدًا وإفادته هذه المعاني بمعونة القرائن اللفظية أو الحالية ، وقد توسع في معنى الاستفهام فلم يجعله محصورًا بين المستفهم والمستفهم منه بل لغيرهما على العموم ، فينكرون ويحقرون ويتعجبون إلى آخر المعاني ، وأيد رأيه بما ذكر ابن الحاجب في شرح المفصل : أن الطلب لا يستعمل به مرادًا به نوع آخر من

---

(١) راجع عروس الأفراح ٢/٢٩٦ .

الطلب ، بل قد يستعمل ويراد به الخبر ، أما طلب آخر فلا ، فلا بد من التكلف لبقاء معنى الاستفهام فيه ، مع دلالة القرينة على إرادة شيء آخر .

كما عزز رأيه برأي الإمام التنوخي من أن لعل تكون للاستفهام مع بقاء معنى الترجي . وأن قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ : ليس استفهامًا محضًا .

ثم شرح بقاء معنى الاستفهام في المعاني المرادة ، فالتعجب الاستفهام معه مستمر لأن من تعجب من شيء فهو بلسان الحال سائل عن سببه ، وكذلك التنبيه على ضلال لأن من لا يعرف غاية الضلال يسأل عنها منبهًا ، والإنكار كما سبق[1] .

والبهاء في رأيه الثاني الراجح لم يبين طريقة إفادة هذه المعاني ؟

لقد تبعه الدسوقي فشرح هذه العلاقات بين الاستفهام والمعاني البلاغية على أن ذلك مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد أو اللزوم ، ثم رجح رأي عبد الحكيم في أن هذه المعاني مفادة عن طريق الكناية أو من مستتبعات التراكيب ، وهو الرأي الوحيد الذي يحمل عليه رأي السبكي[2]، ومعنى هذا أن المعاني الحقيقية للاستفهام يجوز أن تقصد في الاستفهام مع المعنى الكنائي .

وليس هذا على إطلاقه ، ذلك أن كثيرًا من هذه الأساليب ، لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي منها ، إما لأنه معلوم عند المتكلم فتكون إرادته عبثًا . أو مجهولة الجواب عند المخاطب أو المتلقي ، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أو قد يطلقها الإنسان جاحدًا ساخرًا غير طالب الإجابة كقوله تعالى ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ؟ ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ أو أن الجواب معلوم عند السائل والمسئول كما في

---

(١) عروس الأفراح ٢/٣٠٦-٣٠٨ .

(٢) راجع حاشية الدسوقي ٢/٢٩٥ وما بعدها .

التهديد ، كقوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أو أن معانيها الحقيقية مستحيلة لصدورها من جهة الحق تعالى ، فلا بد إذن من إضافة احتراس هو إفادة المعنى البلاغي مع إرادة المعنى الحقيقي إذا لم يمنع مانع من عقل أو وضع أو شرع كحمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ على الكناية مع استحالة المعنى الحقيقي .

وننبه إلى أن العلماء كانوا يذكرون هذه المعاني البلاغية من إنكار وغيره لا يريدون ـ فيما يتعلق بالاستفهامات من جهته تعالى ـ وصف الباري بحقيقتها . بل معالجة أسلوبية على المنهج العربي الذي نزل به القرآن ، لأن صفات الأفعال لا تنحصر ويتوقف في وصف الله بها على الإذن الشرعي ولا تخلو من التسامح .

ورأي العصام أنه إذا امتنع إرادة المعنى الحقيقي كان الاستفهام مجازًا ، وإن أمكن كان كناية[1] والقول بالكناية مع الاحتراس أيسر من تكلف علاقات غير مقنعة ـ في الأغلب ـ على القول بالمجاز الإرسالي في بعض الأساليب .

* * *

(١) راجع الأطول للعصام ٢/٢٤٣-٢٤٦ .

الإنكـــار

الإنكار من الأغراض القرآنية العامة ، وهو أكثرها شيوعًا في القرآن ، وكان ركنًا خطيرًا في دعوة القرآن الذي نزل هداية للبشر واختار الله منهم العرب وهم أشد الناس تأبيًا وأكثرهم نفارًا وصلفا ، وأعتاهم عتوًّا وأعظمهم سلطانًا ماديًّا ودينيًّا ، ضرورة ـ أن هدايتهم ـ والحل تلك ـ إيذان بهداية غيرهم .

نزل القرآن إذن في قوم جمعوا رذائل الوثنية التي ارتبط بها سلوكهم فامتحنوا به ليكونوا قادة البشر ذلك أنهم ـ مع تعصبهم لما ورثوه ـ كانت حساسيتهم للكلمة جد خطيرة ، فهي تهزهم هزًّا ، وتصل إلى مواطن السر تزلزلها ـ بما للقرآن من قهر وجلال ، وتخلق منهم بشرًا آخرين بذات الملامح ولكن بقلوب مختلفة .

واعتمد القرآن أساليب تغزو كل طاقات النفس ، ومنافذ الحس ، وروافد الفكر بقدر معلوم مناسب كما وكيفا لاختلاف الحالات والمناسبات كل ذلك لتغيير صفات موروثة ، ورذائل عتيدة ، وطباع ثابتة مظلمة ، صحيح أنهم ورثوا عديدًا من الأخلاق الحميدة مما ينطوي تحت الفتوة العربية كالشجاعة والإباء وكرم الضيافة ، وحماية الجار ونصرة المظلوم والذود عن المحارم ، ولكنهم وصلوا بها حد التطرف ، فقد نفى القرآن بواعثها في القلب وحولها لتكون ـ في اعتدالها ـ خالصة لله لا نعرة جاهلية . فأبدلهم بها صفات عالية وأخلاقًا راقية أساسها الوحدانية لله في ذاته وصفاته . في منهج إلهي كان صوت الإنكار فيه جهيرًا ، إنكار على الشرك ومظاهره ورذائله ، وما ارتبط به من تدن خلقي كالسفاح وشرب الخمر والتطير والقرابين والكهانة والظلم والعقوق ، ثم نسف هذه الأوهام الزائفة بشأن الله تعالى الواحد الأحد لا ما يزعمون من التعدد والشرك والصاحبة والبنات والولد تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

ومن خلال دعوة القرآن قدم تاريخ الأمم مع أنبيائها ، وعالج الشر حتى قبل أن يسعى ـ في الأرض ـ على قدمين من قابيل ، وانبرى القرآن لمن جاور المسلمين من أهل الكتاب وقد رعى الحقد قلوبهم ـ فأنكر عليهم شركهم ورديء صفاتهم ، ولما شغب اليهود كشف عن صفحات سود من تاريخهم مع أنبيائهم ترى رأي العين بذور الشر في قلوبهم تنبت غرسًا شائكًا متكاثرًا إفسادًا في الأرض من قديم .

ونبتت نابتة النفاق تود الإلباس وإجهاض المد الإسلامي بالتمويه ففضح الله سرائرهم وطواياهم في سور عدة من القرآن .

أما الجماعة المؤمنة وهم الهدف الجليل فقد والاهم تربية وتوجيهًا ، ينكر منهم ما ينكر ويدفعهم إلى أحسن ما يعملون .

ومن هنا انضوى تحت الإنكار أغراض فرعية عديدة تناسب المخاطب وحاله الخاصة ، أعني ما اقترفه من وزر متباين بدءًا بأدنى الرذائل وتصعيدًا إلى الكفر بألوانه ، ومن هنا كان الإنكار مع التقبيح أو التوبيخ أو التكذيب أو التعجيب أو التشنيع أو التبشيع أو التهكم اللاذع أو الخفيف الراحم ، أو التهديد الراعد ، أو التحقير النافذ أو التجهيل أو التهويل إلى غير ذلك .

ثم كان القرآن العظيم صادقًا أمينًا في وصفه ردود أفعالهم تجاه الدعوة ، ورسم عواطفهم وانفعالاتهم المتلونة العجيبة حين سفه القرآن أقدس ما عندهم . فقابلوا إنكارًا بإنكار ثم زادوا بما يناسب جهلهم المتنوع المتدني ، فكان الإنكار صارخًا لابسًا من المعاني الثانوية والظلال كالتحقير والتعجيز والاستعجال والاستبطاء ونحوها .

ومن هنا قالوا إن القرآن الكريم حياة نابضة ، لا وصف حياة ، ومن هنا ـ أيضًا ـ تأدى الإنكار بكل وسائل الأداء ، وفي الاستفهام بأدواته جميعًا ما عدا هل التي كثر بها التقرير وانفردت عن الهمزة ـ كما يقول أبو حيان ـ بإفادة الجحد والنفي ، كما انفردت الهمزة دون هل بإفادة التعيين والتوبيخ والإنكار

والتعجيب ، وهذا من سياق نقله السبكي عن شيخه في عقد موازنة بين استعمال الهمزة وهل ، وإلا فإن ما ذكره من التعيين وما بعده تأدى بغير الهمزة بل غلب الإنكار والتعجب ، أو الاستبعاد على بعض الأدوات ، ثم إن علماءنا ـ رحمهم الله ـ عنوا بتقسيم الإنكار إلى توبيخ وتكذيب طلبًا للتوضيح والإبانة دون تحييد للمعاني أو تحديد ؛ لأنهم عند التحليل يذكرون من المعاني الفرعية ضروبًا مما قدمناه . كما ننبه إلى أن الإنكار كان أحيانًا معنى فرعيًّا ضمن أساليب ماجت بالتعجيب أو التقرير أو التوقيف على الآيات في الآفاق والأنفس أو غيرها[1] .

قضايا قرآنية في الإنكار

١ - التوحيد والإيمان

التوحيد أو وحدانية الذات والصفات ووحدانية الألوهية كانت أم القضايا القرآنية أو مركزها يدور في فلكها ما يتصل بها من تصديق الرسل ، وأن رسالتهم لا تنافي بشريتهم والبعث وما بعده ، وصدق القرآن والرسالة المحمدية وقضايا التوحيد والبعث وصدق الرسل وغيرها مما هو عام ـ كانت على مدى التاريخ ـ في أوساط المكذبين ـ مثار جدال ومراء عنيف ، وحنق وتحد وخصومة حمل إصره الملأ المترفون من كفار الأمم ، خوفًا على سلطانهم وجاههم أن يزول ، وما زعمهم تقديس التقاليد وبشرية الرسل ، ثم اقتراحهم الآيات ، واستعجالهم العذاب ثم السخرية والولع بالرسل وأتباعهم ومحاولة البطش بهم ذلك وغيره إلا سياجات مختلفة تحمي مصالحهم . وهذه الحرب اللسانية التي أخذت فنونًا وألوانًا صورها القرآن في صدق وأمانة وإعجاز يحيط بما في قلوبهم نطقوا به أم ظل خبيئًا في السويداء ، كما صور القرآن احتشاد الرسل في الدعوة والإقناع والدفاع والحجاج والتأثير لإقامة عالم التوحيد والفضيلة على أنقاض الوثنية ورذائلها . وقد لحظنا في هذا الصدد :

---

(١) راجع عروس الأفراح ٢/٣٠٨ .

١- أن القرآن الكريم حكى أقاويلهم منسوبة إليهم اسمًا ظاهرًا أو ضمير جمع غالبًا دلالة على اشتراك معظمهم في اللجاجة والخصومة ، وهذه الأقاويل والاعتقادات ذكرت في الأعم الأغلب بصيغ الخبر المؤكدة ، وجاءت قليلاً حين يقضي المقام بأسلوب الاستفهام المنكر في نسق سبق غالبا بأسلوب خبري تصويرًا لتصاعد انفعالاتهم ، أما ردود القرآن سواء كانت على ألسنة الرسل أم بدءًا كانت أقوى وأعنف وأكثر إقناعًا وأشد تأثيرًا وأكثر بسطًا وإحاطة بالشبهة من جهاتها دفوعًا وإبطالاً أو ترقيًا إلى ذكر الله الواحد بآثار صفاته . وهناك قضايا كأنها رد شبه لم تذكر صراحة في النسق وإن دل عليهما كما سيأتي في التحليل . والمهم أن الاستفهام في الرد عليهم كان أضعاف ما ذكر من استفهام في أقوالهم .

٢- لم تنحصر ردود القرآن في مدى الاستفهام بل اتسع ليشمل عديدًا من الأساليب وطرق الأداء أو أجناس القول من قصص متعدد الصياغات والمناسبات والحلقات ومحاورات ومقاولات ، أو وعظ مسترسل ، أو ذكر آيات متواليات عن الكون وآياته أو القيامة وما فيها ، كما كثرت الأساليب الجزئية كألوان البيان والبديع ومذاهب القول في علم المعاني ونقتطف بعضًا من هذه الوسائل :

أ- الأقسام المتوالية المتعددة بآيات الله وآثار قدرته ما ظهر منها وما خفي أقسامًا قوية مثيرة : كقوله ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ (الصافات:١-٤) .

ب- بأساليب القصر المتنوعة .

٣- بالأدلة البرهانية ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس:٧٨،٧٩) الآيات ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢) .

٤- بذكر مضارع المكذبين وأقاصيصهم .

٣- قد تتوارد الاستفهامات معبرة عن وجهات نظرهم في قضايا الإيمان والتوحيد يكر عليها بالنقض والدفع والإنكار والسخرية سواء كان الرد باستفهام أقوى أم بأخبار تتفجر سخرية وهولا كقوله : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم:٢١،٢٢).

ولا شك أن هذه الطرق لم تأت لتحفظ بل إنها مناهج إيمانية وتعبيرية بمعنى أن تكون في ضمائر الدعاة هذه الألوان البلاغية الراقية خدمة للعقيدة والمثل. والرقي بالإنسان .

والمهم أن عالم الاستفهام القرآني عالم تحتك فيه العقول وتتصادم الانفعالات وتتولد الشعاعات ، إنها الحياة تنتفض أحاسيس عجيبة وتتلون أساليب بليغة أديت بما يفوق قوى البشر بلاغة ، ونكتفي بهذه الظواهر والآن إلى البسط والتحليل.

١- كثرت أقوال الكافرين المحكية بأساليب الخبر الخاصة المتوترة المؤكدة سواء جاء الرد آكد بالخبر أم بالاستفهام ..

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (مريم:٨٨-٩٣) .

فقد حكى كلمتهم الآثمة الكبيرة بلفظ «قالوا» وذكر اسم الرحمن وبجانبه ما ادعى له تعجيبًا فالأسلوب حاد التناقض ، في تلافيفه دواعي نقضه ، ومع ذلك جاء الرد بالقسم المؤكد بأن قولهم الغريب إد وهذه الكلمة الغريبة ملائمة لغرابة تفكيرهم أو زعمهم ، وهو أمر منكر له حلية وصوت مناسب أيضًا لهذا الصوت المهول المتخيل من تدمير هذا الكون الذي يوشك أن ينقض بسبب

هذه القولة الجريئة ، وفيه إيحاء بأن استقامة الكون وانتظام قوانينه بسبب الوحدانية كما تدل آية الأنبياء : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

ويتكرر اسم الرحمن في الآيات أربع مرات ، وكذلك لفظ «ولد» تفجيراً للتناقض كلما قلت والآيات صيحة غضب تكثر فيها الكلمات الجزلة العنيفة والحروف المجهورة الشديدة .

- جاء قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٠-١٠٣) .

وحتى في الحكاية عنهم زائغ اعتقادهم تجد المعجب المثير في صياغة الحكاية التي تبث معاني الاستغراب والاستبعاد والتناقض الذي مر في آية مريم ، وكذلك هذه الآية ، فإن تقديم الشركاء المفعول الثاني على الجن يدل كما نبه عبد القاهر وغيره[1] :

أولا : أنهم عبدوا الجن مع الله .

ثانيا : ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، إنكاراً لما سواه سبحانه .

ثالثًا : إفادة العموم في شركاء إذ لو أخر لكان إخباراً عن الجن خاصًّا به دون تعرض لمعنى الشرك على الإطلاق .

---

(١) راجع دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص١٨٩ والإيضاح للقزويني ص٢١٢.

رابعًا : ما لحظناه دائمًا من وضع المعدوم المعبود باطلاً بجانب لفظ الجلالة غالبًا أو اسمه الرحمن قليلاً نسبيًا لإفادة هذا التناقض المثير في الدلالة .

وفي الرد توالت الجمل ساطعة الجلال والسطوة والإنكار : بالتنزيه وكون الكون كله مخلوقًا له فهو مبدعه سبحانه ثم الاستفهام الإنكاري الاستبعادي ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ . . . ﴾ .

وتكرير فكرة الخلق لمن سواه ، وأنه متعال عن خلقه : وهم في دائرة قدرته وقدره ، يراهم ويخبرهم ويجازيهم .

٢- ذكر زعماتهم الباطلة في أسلوب استفهام جاء غالبًا خاتمة لحكاية أقوالهم تصعيدًا لمشاعرهم كقول عاد لأخيهم هود من جدال ومقاولات ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٢).

وفي تجاهل فرعون ولعبه بالألفاظ تكبرًا ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٩) وفي آيات الشعراء : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:٣) ورد موسى في تحد ورمي لهم بالجنون ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء:٤) .

وعن مشركي مكة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۞ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .؟ (الفرقان:٦٠،٦١)

وقال تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٤،٥) ضمن آيات تسجل إنكارهم وغضبهم وسبابهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ والرد بدأ بالخبر وتصاعد بالاستفهام الإنكاري ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۞ أَمْ لَهُم

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ وقد توالى استفهامان إنكاريان بعدهما أمر تهديدي وكشف لبعض أمر الله الواقع بهم في بدر .

أما مظاهر الإنكار التي جاءت على ألسنة الرسل ردًّا مفحمًا أو من جهته تعالى فقد كانت ـ في الجملة ـ على النحو التالي :

١- إنكار عبادة الأصنام والتماثيل وعبادة غير الله تعالى على العموم .

- جاء على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مقاولاته لقومه:

في سورة الشعراء : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟ (الشعراء: ٧٠-٧٧)

- وفي سورة الصافات ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وبعد ذهابه إلى بيت الأصنام بدعوى السقم جاءت الآيات ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات: ٩١-٩٧) .

وفي سورة الأنبياء جاء بعد آية من بدء القصة ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ وبعد جعله الأصنام جذاذًا إلا كبيرًا لهم وإتيانهم بإبراهيم على أعين الأشهاد قال ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ ﴾ (الأنبياء: ٦٦-٦٨).

ونلحظ من هذه السياقات :

تنوع السياقات قوة وغضبًا وإنكارًا في السور حسب الترتيب المثبت ، ثم تصاعد الإنكار داخل السياق بتوالي الجمل والاستفهامات .

ففي الشعراء كان السؤال ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أفاد قدرًا من الإنكار مغلفًا بالتعريض وحسن العرض وذكاء الاستدراج ولذا أجابوا وكأنهم لم يلمحوا تعريضه .

وفي الاستفهام ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ توبيخ وتوقيف . والأسلوب هادئ نوعًا ، فبعد أن بين عداوته لأصنامهم انصرف إلى ثناء صادق خالص على الله تعالى رب العالمين . أما في سورة الصافات فقد بدأ الاستفهام شديد الإنكار قوي الوقع نافذ التأثير ولذا توالت استفهامات ثلاثة وجاء في الأول ذا الإشارية مع ما ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ثم إنكار الإفك وهو الآلهة المعبودة من دون الله على المبالغة فهي ذات الإفك لأنها بدل منه وكان التعبير ﴿ دُونَ ٱللَّهِ ﴾ مصعدًا للإنكار كما في نظائره القرآنية ، والاستفهام الثالث جاء نقطة غضب شديد التركيز وافر التأويلات : ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي بمن هو خليق بالعبادة لأنه رب العالمين الذي أشركتم به أخس مخلوقاته ، أو فما قدر معرفتكم له حتى جعلتم له أندادًا من الأصنام أو ما تدرون ما يفعل بكم عقابًا على شرككم[1].

وفي مواجهته لهم بعد تحطيمه الأصنام وصل الأسلوب إلى مرتقى عال من الإنكار ، إنكار للفعل وتفجير التناقض الحاد أن يعبد الإنسان ما ينحت ثم تصعيدًا بالجملة الحالية ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بذكر لفظ الجلالة وفعل

---

(١) راجع في ذلك تفسير أبي السعود ١٩٧/٧ وإفكا في نصبه وجوه أن يكون مفعولاً له أو به أو حالاً وضعف أبو حيان الأخير ، وراجع الكشاف للزمخشري ٣٤٤/٣ وتفسير الرازي ١٤٧/٢٦ والبحر المحيط ٣٦٥/٧ .

الخلق وأنهم وأصنامهم وأعمالهم خلق من خلق الله يلزمه الخضوع والعبادة لخالقه الجبار .

وفي سورة الأنبياء ذات الأسلوب الخاص : بدأت القصة قوية منكرة معنفة ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ والمبتدأ هو الخبر والسؤال عن كنهها وحقيقتها وفائدتها بذكر هذا اللفظ التماثيل إنكارًا لكل ذلك وتحقيرًا من شأنها ، ثم تبكيت لهم لأنهم حصروا نشاطهم في العكوف عليها من أجل عبادتها ، وتأمل التعبير «لها» فقد جعلوها مطمحًا وغاية . والسياق قوي الأحداث قوي التعابير ، وتأمل ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ تصور لك غضبًا ينفثه الخليل فيحول الأحجار جذاذًا وشظايا وبعد إتيانهم به على أعين الناس يوجعهم إنكارًا ويوسعهم تهكمًا وذمًا ويتهمهم في عقولهم بهذه الفاء بعد الهمزة لدلالة على معطوف محذوف ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ وكون المعبود غير الله واضح أنه لا ينفع ولا يضر أي موات وجماد ، ولكنهم لما ربطوا بالحس ودارت حياتهم في دائرة النفع والضر وضح ذلك لهم اتهامًا لعقولهم ، ثم أظهر الضيق والضجر منهم ومن أصنامهم : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ . وختم مقاولته بهذه المرارة والإنكار أن يتخلوا عن عقولهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ولقد أثار بذلك كوامن غيظهم وحقدهم الحيواني بعد أن حطم آلهتهم وسخر من عقولهم فانطلقوا في جواب جماعي موتور ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ .

وفي آيات الصافات جاء استفهامان من الخليل للأصنام ذاتها ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ تهكمًا وإنكارًا ولا شك أن القرآن يصور بذلك حديث نفسه وشدة غيظه وانتشار حسه حين يواجه الجماد بخطابه اللاذع كراهية لها ولعبادها ، وهو تصوير نافذ ساخط على عبدة الأصنام وما يشبهها وهم قبيل يدور مع دورة الأيام .

ولذا كان التعبير ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ كناية عن أنه فثأ غيظه بتحطيم قوى منفعل ، وقد يجوز أن نرى هنا رأي السبكي في أن الاستفهام مصروف لغير المخاطب ، وهذا وإن كان وجيهًا هنا لكنه لا يمثل قاعدة أو ظاهرة عامة .

وقال تعالى على لسان إلياس عليه السلام لقومه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الصافات:١٢٥،١٢٦) والدعاء هنا بمعنى العبادة .

وفي الكلام حذف : «أي أتعبدون بعلا وتنتظرون خيراً مع تركككم عبادة الله أحسن الخالقين» وهذه الجملة داخلة في الإنكار مصعدة له[1].

وهناك نوع من الإنكار يقتضيه مقام الداعية فيه رقة العرض ، وسياسة النفوس حين ينكر المتكلم على نفسه إيقاع الفعل وهو مستحيل الوقوع منه ليبدأ بنفسه تأليفًا للقلوب وجذبًا للإقبال وضمانًا للإنصات والتأثير كقول مؤمن يس ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ (يس:٢٢،٢٣).. الآيات ، فهو ينكر على نفسه ألا يعبد من فطره ، وفي الموصول حجة ودليل على وجوب عبادته لأنه الخالق ، تعريضًا ذكيًا بهم ، ثم التفت إليهم مبكتًا ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ غمزة واحدة تحرك راكد عقولهم ثم رجع إلى نفسه ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ثم عظم شأن الرحمن وعقابه معرضًا بانتقامه الشديد بمن كفر به آلهة شائهة وهو مثل عال وأسوة راقية للداعية في كل زمان ، ومع أنه لما فجأهم متحديًا بإيمانه قتلوه ولكن القرآن يخلده بل يدعه يكمل خطبته البليغة في الجنة ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ (يس:٢٦،٢٧) .

---

(١) راجع الكشاف ٣/٣٥٢ وأبا السعود ٧/٢٠٤ .

ومثله في حسن الدعوة وجمال العرض تأثيرًا نفسيًا ما تقدم فيه التعبير «غير الله» على فعل المتكلم كقوله تعالى وقد أمر الرسول ﷺ بتبليغه :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ (الأنعام:١٤).

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام:١١٤) ، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٦٤).

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ (الزمر:٦٤).

والاستفهام هنا للإنكار الشديد على المتكلم ظاهرًا ليصل إلى درجة الاستحالة ، وهو في الواقع إنكار عليهم وتعريض بهم وهو في الوقت ذاته يصور صلابة النبي العظيم وثباته على الإيمان وحربه للشرك ، ودائمًا يأتي بعد المفعول المقدم وهو محط الإنكار مع عموم يشمل باطل الآلهة يأتي ما يقوي الإنكار ويصعده ، ويكون دليلاً على إخلاص التوحيد لله دون سواه من ذكر لفظ الجلالة مضافًا إلى غير تمحوه بقهر واقتدار ثم الوصف البلاغي ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ «أو جملة الحال» ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ . . . ﴾ ، ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولما كان التعبير الأخير في سياق أقوى جاءت الفاء العاطفة على محذوف يذهب العقل فيه كل مذهب ، وجاء الفعل تأمروني مناسبة خاصة حين قالوا له بغباء استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك[1]، ثم وصفهم البليغ بالجهل الثابت لهم . ومن عجب أن تستأثر سورة الأنعام الجليلة بأكثر الأساليب المحمدية في هذا الشأن .

وقد جاء أسلوبان في اليهود ، الأول على لسان موسى عليه السلام حينما رأوا ـ بعد أن نجاهم الله من فرعون ـ أقوامًا يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُوا

---

(١) راجع أبا السعود ٢٦٢/٧ .

يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٨) وبعدها بآية ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ (الأعراف:١٤٠،١٤١) والاستفهام هنا صيحة غضب منكر ذاهل ، سبحان الله أيطلب لهم صنمًا وهم حديثو عهد بنعمة الله ، ولذا وجدنا الآية التالية لا تأتي على لسان موسى بل مباشرة من قبل الحق تعالى يعدد ويمن ويذكر بالتنجية القاهرة من آل فرعون وعذابهم الأليم ، والآية ترسم ملامح نفسية لشذاذ الأمم كما جاء في شأنهم أعني يهود المدينة آيات على لسان النبي الخاتم ﷺ ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) وجاء بعدها الحكم الخالد بأسلوب الشرط اللازم ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥).

ونلحظ في الآيات استعمال الفعل بغى وابتغى كثيرًا دون طلب ، الذي فسر كثير من المعاجم بغى بها ومن عجب أن يذكر ذلك معجم ألفاظ القرآن الذي أصدره مجمع اللغة بالقاهرة مع نقله عن الراغب أن البغي طلب فيه تجاوز حد الاقتصاد كمية أو كيفية سواء كان محمودًا في الخير وهو تجاوز العدل إلى الإحسان أم مذمومًا في الشر وهو تجاوز الحق إلى الباطل أو الشبهات ، والابتغاء هو الاجتهاد في الطلب محمودًا أو مذمومًا[1].

وهذا سر استعمال الفعل دلالة على أن الإشراك فيه تجاوز الحق وهذا المعنى المذموم غير بعيد عن دلالة البغي الثانية بمعنى الظلم كقوله ﴿ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (يونس:٢٣).

---

(١) مفردات الراغب ص ٥٥ ، ٥٦ بتصرف ، وراجع معجم ألفاظ القرآن ١١٤/١ ومقاييس اللغة لابن فارس ٢٧٠/١.

وقد سبق التعبير مالي إنكارًا لحال المتكلم بعده ، كناية عن إنكار الفعل من باب أولى ، وسنتعرض لإنكار الحال بالتفصيل بعد ، ولكن هنا نكتفي بالقول بأنه قد جاء في أساليب «مالي» إنكار وتعجيب من حال المخاطب أو من الحال الواقعة بعده عمومًا ، وإنكار الحال التي ينحصر فيها الفعل إنكارًا للفعل على طريق الكناية ومدارج اللزوم العقلي والترتيب النفسي كقوله تعالى عن مشركي العرب ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر:٤٩-٥١) تصويراً ساخراً لإعراضهم في هيئات قافزة نافرة مندفعة هلعة كحمر الوحش انضاف إلى نفارها الذاتي نفار خلع للقلوب أقوى من نفارها الطبيعي حين ترى وتسمع زئير القسورة الكاسر وأنت تقرأ ﴿ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر:٥٠،٥١) بتوالي المقاطع المغلقة بعد المقاطع القصيرة المفتوحة ، فيخيل إليك أنك تسمع وقع أقدامها الهلعة على الصفا في إيقاع متلاحق لاهث . وصورة الحمر غطت على الصورة الكلية فما عدت ترى أو تتخيل إلا حمرًا مخططة الأديم مخلوعة الفؤاد مغرقة في النفار . ومنه قول الخليل عليه السلام ، ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ (الصافات:٩٢) وقول نوح عليه السلام ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (نوح:١٣،١٤) وجملة الحال صعدت معنى الإنكار .

٢- إنكار أن يكون لله ولد أو بنات بل هو واحد أحدًا :

وفرية المشركين الظالمة بأن له سبحانه وتعالى وتقدس - ولدًا أو أن الملائكة بنات الله أبطلها القرآن بكل وسائل الأداء وبكل الأقيسة والبراهين .

وجاء من الاستفهام قوله تعالى :

من سورة الصافات : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الصافات:١٤٩-١٥٧) .

وفي سورة الزخرف ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف:١٥-١٧).

وفي سورة الإسراء : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ وقال تعالى في سورة النجم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (النجم:١٩-٢٢) .

بينما جاء في سورة الطور أحد عشر أسلوبًا استفهاميًّا يرد بقوة غاضبة على عديد من افتراءاتهم البلقاء التي تتعلق بالرسول الكريم والقرآن العظيم ورب العالمين ومنها ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وفي آخرها إبطال لكل شريك وتنزيه صادق لله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الطور:٤٣).

وتلمس في آيات الصافات وهي تشرح مذاهب المشركين وتبين قبحها وسخافتها في أسلوب قوي عنيف صادر ـ كما قال الزمخشري ـ عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديد تسفيها لأحلام قريش وتجهيلاً لنفوسها واستركاكًا لعقولها مع استهزاء وتهكم .

ونقل الواحدي أنهم قالوا إن قريشًا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله ، والآيات تبطل أمرين إثبات البنات لله تعالى ، والثاني إثبات أن الملائكة إناث ، وتلحظ في الآيات على وجه الإجمال :

١- الاستفهام في هذه الآيات ناطق بالإنكار والسخط والتبكيت والسخرية اللاذعة ، وبينما غلب الغضب واشتد النكير مع السخرية في آيات الصافات

والإسراء والطور غابت السخرية البالغة في آيات النجم وتعانقا في آيات الزخرف . كما تآزر الأسلوب كله بحروفه وألفاظه الخاصة والصياغة المعينة للتراكيب على إشعاع هذه المعاني البلاغية أصيلة وثانوية ، فالأمر «استفت» أفاد التقريع والتوبيخ وإضافة الرب إلى ضمير المخاطب عليه السلام ولم يقل ألربكم .. إبعادًا لهم وتشريفًا بالخطاب ﷺ .

٢- كثرت الجمل الحالية التي تفجر التناقض الحاد ـ كما أشرنا سابقًا ـ في أقوالهم تصعيدًا للإنكار والتبكيت والسخرية كقوله : «أم خلقنا الملائكة إناثًا ؟ وهم شاهدون» وفيه توبيخ شديد وسخرية لأن نسبة الأنوثة إلى الملائكة تقتضي المشاهدة وهم ما شهدوا خلقهم ، والجملة الثانية ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، وتأمل كيف جاءت كلمتهم الكبرى «ولد الله» بهذا التعبير المستحيل بين كذبين أو في دائرة أو إطار من الكذب الأبلق ، كما جاء الاستفهام الموبخ عن البرهان والحجة في آيات اشتملت على أربعة استفهامات متوالية للتكذيب والتعجيز . ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.. الآيات ، وهو هنا يطالبهم بالدليل على قولهم تكذيبًا يدل عليه الحس .

بينما جاء في سورة الطور أحد عشر أسلوبًا استفهاميًا متواليًا يرد بقوة وغضب على عديد من زعماتهم وشبهاتهم التي تتعلق بالرسول والقرآن ورب العالمين ومنها ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ وفي آخرها إبطال لكل الآلهة المفتراة على وجه العموم مع تنزيه الله تعالى على الشركاء ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1].

---

(١) راجع في آيات الصافات الكشاف للزمخشري ٣٥٤/٣ ، وتفسير الرازي ١٦٧/٢٦ والبحر المحيط ٣٧٦/٧ .

والنظر والخبر ومطالبتهم بالدليل كثر في القرآن عند تفنيد زعمات المشركين العديدة ، وجاء هنا بعد التدليل على فساد هذا المذهب من أساسه لأن الله تعالى مطلق الكمال وهو لا يليق به ـ كما قال الرازي ـ اصطفاء الأخس وهو المراد بقوله اصطفى البنات...».

وفي قوله ﴿ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ تعبير لهم فقد فضلوا أنفسهم حين جعلوا أوضع الجنسين له سبحانه وأرفعهما ـ لهم[1] وهي القسمة التي تحدثت عنها آيات النجم .

ثم إن أم أداة استفهام على الأرجح تفيد الاستفهام والإضراب الانتقالي وفيها تجهيل وتعجيب وإنكار وتأمل آية الزخرف ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ فلم يكتفوا بجعلهم لله من عباده جزءًا أي بعضًا منه لأن الولد بضعة من أبيه حتى جعلوا ذلك الجزء شرًا لجزأين وهو الإناث اللائي بلغ بهم المقت إلى وأدهن واسوداد وجوههم حين يبشرون بولادتهن[2].

وفي آية النجم بدأ بقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ فذكر الفاء هنا بعد أن قدم من عظمة آيات الله في ملكوته من أن جبريل أمين الوحي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بقوته ولا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام عزة الله تعالى ، فالفاء دلت على محذوف أي عقب ما سمعتم من عظمة آيات الله الكبرى ، فانظروا إلى هذه الحجارة التي جعلتموها شريكة لله تعالى مع ذلتها وحقارتها تعلموا فساد ما ذهبتم إليه فقد حذف طرفًا الكلام ودل عليه وسطه وهو المذكور في الآية ليذهب العقل في تأويلها كل مذهب[3]، ورأى بصرية واقعة على الأصنام المشاهدة والإحالة على

---

(١) راجع الكشاف ٣/٤٨٢ .

(٢) من أوائل من علل الحذف بهذه العلة الخطابي ثم استقرت في الدرس البلاغي راجع بيان القرآن ص ٥١ .

(٣) راجع البحر المحيط ٨/١٦٠ .

الأمور المشاهدة الواضحة الفساد[1] دليل على شدة الإنكار ، والأسلوب مبني على الإيجاز الشديد كما سبق وتوالى الاستفهامات المذكورة والمقدرة والاستفهام الثاني المذكور ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ مبني على أنهم اتخذوا صورًا من الحجارة واشتقوا لها أسماء عالية الدلالة وقالوا إنها صور الملائكة وأنثوها لزعمهم أن الملائكة إناث[2] ، والاستفهام هنا مفصح عن الإنكار والسخرية وإيقاع الأسلوب معين على ذلك ، وهذا يمهد لهذه الحقيقة الساخرة الثابتة ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ والقسمة متخيلة لأنها تكون في الحسيات بلوغًا بالسخرية مدى كبيرًا والكلمة ضيزى : غريبة الوزن غريبة الهيئة غريبة الجرس والدلالة تناسبًا مع غرابة الزعم والقسمة الجائرة . وتأمل حين يمتلئ الفم بصوت الضاد الفخمة ثم يتسرب الهواء من خلال صوت الصفير في الزاي ليصور أنها قسمة موهومة فهمت من معتقدهم في غيبة عقولهم .

وهذه الكلمة «ضيزى» الغريبة وسر بلاغتها عالجناه في موضع آخر ، ونكتفي هنا بالقول بأن تعليل ابن الأثير لفائدتها بالمحافظة على السجع وتعليل سيد قطب للنسق كله بالإيقاع الخاص بعض من أسرار كاثرة [3].

٢- تأدى الإنكار في الأساليب بالهمزة وأم وما ، وكيف كما جاءت أنى للإنكار والاستبعاد في سورة الأنعام : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾.. الآية ، وكان المنكر إما الفعل وحده نحو : اصطفى البنات وهو إنكار تكذيب أو إنكار الفعل والمعطوف عليه من فعل آخر توبيخًا ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ كما نبه الرازي ، أو إنكار النسبة حين تدخل الهمزة على جملة اسمية نحو

---

(١) راجع تفسير الرازي ٢٨/٢٩٥ .

(٢) راجع تفسير الرازي ٢٨/٢٩٩ .

(٣) راجع المثل السائر لابن الأثير ١/٢٦٤ والتصوير الفني لسيد قطب ص ١٠٤١ وراجع حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/١٣ وإعجاز القرآن للرافعي ص ٢٦١.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ والجملة الثانية داخلة في الإنكار أيضًا وقد تعانق القصر مع الاستفهام الإنكاري تشنيعًا وتبكيتًا أو إنكار الحال في كيف : فكأن الإنكار أحاط بالفعل والاسم على أنحاء عديدة ، ثم إن التعبير بالفعل أصطفى وأصفى واتخذ وتكرار ذلك وهو دال على القصد والعمد والاهتمام يصنع لمسات واضحة في معاني الإنكار والسخرية ، تلحظ أن هناك تعبيرات بذاتها قد تكررت وإن اختلف النسق لأدائها معنى مناسبًا للسياق وإثارة لعديد من الانفعالات المتجددة لاقتضاء المقام الغاضب ، ذلك وإن اختلفت الصياغة قليلاً نحو : ألربك البنات في آية الصافات وألله البنات في آية الطور لأن آية الطور جاءت وحيدة تبطل هذا الزعم وسط آيات تبطل عقائد أخرى واهمة كالقول بأن النبي الكريم شاعر أو أنه تَقَوَّل القرآن إلى غير ذلك ، ولذا كان الأسلوب على الغائب في مجمل الآيات .

٣- إنكار الكفر ومظاهره وسلوكه على العموم :

كقول المؤمن لصاحب الجنتين ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ (الكهف:٣٧) والاستفهام ينكر الكفر ويوبخ عليه ويجرم صاحبه ، ويأتي بالموصول وصلته وما عطف عليها تشنيعًا ، وهو لا يثبت صفة الخالقية لله فحسب بل ينتقي مراحل خلق الكافر من عدم وتراب ثم من نطفة فهو أصل متهالك الضعف والحقارة ، يسوى رجلاً ثم ينطق كفرا حين يتكلم بعد صمت مديد . تأجيجا للإنكار والضيق والتبكيت .

كما جاء الإنكار صيحة غضب وتحقير على ألسنة الرسل الذين ذكرهم موسى عليه السلام ودعواتهم لأقوامهم ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم:٩،١٠) الآيات ، وقد جاء لفظ الجلالة بعد الهمزة مقدمًا على المبتدأ لتصوير النكير

والتأنيب والدهش ، فكيف يشك فيمن به خرجت الأكوان إلى الوجود الظاهر الباطن فاطر السموات والأرض تعجبًا ذاهلاً وإنكارا مستفزًّا .

وقال تعالى عن مشركي العرب وقد نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل على جهة الالتفات في خطاب إهانة وذم واستفهام وإنكار وتعجيب ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٨) .

وفي هذه الآية أسرار بلاغية فائقة :

فقد عدد أولا قبائحهم ثم جاء بالاستفهام إنكارًا وتوبيخًا وتعجيبًا متوجهًا إلى الحال «كيف» من المبالغة ما ليس في توجيه السؤال على نفس الفعل بأن يقال «أتكفرون» لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال قطعًا ، فإذا انتفت جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده فهو من باب الكناية أو على الطريق البرهاني ، وجملة الحال ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد ، وأخرجت الكفر في صورة المستحيل لما قوى داعي الإيمان الصارف عن الكفر ونظيره كما قال في الكشاف «أتطير بغير جناح وكيف تطير بغير جناح» ، وصياغة الفعل حالاً «تكفرون» عرضًا لجريمتهم في وضوح تبكيتًا لهم عليه وعلى الاستمرار في الكفر ، ولما كان قوله ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ مثار إنكار عندهم قال الزمخشري : أن هنا حالا عامة محذوفة تتعلق بها الحال المذكورة أي كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه الأحوال ، وهذه القصة من أولها إلى آخرها وهي أحوال مباينة للكفر ومآله الإنكار والتعجيب من وقوعه مع تحقيق ما ينافيه ، ولما كان الرجوع أو البعث مما لا يعلمون ولا يؤمنون به فقد نزلوا منزلة العالمين به للدلائل الناطقة بذلك . ورأى أبو حيان أن ذلك لا يتعين إذ يجوز أن يكون قوله ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ غير داخل في الحال ، بل أخبار مستأنفة ، ولذا غاير فيها بحرف

العطف وبصيغة الفعل . والأقوى رأى الكشاف ومن تبعه كأبي السعود وهو الواضح من تحليلات الرازي لأن الآية تعنيف وتبكيت على الكفر بالمنعم ، ولذا عدد كثيرا من النعم أولها هنا نعمة الإحياء وثانيها نعمة الانتفاع بالكون ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فكان الأسلوب اجتمع فيه ما يصرف عن الكفر ، سواء كان آيات بينات كالتحكم فيهم خلقًا من عدم ، ثم إماتة ثم بعثًا من قوى جبار ، أم كان نعما سابقة ، أما توزيع حروف العطف بين الفاء وثم فهو تصوير للزمان الواقع فيه الحدث دون تراخ أو بتراخ ممتد كالموت والنشور[1].

وقوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا . . ﴾ معناه وكنتم ترابًا ونطفًا ويطلق على الجماد موات وعلى الإنسان ميت بفتح فسكون ، أما الميت هو الحي الذي سيموت كقوله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [2] وإطلاقهم على حال الإنسان الترابية أو كونه نطفة ميت على التوسع والتشبيه قال القفال وهو كقوله ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان:١) .

وفي قصة عيسى عليه السلام في سورة آل عمران وبيان الحق في شأنه وأنه عبد الله مثله كمثل آدم ، ثم حديث المباهلة وتوحيد الألوهية توجهت الآيات إلى أهل الكتاب في نداءات متوالية ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أربع مرات تناقش في هدوء مذاهبهم الباطلة وتنكرها عليهم بالسؤال عن السبب والعلة «لم» أربع مرات أيضًا : فهم يجادلون زاعمين أن إبراهيم عليه السلام كان منهم أعني اليهود والنصارى ، وقد جمعهم القرآن لاتفاقهم في الكفر والإفك : ويرد القرآن

---

(١) راجع في الآية الكشاف ٢٦٩/١ والرازي ١٤٩/٢ وما بعدها والبحر ١٣٠/١ وأبا السعود ٧٧/١ .

(٢) مفردات الراغب ص ٤٧٧ .

﴿ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ (آل عمران:٦٥،٦٦) ومع أن التوراة والإنجيل تبشر برسول الله ﷺ وتذكر صفاته العالية يكفرون به ﴿ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٠،٧١) وأجاز في الكشاف أن يكون الكفر بآيات الله عامًّا دون تخصيص بأنها الآيات الناطقة بصدق الرسول الكريم وكفرهم بالآيات كفر بالتوراة والإنجيل لاشتمالها على ذلك[1] .

وقد توالت في الآيات الأدلة البرهانية الملزمة مع الاستفهامات المثيرة المنكرة ، ثم إن لام العلة دخلت على ما الاستفهامية فحذفت ألفها تخفيفًا وأفادت إنكار السبب والعلة وفيه كناية مصورة عن إنكار الفعل من باب أولى من التقبيح والتوبيخ . وقد كثرت الجمل الحالية التي تصعد هذه المشاعر وتولد التناقض والتعجيب من مواقف الكفر الأبلق لليهود والنصارى حقدًا وحسدًا . وقد كثرت الاستفهامات المنكرة ـ في سورة البقرة ـ على اليهود كفرهم الماضي والحاضر وسلوكهم المعوج وجرائمهم البشعة بعد سرد هذه الجرائم في شطر كبير من السورة ومن أساليب الاستفهام ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾[2] (البقرة:٨٧) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩١) والآية تشع بالإنكار والتشنيع

---

(١) راجع الكشاف ٤٣٦/١ ، وأبا السعود ٤٨/٢ ، ٤٩ .

(٢) انظر التحليل القيم للدكتور محمد عبد الله دراز لهذه الآية في النبأ العظيم ١١٩-١٢٧ .

والتعبير ، وقد بنيت على الإيجاز ومنه الاحتباك والبراهين الملزمة والاحتراس والتصوير وعديد من فنون البلاغة ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:١٣٩،١٤٠) والهمزة لتوبيخ أهل الكتاب على العموم على جدالهم في الدين وادعائهم أن الدين الحق هو اليهودية أو النصرانية ، وأن دخول الجنة مختص بهم ، وأم معادلة للهمزة داخلة فيما أمر النبي بتبليغه ، ثم أتى بأمر آخر وليه استفهام أشد إنكارًا دل على افتراءات عديدة لهم مترتبة على الاستفهام الأول من الافتراء على الأنبياء والرسالات ، أي كذبهم وبكتهم قائلاً أأنتم في ضلالكم وجهلكم أعلم أم الله . ولا علم عندهم وليس التفضيل على بابه بل المراد نفي العلم عنهم بطريق بليغ ، ثم كان الاستفهام الأخير فيه إنكار تعليلاً وتأكيدًا ـ للإنكار الأول ـ أعني « ومن أظلم... »[1].

كما كثر في القرآن الكريم هذه الجمل التي تنكر عليهم أن أبطلوا مداركهم وألغوا عقولهم وفكرهم وحسهم وشعورهم وتدلوا إلى مراتب الأنعام بل أضل ـ ومع أن نفي هذه الإدراكات كثر أيضًا على طريق الخبر ، فإن الأساليب الاستفهامية المنكرة جاءت في سياقات أكثر توترًا وغضبًا وإثارة وفي مقامات كثيرة من إنكار الألوهية أو التوحيد وعبادة الأصنام وإنكار البعث وصدق القرآن والافتراءات عليه وعلى نبي الإسلام ﷺ ، ولم تخص مشركي العرب بل تعدت إلى مشركي الأمم وكفار أهل الكتاب . وقد كثر ذلك وبخاصة في خواتم الآيات تذييلاً مؤكدًا أو مصعدًا للمعنى البلاغي كقوله تعالى :

---

(١) راجع الكشاف ٣١٦/١ وأبا السعود ١٧٠/١ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ والأول تقرير وإلزام والثاني إنكار واستبعاد[1] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠) وإذا بطل الأصل وزيف بطل ما انبنى عليه على طريق الكناية مع الذم والتسفيه للتقليد الضار ولهم ولآبائهم الضالين على السواء .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٨-٧٠) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ ومنه - أفلا تعقلون - أفلا تتقون - أو لم يتفكروا - أفلم يكونوا يعقلون - ألا تتقون - أفلا يؤمنون - إلى آخر هذه التذييلات التي تضع اللمسات الأخيرة في تصوير الإنكار العام في الأسلوب مع فيض من معانيه الثانوية المديدة .

وسنلتقي في التقرير بآيات عديدة كآيات سورة النمل التي تبدأ باستفهامات مقررة ملزمة لتنتهي باستفهامات منكرة موبخة ضرورة ترقى المعنى صعدا من تقرير موبخ إلى إنكار مبكت معنف .

ثم قد رأينا الإنكار يتداخل مع الوعيد والتهديد بالانتقام القاهر في أساليب متوهجة ساطعة الجلال والاقتدار ، وأظهر ذلك دخول الأداة على فعل الأمن في القرآن الكريم[2] كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

---

(١) راجع أبا السعود ٤٦/٧ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ٨١ .

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٩) ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل:٤٥) لكنك تلحظ أن الهمزة إذا دخلت على الأمن موجهًا للمخاطبين أعني الخطاب ، اشتد الأسلوب وبرق الغضب وهال الوعيد وجل المتوعد به كآيات الإسراء والملك : قال تعالى عن الضر عليهم في البحر ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء:٦٨،٦٩) وانظر توالي التهديد المرعد بخسف جانب البر والجوانب كلها في قدرته سواء ، وله في كل جانب مرصد من أسباب الهلاك وهو هلاك من تحتهم وهناك هلاك من أعلى بالريح الحاصب ترسل بالحصباء رجما أشد من الغرق أو من كل الجهات كالريح القاصف المهلكة لكل ما تمر به ، والريح بالإفراد ريح العذاب وحين تكون الريح قصيفًا أي ذات صوت[1] قصيف تكون عاصفة شديدة السرعة مهولة الصوت بالغة التدمير ، وقرئت الأفعال بنون العظمة وهي مؤكدة للتهديد بسبب الكفر.

وقال تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ وتأمل الجملة الأخيرة زائدة على آية النحل مناسبة للوعيد الشديد والخطاب المزلزل والمقام الخاص الذي يتهدد ويخوف بمظاهر الانتقام ويحيل على ما لحق بالسابقين ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الملك:١٨) كما زاد هنا ﴿ مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال البقاعي خاطبهم بما يعتقدون أو كناية عن العلو رتبة أو عن التصرف القوي أو على الحذف : أي من في السماء أمره وملائكته الغلاظ ، وقد دعا إلى هذا التأويل السائغ على لسان

---

(١) راجع الكشاف ٢/٤٥٧ ، ٤٥٨ .

العرب الدليل القطعي على أنه تعالى ليس متحيزًا في جهة لأنه محيط فلا يحاط به وهو القادر بسبب وبغير سبب ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الملك:١٨) والاستفهام للتهديد وإنكار الأمان عليهم لأن الملك له والكل خلقه[1].

ولعلك لحظت أن الأساليب القرآنية مع أهل الكتاب لوجود شيء من العلم عندهم وادعائهم الثقافة كانت أميل إلى الإقناع والجدل بالحكمة والبرهان مع إثارة الانفعال أيضًا ، بينما كانت الأساليب الموجهة إلى كفار العرب وأكثرهم أمي جاسي الطبع وإن كان بطرته أشد حساسية للكلمة كانت الأساليب مع الإقناع تضرب على أوتار من الوجدان وإثارة كامن الانفعالات وإحياء ما خمد من فطر صافية ، ولذا كثرت هذه الأساليب في السور المكية المشعة التي تميزت بسمات أسلوبية خاصة ، وتأمل استفهامات قوية عنيفة كأنها طلقات رصاص تئد السكون الخامل وتنسف جميع افتراءاتهم قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ الآيات ، اثنا عشر استفهامًا انتهى بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الطور: ٣٠-٤٣) .

وقريب من ذلك استفهامات سورة «ن» المكية ذكر جزاءات الكافرين والمتقين ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢٠/٢٤٧ ، ٢٤٨ .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ (القلم:٣٥-٤١) وإن اتجهت الآيات إلى النفي القاطع للمساواة بين جزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، ولذا كانت الآيات أقل عنفًا من آيات سورة الطور ولذا سبقها قوله : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور:٢٩) وأم في الآيات متصلة كما رجح الرازي ، وليست بمعنى بل معطوفة على محذوف ، فقد كثرت الجمل المحذوفة وهي ذات افتراءاتهم اكتفاء بالاستفهام ، وآيات الطور تناقش التوحيد والحشر والرسالة ، ومن بديع الأدلة أن جعلهم هم كمخلوقين آية على التوحيد وصدق القرآن ، وتأمل قوله من غير شيء أي من غير خالق أو من غير تراب وماء أو من غير أب وأم أي بدون تدبير وتقدير وقدرة؟ [1].

الإنكار الأخروي :

والتبكيت والإنكار والتوبيخ تجاوز الدنيا إلى الآخرة حين يواجه الكافرون بتأنيب الزبانية لونًا من العذاب النفسي المر ، ومشاهد القيامة تصور حياة لها قوانينها فيها الحركة والحياة والانفعالات المتناسبة مع الجزاء ، ففي النار ـ ونعوذ بالله ـ تكون الأحاسيس والمشاعر نارية ملتهبة حمراء أو سوداء أو صفراء في أقوال المعذبين بين سباب لطوائفهم وشماتة فيهم وبين يأس وحسرة وندامة وأمنيات غاربة وألم مشنوق وبين إنكار متوقد على ألسنة الملائكة . من مثل قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٦) ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ (النمل:٨٤) كما جاء عديد من آيات التقرير التي نلتقي بها بعد موشحة بالإنكار الساخر .

* * *

(١) راجع تفسير الرازي في تحليل الآيات وتناسبها ٢٨/٢٥٥ وما بعدها .

القرآن وصدق الرسل

وقد حكى القرآن ما جاء على ألسنة المشركين عن القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ (السجدة:٢،٣) و ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣،٣٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد:١٦).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٦) .

وفي آيتي محمد والبقرة ينكرون المفعول الواقع على بعض القرآن مع شيء من السخرية والاستعلاء كما يذكر أقوالهم بافترائه : بصيغة القول دلالة على أنها ألفاظ ترمي بها الألسنة دون فكر أو عقل ، والرد إما بالثبات أنه حق أو بتحديهم أن يأتوا بمثله ، وآية الطور من آيات المعاجزة والتحدي في القرآن ، كما كان القرآن يكتفي بالحكم عليهم بالضلال والكفر لأنه دال من واقع نظمه على أنه منزل من عند الله . ولا شك أن الردود التفصيلية المفحمة جاءت في أساليب خبرية قوية بعد تقرير كذباتهم حول القرآن الكريم ، كما نلحظ ـ وهذا شيء واضح ـ أن الرد كان أقوى من الشبهة أسلوبًا ودلالة واستظهارًا بالحجة .

وجاء في سورة فصلت وكانوا لتعنتهم يقولون هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا لولا فصلت آياته والآية ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

(فصلت:٤٤) .

وفي قوله : آأعجمي وعربي الهمزة للإنكار يعني لأنكروا وقالوا أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي ، والمعنى كما ذكر في الكشاف « إن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتًا لأن القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم »[1] فالاستفهام منكر مقرر للتحضيض في « لولا » وقوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ تمثيل لهم في عدم استماعهم بمن ينادى من مكان بعيد لا يكاد يسمع الأصوات أو يميز المقاطع ، وهو متلائم مع الآية كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، كما أنكروا رسالات الرسل لأسباب منها أنهم بشر مثلهم أو أنهم ليسوا من المترفين الأغنياء ، وفي أساليب الاستفهام جاء ما يخامر قلوبهم من إنكار وحقد مزجوه بالتحقير والسخرية كقول الله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ والرد ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ (القمر:٢٣-٢٦).

فالإنكار والتحقير منصب على المفعول لأنه منبع الإنكار وهو أن البشرية في زعمهم تنافي البشرية وقد أتبعوا المفعول بوصفين : كونه منهم أي من جنسهم وواحدًا فريدًا لا تبع له أو واحد من آحادهم لا من أشرافهم قصدًا إلى أن الجنسية والوحدة مما يمنع الإتباع له ، ولو قدم « واحدًا » على « منا »

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤٥٥/٣ وتفسير أبي السعود ١٦/٨ .

لتعلق منا بواحد وفاتت نكته الجنسية وهذا من دقائق التقديم[1] وقوله ﴿ سَيَعْلَمُونَ ... ﴾ حكاية لما قاله الله لصالح وعدا له ووعيدًا لقومه ، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده وقوله : ﴿ غَدًا ﴾ كناية عن قرب وقوع العذاب كقولهم إن غدا لناظره قريب والاستفهام فيه للتوبيخ والتهديد .

وجاء على لسان المشركين من قريش ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٦) ، ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان:٤١) ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:٧) .

والاستفهام دال على الإنكار والهزء ـ كما ذكرت الجملة قبله ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ واسم الإشارة والمقاطع المفتوحة القصيرة والطويلة قوى هذا التصوير الساخر ، وفي الآية الأخيرة كان مع الإنكار التعجب من حاله الشريفة ﷺ وصفاته البشرية من أكل الطعام والمشي في الأسواق وتفرده بالإنذار دون ملك يعينه كناية عن إنكار الرسالة التي تنافي البشرية في زعمهم .

قضية البعث :

وهي من أهم القضايا الإسلامية ـ بعد الوحدانية ـ لقيت جدالاً شديدًا في كل عصر ومع كل رسول . وكانت مشكلة معقدة ضل بها كثير عن الإيمان ، لأنهم مشدودون إلى الحسيات ، ولا يعملون عقولهم فيما خلق الله ولا فيما وراء الحس من غيب مكنون ، ثم إن جهلهم بالله تعالى وبصفاته الحسنى من علم وقدرة وقهر جعلهم في تحجر وجمود في التصور ورفض للغيب لأنهم وقفوا أمام أستاره عاجزين ، فهم يرون البعث أمرًا عسيرًا بعد الموت وتفرق الأشلاء والذرات وتحولهم عظامًا نخرة أو رفات وترابًا يصل في الأرض ليلتحم بترابها .

---

(١) راجع في الآيتين أبا السعود ٨/٧٢ .

ومن هنا أخذت قصة البعث حيزًا كبيرًا من القرآن تارة يقدم تصوراتهم وإنكاراتهم للبعث بما عرف من أساليب خبرية بالقصر وبدونه وإنشائية بالقسم والاستفهام ، ويصور انفعالاتهم المتلونة من إنكار وتعجب واستبعاد وسخرية وسخط وجهت على مدى الأعصار للرسل جميعًا ، وأكثرهم مشركو العرب في مقاولاتهم وعداواتهم وخصوماتهم البليغة العنيدة ، وكانت الدعوة إلى الإيمان المطلق بالبعث يؤجج غضبهم ويرميهم في دوامات من الجحود والإباء والإعراض .

وأما ردود القرآن فكانت أوسع مساحة وأكثر تنوعًا وبسطًا ، ووظفت وسائل الأداء ودعت العقول إلى سياحات عالية تقدم آثار قدرة الله تعالى في الأنفس والمخلوقات والكونيات والآفاق من آثار خلقه وإبداعه وعلمه وحكمته ، كما تقدم مختلف البراهين العقلية المتمازجة مع أساليب التأثير النفسي ، فليست النشأة الآخرة أعسر من الأولى وكل المقدورات أمام القدرة سواء ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] فالمشيئة التي تبث الحياة صورًا وأشكالاً هي المشيئة التي ترد الحياة إلى الموات وتخلق عالمًا آخرًا له سننه وقوانينه ، بل دعاهم القرآن إلى أن ينظروا في أطوار خلقهم المعجزة السبعة ليرجعوا بها إلى التراب الذي شاء الله فكان بشرًا سويًّا ، ثم هو يبعث مرة تالية بعد تمام فنائه ليعود كما كان على أدق ما فيه ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [2].

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ : أي شيء ، ثم قد يقسم الله تعالى بنفسه وهو أجل قسم على البعث ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ﴾ في تهديد بالغ وتحقير يجمعهم مع الجنس العاتي المتمرد من خلق الله .

---

(١) راجع تفسير الرازي ٢٣/٩٨ ، ١١٥ ، ٢٤/٢١٣ وأبا السعود ٤/١٣٤ ، ٥/٦ .

(٢) راجع «اليوم الآخر في ظلال القرآن» أحمد فائز ص ٢٤ وما بعدها .

ويكثر القسم بآيات الله في كونه ما كان منها ظاهرًا أو خافيًا ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ . . . . الآيات ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا . . . ﴾ الآيات ـ ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ . . . ﴾ الآيات .

ثم يتخطى القرآن هذه المرحلة إلى تصوير مشاهد القيامة ساعة وقوعها وإلى يوم الحساب بطوله وأهواله وإلى عالم الجنات وحياتها والمنعمين فيها ، يرصد سلوكهم وينقل تعليقاتهم في تنعمهم ، وكذلك عالم النار ودركاته وطوائف المعذبين وانفعالاتهم وحياتهم المعذبة في الجحيم ، وهو موضوع كتبت فيه مؤلفات ولم تستوفه تمامًا[1] .

ونعود إلى قضية البعث وقد عبر أبي بن خلف عن وجهة نظر الكفر من الرفض والاندهاش والاستبعاد حين أتى الرسول ﷺ ومعه عظم قد رم وبلى قائلاً في حنق ونظر شزر «أترى يا محمد أن الله يبعث هذا بعدما رم» استدراجًا يزيد به إنكارًا ونفارًا ، فقال ﷺ بهدوء كامل لأنها حقيقة تتهدى بها الفطرة لو ارتفعت عنها غشاواتها ورينها «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم» رد مفحم ووعيد بذوق العذاب في جهنم ، نعم وكأنه يقرأ حقيقة أمامه من تسطير الأقدار ، ونزلت الآيات من أواخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس:٧٧-٨٣) والاستفهام ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ .

---

(١) راجع في ذلك مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ، ثم انظر «اليوم الآخر في ظلال القرآن» أحمد فائز .

للإنكار الشديد والعجب قواه وقوع الفعل على المفعول الخاص . العظام والجملة الحالية ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي بالية أشد البلى فهذا يثير في نفسه مشاعر الغرابة والاستبعاد والنكير والبعد عن عقله ، ولذا جعل «مثلا» بعيد الوقوع يكتفي منه بالتعجب . وكان الرد تبكيتًا وتذكيرًا لما نسيه من فطرته[1] من الاعتراف بالخالق الأكبر والقادر الذي تتساوى المقدورات أمام قدرته ، ولذا رد بدليل الخلق الأول ومظاهر القدرة في الكون وآثار الخلق لما هو أعظم وأكبر .

ومن إيراد شبههم بأساليب الاستفهام بالهمزة وأيان ومتى جاءت الآيات القرآنية ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(الرعد:٥).

وعن قوم عاد أو ثمود من قول الملأ منهم ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون:٣٥-٣٧) [2] ورجح أبو حيان عن الطبري أنهم قوم صالح .

وعن كفار مكة ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٨١-٨٣) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(النمل:٦٧،٦٨) .

ومن سورة الصافات : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (الصافات:١٦-١٨) وعلى لسان

---

(١) راجع الكشاف ٣٣١/٣ ، وأبا السعود ١٨١/٧ .

(٢) راجع أبا السعود ١٣٤/٦ والبحر المحيط ٤٠٣/٦ .

بعض المنعمين في الجنة ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

(الصافات: ٥١-٥٣).

وعن مشركي مكة في سورة ق : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾

(ق: ٣).

وعن أصحاب الشمال وجرائمهم الدنيوية ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (الواقعة: ٤٧، ٤٨) وعن مشركي مكة في سورة السجدة ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (السجدة: ١٠) ونظيرتها آية الإسراء ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَإِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٤٩).

كما جاء عن الإنسان المشرك عمومًا ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم: ٦٦، ٦٧) وقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَإِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ (النازعات: ١٠-١٢)[1].

ونلحظ في هذه الأساليب :

أولاً : تقديم الظرف ليكون مدخول الهمزة وهو ظرف بإذا التي تفيد اليقين انصبابًا للإنكار على الحدث في هذا الوقت وهذه الحال ، إذ هو المثير أقصى العجب والاستبعاد والرفض والإحالة في تصورهم لأنهم منكرون للبعث مطلقًا . ثم تحقيقًا للإحالة [النازعات : ١٠-١٢] وتصويرًا لغاية الاستبعاد ، يعطفون على الفعل «متنا» غالبًا مرحلة من مراحل التحلل للجسد البشري «وكنا ترابًا» ، «وكنا ترابًا وعظامًا» ، «وكنا عظامًا ورفاتًا» ومن عجب أنهم حين يذكرون آباءهم معهم في نسق متلاصق لا يذكرون العظام» .

---

(١) راجع الكشاف ٣٢/٣ ، والرازي ٤٨/٢٣ ، وأبا السعود ١٣٤/٦ .

«أئذا كنا ترابًا وآباؤنا» يعنون تقادم العهد على موتهم وفناء عظامهم حين يصير الجسد كله ترابًا ويلحق بالماضين منهم ونظيره : إذا ضللنا في الأرض : أي فنيت الأجساد واختلطت وتاهت في تراب الأرض كما يضل الماء في اللبن ، وهذا أرجح من رأى الزمخشري الثاني : أي غبنا[1] لأن الغيبة محققة في مطلق الدفن . وحين يذكرون «ترابا وعظامًا» ويتعرضون لذكر الآباء يذكرونهم في استئناف أو جملة مستقلة ترتيبًا تصاعديًا أو ترتيبًا تاريخيًا عكسيًا . وهذا من الدقة في التعبير وذكر التراب والعظام : حين يخصون الفناء المتقادم في الاقتصار على «ترابا» غالبًا أو «ضللنا» يذكرون الجملة الثانية التي هي الهدف من الإنكار في صيغة مباينة متقابلة للجملة الأولى ليولد هذا التقابل الحاد مشاعر الإنكار والاستبعاد والتعجب المتوترة الثائرة ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ولما ذكروا العظام والرفات وهو التراب عند الفراء عن مجاهد أو هو الحطام أو ما بولغ في دقه وتفتيته[2] ، وكأنها مرحلة ثانية بعد العظيمة كانت الجملة الثانية مشتملة على البعث في خلق جديد ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ وكأنها آية تتوسط تعبيريًا مرحلة التقادم جدًا أو مرحلة الترابية والمرحلة الأحدث منها وهي العظمية إن صح التعبير .

ثانيًا : من الأساليب يتضح أن الإنكار ليس موجهًا إلى البعث على هذه الحال وإن كان هو المآل ، بل إلى الاستعداد والتهيؤ ، وكونهم بعرض ذلك كما أشار أبو السعود دلالة على التمادي في الكفر والضلال[3].

ثم إن أساليبهم بنيت على الإيجاز والتوكيد وهو مظهر أسلوبي مثير لأن التوكيد فرع الإطناب والبسط ، والتقاؤهما يؤكد ما ذهب إليه بعض العلماء من أن القرآن إيجاز كله وألوان الإطناب لا تخرج عن كونها إيجازًا ، والمهم أن

---

(١) الكشاف ٣/٢٤٢ .

(٢،٣) راجع أبا السعود ٥/١٧٧ .

هذا تقابل غريب في الأسلوب يلائم التقابل الغريب في الدلالات ـ وأعني بالإيجاز : حذف الفعل العامل في الظرف يقدر نخرج[1] وهذا التقدير لأن هناك فواصل كالهمزة وإن واللام ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يقدر : نبعث : وفي ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ : يقدر نخرج[2] وهذا التقدير لأن هناك فواصل كالهمزة وإن اللام تمنع الفعل بعدها من العمل فيما قبله وكأن الفعل المنكر أنكر مرتين تقديرًا وإظهارًا .

والتوكيد واضح من إذا في الأولى والهمزة غالبًا وإن واللام غالبًا واسمية الجملة، وتكررت في الجملتين على لسان قوم ثمود إغراقًا في الكفر[3]، أما تنوع الجملة الثانية فقد كان للمقام والسياق والموقف الأثر في صياغتها على نحو خاص ، وقد لمح الكرماني ذلك في آيتي الصافات ، حين ذكر أن الآية الأولى وفيها البعث حكاية كلام الكافرين وهم منكرون له ، أما الآية الثانية في يوم الدين على لسان أحد القرينين لصاحبه في الجنة ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء وما نحن فيه الآن فناسب ذكر التعبير ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي محاسبون[4].

ثالثًا : قد يكون الأسلوب الاستفهامي خاتمة لأقوالهم يتبعه الرد والتعليق والتفنيد كما في آية الرعد والإسراء والصافات الأولى وق والواقعة ، وقد تتبعه جمل تؤكد الإنكار والاستبعاد على سبيل الترقي في الشعور وتحقيقه كآية : المؤمنون : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ بتأكيد البعد العظيم[5] لهذا الوعد

(١،٢) راجع الكشاف ١٥٧/٣ والبحر المحيط ٩٤/٧ .

(٣) أسرار التكرار للكرماني ص ١٧٩ بتصرف .

(٤) راجع الرازي ٩٨/٢٣ .

(٥) المنقول عن سيبويه إن لكم الثانية بدل من الأولى وخبر الأولى محذوف وعن الفراء إن لكم الثانية كررت للتأكيد لما طال الكلام حسن التكرار وهناك أوجه أخرى .
وراجع الكشاف ٣٢/٣ والبحر ٤٠٤/٦ والرازي ٩٨/٢٣ .

بالبعث ثم : إن هي إلا حياتنا الدنيا : تحقيق لعقيدتهم بأسلوب القصر الذي يتحد فيه الطرفان نفيًا حاسمًا للبعث ثم تأكيد المنفي المقدر بالتذييل ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

كما جاء على لسان مشركي العرب ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وتجد هنا أمرين ثانيهما ذكر أساطير الأولين تفتقت عنها عقولهم وشاعت على ألسنتهم وذكاها بعض السفر منهم إلى الأمم المجاورة من الفرس والروم كالنضر بن الحارث يأتون ليحدثوهم عما وجدوا وما سمعوا ، ولعل هذا أدل على اهتمام العرب القدامى بالكلمة المنقولة وتزجية فراغهم بما هو غريب يروى في أسمارهم ، ولذا ذكرت لفظة «أساطير» في القرآن تسع مرات جاءت على ألسنة المشركين من قريش[1] والتجارة أو القرش والتقريش من أسباب النقل لهذه الأحاديث . وقد جاءت كلها بعد القول بيانًا لأنها مزاعم لم يكونوا يعتقدونها إذ لم يثبتوا عندها وبخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم .

وأول الأمرين ترتيبًا هو تقديم اسم الإشارة العائد على البعث في المؤمنون وتأخيره في النمل ، وسر هذا في الكشاف ومن تبعه أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر وأن الكلام قد سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد[2] ذكر الكرماني أن آية «المؤمنون جاءت على القياس لأن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالمنفصل ثم ذكر المفعول «هذا» وقدم في النمل لأنه لما ذكر الآية السابقة عليها :

---

(١) المعجم المفهرس ص ٣٥٠ .

(٢) الكشاف ١٥٨/٣ والرازي ١١٥/٢٣ والبحر ٩٤/٧ وأبو السعود ٢٩٨/٦ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ وكان القياس فيها كنا نحن وآباؤنا ترابا» فقدم ترابًا ليسد مسد نحن ، قدم في الآية الثانية المفعول هذا موافقه لقوله «ترابا»[1] وهو يعللها بالتلاؤم اللفظي لكنه يبقى بعد ذلك محتاجًا لسره البلاغي الذي نجده عند الزمخشري . وارتضاه السكاكي والقزويني[2].

الإنكار بغيره الهمزة :

وقد جاء بأيان ومتى ومن أساليب أيان : قول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ (النازعات:٤٢-٤٤) ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ (القيامة:٥-١٠) .

وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأعراف:١٨٧).

وقال تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات:١٠-١٤).

ونلحظ هنا أن الاستفهام بأيان جاء بعد الفعل «يسأل» الحالي عرضًا وتعجيبًا من هذا السؤال ومعنى : يسأل : يستفهم ويستعلم ، والواقع أن للفعل سأل دلالات مختلفة في القرآن الكريم ، سأل بمعنى استخبر ويتعدى بنفسه وبعن وبالباء تقول: سألته كذا وسألته عن كذا وبكذا وتعديه بعن أكثر كقوله :

---

(١) راجع أسرار التكرار ص ١٤٩ .

(٢) راجع مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٣٩ والإيضاح للقزويني ص ٢١١ ط. خفاجي .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ (الإسراء:٨٥) كما يأتي سأل بمعنى حاسب وآخذ وبمعنى طلب أو طلب المعروف، وسأل بالله : أقسم[1].

كما أن السؤال بمعنى الاستفهام سواء كان حقيقيًّا أم مجازيًّا قد يكتفي فيه بالحكاية وصيغة الخبر كقوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة:١٨٩) ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المعارج:١،٢) ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب:٦٣) .

وسواء حجبت الإجابة كما في السؤال عن الساعة والروح أم كانت الإجابة مباشرة مفصلة أو مجملة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ الآيات (الكهف:٨٣) .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (الأنفال:١) أم كانت الإجابة على الأسلوب الحكيم توجيهًا وتعليمًا للسؤال عن الأجدى والأنفع كالآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾(البقرة:١٨٩) . ثم إن المقام قد يقتضي لخطورته وأهميته تكرار السؤال مرة بالخبر يعقبه صيغة السؤال ذاتها بالاستفهام حقيقيًّا كقوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة:٢١٩) أم مجازيًّا كقوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات:٤٢) وقد كثر في القرآن السؤال بطريقي الخبر مؤكدًا بالاستفهام في التقرير بالخالق سبحانه ومظاهر الخلق كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾(لقمان:٢٥) ، (والزمر:٣٨)[2] وفي السؤال الإنكاري عن الساعة على ألسنة المشركين بالأداة

---

(١) راجع مفردات الراغب ص ٢٥٠ ومعجم ألفاظ القرآن ٥٣٤/١ .

(٢) راجع في هذه الأساليب المعجم المفهرس ص ٣٣٦ وما بعدها .

أيان كما في الآية صدر البحث وهذان الغرضان الكبيران ـ ضمن أغراض أخرى يسيرة محدودة الآيات .. كانت لجليل خطرها في الدعوة إلى الوحدانية ، أو إنكار تعجيبهم واستهزائهم من القول بالبعث وبيان أن علمها عند الله وحده وحتى لا يشغل بعض المسلمين بالسؤال عما لا يفيده دينًا أو دنيا .

وكان المشركون يسألونه عليه السلام استعجالاً بطريق الاستهزاء واليهود امتحانًا لأن الله عمى وقتها في سائر الكتب[1] .

وأيان للزمان مثل متى إلا أنها تفيد التفخيم في أساليب قوية غاضبة ، ولذلك نلحظ أنها جاءت في سور مكية وجاءت كثيرًا في الأساليب القصيرة أو الجمل القصيرة المحتدمة المشعة بعديد من الانفعالات كما في الذاريات والقيامة والنازعات .

ثم إنكار الوقت في أيان يعني ـ على طريق الكناية ـ إنكار الحدث الواقع فيه وهو البعث يستوي في ذلك السؤال بأيان أو متى ، وهي أسئلة تمثل نهاية الاستبعاد والسخرية الهازئة والإنكار العنيد والاستعجال الهازل .

وقولنا إن أيان تفيد التفخيم دائمًا هو رأي الرضى ورجحه القزويني ناقلاً عن علي بن عيسى الربعي وهو الواضح من كلام الدسوقي الذي نقل عن السيد الشريفي أنه لا يقال أيان تنام ، وغالب النحاة أنها تأتي للتفخيم وغيره مثل متى .

وذكر ذلك اليعقوبي وأيده السبكي معترضًا على القزويني في إيراده آية القيامة:

﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ دليلاً على التهويل والتفخيم ، فإنه كلام محكي عن الإنسان الفاجر الساخر المنكر للبعث فكيف يتأتى فيه التهويل ؟ ورد الدسوقي بأن التفخيم قد تحقق باعتبار حكاية الكافر لاعتقاد المخاطب وهو

---

(١) راجع الكشاف ١٣٤/٢ والبحر ٤٣٤/٤ وأبا السعود ١١٦/٧ .

الداعي استهزاء به وإنكارًا ، يريد أن يقول أن الرسول الكريم ﷺ لما كان ينذر بيوم القيامة وأهواله بأساليب فخمة قرآنية وحديثية تناسب قدر هذا اليوم الرهيب كان رد الفعل عند الكافر هو السخرية حاكيًا هذا الاهتمام الشديد في أسلوب مصور له بأيان استهزاء وإنكارًا ، كما أجاز أن تكون الحكاية بالمعنى وعبر القرآن بما يقتضي إشعارًا بعظم ذلك اليوم في نفسه وإن كان الجاحد لا يقر به ، وواضح أن الرد الأول هو المعتبر واقتصر عليه المغربي[1]، يؤكد ذلك وأن أيان للتفخيم دائمًا لفظها وصوتها وتأكيد الأسلوب لهذا التهويل ، ولذا عدل عن الجواب إلى ما هو أفخم[2]﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ الآيات ، وهو خراب العالم ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ وهو ذات الإنسان الذي كان متجانفًا ساخرًا فهو يسأل يومئذ آيسًا هلعا كسيرا أين المفر ؟ نفيًا له فلا مفر دلالة اليأس القاتم والأمل العازب وفي هذه المقابلة يكون التأثير ورج القلوب .

وعلى هذا فحكاية الكافر للوعيد والتهويل على لسان الرسول مقصود تلاؤما مع نسيج الأسلوب وهو سبيل سار عليه القرآن ثم ليكر عليه ردعًا ونقضًا .

وفي آيات الذاريات سبقها بدء السورة أربعة أقسام ببعض مخلوقاته البديعة المدبرة بقدرة وعلم ، على وقوع يوم الدين . وقد بدأ بالدعاء عليهم ـ على النهج العربي ـ ووصفهم بالخرص كناية عن الكذب اللازم لهم . ثم بين أنهم في غمرة الجهل والضلال ساهون غافلون ، وقولهم أيان : ليس ظرفًا لليوم بل هو ظرف للحدث عن السؤال يوم هم على الناس يفتنون : أي يحرقون ويعذبون .

---

(١) راجع شروح التلخيص ٢٨٧/٢ وما بعدها .

(٢) راجع نظم الدرر للبقاعي ٩١/٢١ وراجع في الآية الكشاف ١٩٠/٤ وأبا السعود ٦٥/٩.

وقد وجدنا كثيرًا عند الزمخشري ومن تبعه تنظيرًا لأيان - في التأويل - بمتى[1] ولعله إشارة إلى معنى الزمان على العموم ، وإلا فإن أيان مباينة جرسا ودلالة من حيث التفخيم ومجيئها في أساليب مهولة ، مباينة لمتى إذ يلي متى الماضي والمضارع والمبتدأ ولا يلي أيان الماضي[2]، وفي هذه الأساليب جاء في آيتين : السؤال بالمضارع عن الساعة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ثم تليها الجملة ﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ على البدل من الساعة[3] أي عن زمان وقوعها أو عن إرسائها ومرساها : مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل إلا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ ورجح أبو السعود أن تكون جملة الاستفهام محلها النصب على نزع الخافض لأنها بدل من «عن الساعة» أي الجار والمجرور ، ثم إن فائدة توالي الجملتين ليس التنصيص على وقتها فحسب بل على الساعة ذاتها وما يتعلق بها ، ثم باعتبار حلولها في وقتها المعين ، وقد سلك هذا المسلك في الجواب الملقن عنها فلم يقل قل إنما علم وقتها بل قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ . . ﴾ الآية[4] كما ألمح البقاعي إلى بيان الإبهام في الساعة بما بعدها[5] وهو متعالم في البدل وتأمل التلاؤم بين مرساها وثقلت ..

وفي آية النازعات : كان الرد ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ وفي تأويل الآية أقوال[6] وأقربها إلينا أن «فيم» إنكار لسؤالهم ، وما بعده من الاستئناف تعليل

---

(١) راجع في تنظير أيان بمتى : الكشاف ١٣٤/٢ ، ١٤/٤ ، ١٩٠/٤ ، والرازي ٨٠/١٥ وأبا السعود ٣٠٠/٣ و١٣٦/٨ ، ٦٤/٩ ، ١٠٥/٩ .

(٢) راجع أبا السعود ٣٠٠/٣ .

(٣) راجع الكشاف ١٣٤/٢ والبحر المحيط ٤٣٤/٤ .

(٤) راجع البحر ٤٣٤/٤ وأبا السعود ٣٠٠/٣ .

(٥) نظم الدرر ٢٤٤/٢١ .

(٦) راجع الطبري ٣٢/٣٠ وقد رأى أن قوله فيم أنت من ذكراها : كما في أي شيء أنت من ذكر الساعة والبحث عن شأنها فهو كما عبر الزمخشري تعجب من كثرة ذكره لها وراجع الكشاف ٢١٩/٤ وأبا السعود ١٠٥/٩ ونظم الدرر ٢٤٥/٢١ .

للإنكار وبيان لبطلان السؤال أى فيم هذا السؤال ، ثم قيل : أنت من ذكراها أي أنت علامة من علاماتها كقوله عليه السلام «بعثت في نفس الساعة» وقوله عليه الصلاة والسلام : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار «بالسبابة والوسطى» وقوله ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ أي منتهى علمها تفصيلا من كنهها وكيفيتها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها ، وإنما المهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل بالبعثة[1]، وفي أساليب أقل عنفًا جاءت متى الزمانية على ألسنتهم دالة على إنكار وقت البعث كناية مصورة عن إنكاره من أصله .

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ (الملك:٢٥-٢٧) .

والتعبير ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ جاء في القرآن الكريم ست مرات[1] أربع منها لإنكار يوم البعث بإنكار وقته والاستهزاء ، وقد تبعه في النظم القرآني الرد الملائم بإثبات هذا اليوم واستحضار مشهد بئيس لهم فيه كما في آية الملك وفي آيات يس ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يس:٤٨-٥٠) .. الآيات ، وهي تبدأ - في الرد - بوصف الصيحة الواحدة أو النفخة تأتي بغتة وهم في خصام ومراء فتأتي عليهم ، وفي سبأ : بعد الآية ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سبأ:٣٠) وفي آيات الأنبياء جاء بعد الآية : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٩، ٤٠).

---

(١) المعجم المفهرس ص ٧٥٤ .

وهذه من أشد الآيات التي ترد على استهزائهم وإنكارهم بهذه الأساليب ، فقد نفت عنهم العلم بطريق التهويل عما يقع لهم آنذاك حين يسلبون القدرة يغشاهم العذاب فلا يقدرون على رده عن وجوههم وهو أكرم ما في الإنسان بيانًا لعذاب رهيب[1] كما جاء الأسلوب مرتين في يونس والنمل استعجالاً للعذاب عن طريق السخرية[2].

من ردود القرآن :

قدمنا أن ردود القرآن كانت أشد قوة وأكثر بسطًا وتنوعًا ، والواقع أن القرآن لم يترك قضية البعث حتى أقام لها شواهد حسية أو بعثًا مصغرًا إن صح التعبير نطقت به الكتب وصار في الناس أحاديث كقصة أهل الكهف وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام ثم قصة هذا الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ (البقرة:٢٥٩) والاستفهام بأنى : فيه الاستبعاد والإنكار فكان هو محل التجربة أماته الله مائة عام ثم بعثه ، الآيات . وكما في قصة الخليل عليه السلام والطيور التي وزعها أشلاء على قمم الجبال ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٠).

مع هذه الآيات في أطوار الخلق ومظاهر القدرة التي يعقبها القرآن غالبًا بتقرير البعث كقوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة:٧٣) ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (القيامة:٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْۦِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ (فصلت:٣٩) ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:١١) وعديد من هذه الردود سنلتقي بها في غرض التقرير ، ويهمنا هنا أن نقدم لونين من الأساليب جاء فيها الإنكار القرآني والتبكيت والتوبيخ لمنكري البعث .

---

(١) راجع في الآيات أبا السعود ٦٧ ، ١٣٣/٧ ، ١٧١ ، ٧/٩ .

(٢) الآيتان يونس ٤٨ والنمل ٧١ وراجع فيهما أبا السعود ١٥١/٤ ، ٢٩٨/٦ .

الأول : خاص بالفعل حسب يدخل عليه الاستفهام الإنكاري كقوله تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (المؤمنون:١١٥،١١٦)

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ (القيامة:٣،٤) وفي ذات السورة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ (القيامة:٣٦-٤٠) وآية المؤمنون جاءت بعد آيات صدرت بسؤال فيه توبيخ وتبكيت ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ فجاء الاستفهام الثاني أعظم في التوبيخ والتبكيت[1]، أي أفحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث ، وعبثا حال أو مفعول له أي خلقناكم للعبادة والطاعة وإعمار الكون ، ولذا نزه الله نفسه على سبيل الاستعظام أن يخلق شيئًا ليس فيه حكمة[2] وأتبع اسم الجلالة باسميه الملك الحق وبشهادة التوحيد وأنه رب العرش العظيم فكيف بما تحته .

وآية القيامة : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ : ينكر ويبكت من يشك في البعث .

والمراد بالإنسان قيل معين وهو عدي بن أبي ربيعة أو أبو جهل ، ورجح جمع من العلماء أن الإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق ، ولما كان في الناس من يبالغ في الإنكار عبر بأداة التأكيد «لن نجمع» وتأمل ما يفيده نون العظمة هنا من تناقض تأكيدهم المبني على الزعم الواهم مع الحق والاقتدار على ذلك، وذكر جمع العظام دون البعث مع أنه كناية عنه ، لأن تشتت العظام وتحلل الجسم كان مصدر الإحالة عندهم ، وجاء الرد بالغ التركيز والإيجاز

---

(١) راجع الرازي ١٢٧/٢٣ وأبا السعود ١٥٣/٦ .

(٢) راجع الكشاف ٤٥/٣ وأبا السعود ١٥٣/٦ .

والإعجاز : فالحرف بلى أوجب ما بعد النفي فكأنه قال بلى نجمعها ، وقادرين حال من الضمير في نجمع ورأي الرازي أن جعله حالا جار مجرى بيان الواضحات ، إذ جمع العظام لازم من لوازم القدرة وهو غير قوي ، ورجح أن يكون المعنى : كنا قادرين على أن نسوي بنانه في الابتداء فوجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية في الانتهاء فتم حذف أكثر من الجملة .

وتسوية البنان : تعبير معجز أثار قرائح العلماء قديمًا وحديثًا فتحدثوا عن تسوية البنان أي جعلها صفيحة مستوية لا شقوق فيها ، فيعدم الارتقاء أو أن تسوية البنان تهيئتها كما كانت على صغرها ولطافتها من غير تفاوت وخصها لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، وهو كناية عن جمع سائر العظام على ما كانت من باب أولى . كما أن المعنى الأول كناية عن القدرة النافذة التي لا معقب لها[1] كما لحظه بعض المعاصرين دقة التسوية في طرف البنان بخطوطه ودوائره غير المكتملة التي لا تتفق في اثنين من البشر ، كما دل علم تحقيق الشخصية إعجازًا في الخلق وإعجازًا في التعبير فهو رد عتيد على من يشك في البعث .

وفي الآية الثانية من سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ والسدى في اللغة المهمل أي مهملا لاعبا لاهيا لا يكلف ولا يبعث ، الإنكار التعجيب والإحالة ، وإعادة التعبير هنا بعد ذكره أول السورة لخطورة هذا الأمر الذي ناقشته السورة بل كان أهم أغراضها وكأنها كما نقل البقاعي عن الإمام أبي جعفر بن الزبير بسطت ما أجمل في سورة المدثر من الآيات : كنا نكذب بيوم الدين ، فإذا نقر في الناقور، إلى غير ذلك[2].

---

(١) راجع في الآية الطبري ١١٠/٢٩ والنيسابوري ٩٨/٢٩ والكشاف ١٩٠/٤ والرازي ٢١٨/٣٠ ونظم الدرر ٨٨/٢١ واليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٣١ .

(٢) راجع نظم الدرر ٨٨/٢١ ، ١١٤، ١١٥ .

ثم قد صحب الآية الأخيرة ـ رحمة من الله سبحانه بهذا الإنسان الذي يبعد عن العلم إما بجهل بالحكمة أو بجهل بالقدرة لما في طبعه من النقص والغفلة ، رحمه الله بإعادة البرهان يأمر بجمع القدرة والحكمة ، وهما دليلان كما وضح الرازي والبقاعي فلا يجوز في عقل عاقل أن يعطي الإنسان قدرة وآلة وعقلا دون تكليف ودون جزاء ، ثم الاستدلال بالخلق وأطواره على الإعادة بدءًا من نطفة من ماء مهين تتميز بالقدرة وتتنوع لتصير ذكرًا وأنثى ، ولما كان تحول النطفة إلى خلق سوى كالتحول من الشيء إلى نقيضه ، وكان لا يتم ذلك إلا بقدرة الله المطلعة ، جاء الاستفهام التقريري آخر لمسة في بناء السورة وآخر إلزام لا يبرم ولا يرد ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ بلى[1]، بلى وعزة ربنا».

واللون الثاني من الأساليب وهو الظن الخاص أعني لونًا من ألوان الظن وهو الفاسد المبني على أوهام وأكاذيب ، فقد جاء معظمه في الأساليب الخبرية على ألسنة منكري البعث كقوله تعالى ـ عن صاحب الجنتين وقد أطغته النعمة ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ (الكهف:٣٥،٣٦)، (فصلت:٥٠) وقول المشركين ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

(الجاثية:٣٢).

وقد أثبت لهم القرآن الظن الفاسد في اعتقاداتهم[2] ولم يجئ إنكار الظن إلا في آية المطففين تأنيبًا لهم وتبكيتًا ، إذ لو كانوا مؤمنين بالبعث لما طففوا المكيال وأخسروا الميزان والآية ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(المطففين:٤-٦) روى أن رسول الله ﷺ

---

(١) راجع في الآية الرازي ٢٣٤/٣٠ وأبا السعود ٦٩/٩ ونظم الدرر ١١٥/٢١وما بعدها.
(٢) راجع المعجم المفهرس ص ٤٣٩ .

قدم المدينة وكان أهلها من أخبث الناس كيلا فنزلت ، والاستفهام وارد لتهويل ما ارتكبوه والتعجيب من اجترائهم عليه[1].

الانتقام الإلهي بين وعيد الرسول وهزء الكافرين :

ومن أغراض الإنكار القرآني ما دار حول تهديد الرسل لأقوامهم - إن لم يؤمنوا بالله الواحد ، بانتقامه منهم وإنزاله العذاب عليهم مقدمة لعذاب أخروي رهيب ، وقد كان التهديد بهذا العذاب ملهاة للمشركين غلاظ القلوب ، ومادة للدعابة والسخرية دلالة على عتوهم وطغيانهم ، ولذا لحظنا في القصص القرآني أن الإلحاح في الدعوة على التلويح بالعذاب كان آخر شيء في منهج الدعوة يتلوها مباشرة الاستئصال بالعذاب من الله تعالى إلا في الأمة المحمدية التي جاء فيها العذاب نوعيًا غير مستأصل ، فاجتث الله من مشركي العرب الجذور التي لا خير فيها في غزوة بدر وأبقى على من أراد به خيراً كانت له بذور في القلوب .

وفكرة استعجال العذاب تكذيبًا به واستهزاء جاءت كثيراً في الأساليب الخبرية والأمرية وأقل من ذلك الاستفهامية من نحو حكايات القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الحج:٤٧) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾
(العنكبوت:٥٣-٥٥).

وكان النضر بن الحارث يتفكه في حركة مستخفة ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾
(الأنفال:٣٢) .

---

(١) راجع أبا السعود ١٢٥/٩ .

وقالت عاد لهود عليه السلام ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٠ ، والأحقاف: ٢٢) مرتين في القرآن .

وثمود لصالح عليه السلام نفس العبارة (الأعراف: ٧٧) مع تغيير إن كنت من المرسلين وقبلهم قوم نوح ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (هود: ٣٢) وكان قوم لوط أصرح وأعنف وأشد سخرية. ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٩) .

والأساليب الخبرية «يستعجلونك» فيها إنكار لهذا الاستعجال ، قال في الكشاف : «أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل والآجل كأنه قيل ولم يستعجلون به كأنهم يجوزون الفوت ، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد»[1] .

كما أن الأمر : ائتنا : استعجال وتكذيب وتحد[2]، وقولهم : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين توحي مع التهكم بالتأفف وعدم المبالاة : تحس ذلك في تعميمهم «بما تعدنا».

وحذف جواب الشرط إن : أي فائتنا به . كما جاء عنهم في أساليب الاستفهام ما ذكرته الآيات الكريمة :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(هود: ٨).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في سورتي (يونس ٤٨ ، والنمل ٧١)[3].

---

(١) الكشاف ١٨/٣ وأبا السعود ٢٣٩/٣ ، ٢٤٣ .

(٢) راجع الكشاف ٨٧/٢ .

(٣) راجع الكشاف ٢٤٠/٢ ، ٢٦٠/٢ وأبا السعود ١٥١/٤ ، ٢٩٨/٦ .

وتأمل كيف بنيت أساليب الاستفهام المحكية عنهم على المبالغة فهم في آية هود ، يذهبون في الاستعجال مذهبًا يسألون فيه عن موانع نزوله وأسباب حبسه تكذيبًا بالغًا واستهزاء ثقيلاً ، وفي آيتي يونس والنمل يسألون في استعجال وإنكار عن وقته وإنكارهم بوقته ـ كما سبق ـ إنكار للعذاب نفسه من باب أولى على طريق الكناية .

أما ردود القرآن فقد كثرت جدًّا ويهمنا هنا ما جاء منها على الاستفهام في السياقات العنيفة المتوترة التي تهز أو قل تزلزل الوجدان بالوقع المهول والتهديد بالعذاب الباطش ، ونلتقي هنا برد القرآن الذي تبع آية يونس ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (يونس ٥٠-٥٢) .

وهي آية فذة بنيت على الإيجاز وتداخل الاستفهام وتكثير الظلال وتركيز المعاني والتصوير بالجرس والدلالة والطباق ووضع الظاهر موسومًا بسمات مبررة وتوزيع الأزمنة في دقة معجزة والمعنى في ثوبه الطبيعي كما قال العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله :

« نبئوني عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتة في ليل أو نهار ماذا أنتم يومئذ صانعون ، إنكم هنالك بين أمرين إما الإصرار على ما أنتم عليه من تكذيب واستعجال وإما الإيمان فأيهما تختارون أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم ، كلا فإنكم مجرمون ، ثم نبئوني أي نوع منه تستعجلون فإنه ألوان وفنون وكله مر المذاق مكروه موجب للنفار كما قال الزمخشري أم أنتم اليوم تكذبون ، ثم إذا وقع بعد حين آمنتم به ألا إنه لن ينفعكم إيمانكم بعد أن ماطلتم وفاتكم وقت التدارك ، بل هنالك يقال لكم تنديمًا الآن تؤمنون وقد كنتم به تستعجلون » فوضع استفهامين متقابلين دل على أن هناك استفهامًا

جامعًا لهما ، والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال ، وثم : دل على معطوف عليه محذوف ، وقد تبع الشيخ دراز الكشاف في أنه مطوى بين الهمزة والمعطوف ، وأبو حيان على أن الهمزة مقدمة من تأخير والآن دل على عامله المقدر حتى أن مدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف دلت على طول مدة التسويف الذي يمنع من قبولهم إيمانهم لأنهم عمروا ما يتذكر فيه من تذكر .

وفي الآية فوق ما سبق :

قدم البيات لأن فجأة العذاب فيه أهول وأنكى ، والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الإنكار ، إذ أن حالهم مباينة لحال الاستعجال ، فحق المجرم أن يموت فزعًا من إتيانه فضلاً عن استعجاله ، وعبر بالمضارع يستعجل والشيء لا يستعجل بعد إتيانه والمراد التهويل وإنكار الاستعجال .

قال أبو السعود لإخراجه من خير الإمكان وتنزيله في الاستحالة منزلة استعجاله بعد إتيانه ، كما عبر بالماضي «أتاكم» مكان يأتكم مبالغة وتهديدًا في استحضاره وتحقق وقوعه ، والاستفهام بما للتهويل كأنه قيل أي شيء هول شديد تستعجلون منه ، ومن للبيان والهمزة : لإنكار الإيمان منحصرًا في هذا الوقت وهو داخل في القول المحذوف فعله أي يقال لهم : أبعد ما وقع العذاب ، الآن آمنتم حين لا ينفع ، والمراد إنكار التأخير للإيمان عن وقت التكليف تنديمًا وتحسيرًا كما قيل لفرعون حين الغرق وقد حاول تقليد بني إسرائيل في الإيمان : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

والآن : مقدمة على جهة القصر أي الآن دون ما سبق من أوقات مديدة ؟ .

كما في الالتفات بالمواجهة بخطاب الإهانة والتعنيف بعد غيبة الإهمال لهم تهديدًا وغضبًا ساحقًا رهيبًا ، ثم يلاحقهم الأسلوب بعد دخولهم النار

فيواجهون بالنكير ويسمون بالذين ظلموا ، وتوسم الدار بدار الخلد تيئيسًا ، ويكون العذاب ذوقًا مع باقي ألوانه الهائلة ، ويختم بأسلوب قصر يعلى فيه جانب الحق والعدل والاستحقاق متعانق مع أسلوب الاستفهام المثير ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ مع التهكم في إطلاق الكسب على العمل الضال[1].

ومن أساليب التهديد بالعذاب مقدماته أو أنواعه جاءت ثلاث آيات في معرض الاحتجاج على الكفار الذين يجعلون لله شركاء في سورة الأنعام :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٠) .

وبعدها بآيات ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٦، ٤٧) .

والثلاث الآيات جاءت بتهديدات ثلاثة الأولى : عن مقاتل التهديد بالعذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية أو خوفه وأماراته وأوائله كما ذكر أبو حيان للتعبير «أتاكم» ولو جعله بمعنى «يأتكم» كما ذكر غيره ، ويكون من التعبير بالماضي عما هو آت تحقيقًا للتهديد ، وأنه في علم الله كائن لكان أولى ، وعن ابن عباس هو الموت ، ورأى مقاتل ملائم جدًا وهو عذاب الاستئصال لشدة الأسلوب وتناهي الزجر والتهديد بالعذاب أو بالقيامة لاجتماع حرفي خطاب التاء والكاف ، قال الكرماني : وليس لهما ثالث يعني آيتي الأنعام

---

(١) راجع في الآية النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ١٤١ ، ١٤٢ والكشاف ٢/٢٤٠-٢٤٢ وتفسير الرازي ١٧/١٠٩ ، ١١٠ والبحر المحيط ٥/١٦٦ ، ١٦٧ وأبا السعود ٤/١٥٢ .

وليس لهذه الجملة في العربية نظير ، والتاء فاعل تبقى مفتوحة للمفرد المذكر لأنه الأصل كما ذكر ابن الشجري ، الكاف حرف خطاب يدل على اختلاف المخاطب وأغنى اختلافه عن اختلاف التاء فهو من تأكيد الخطاب في المقامات البالغة الزجر والتخويف كالتهديد بعذاب الاستئصال أو الساعة في الآية الأولى أو التهديد بالعذاب يأتي خفية وبغتة أو جهرة ، ولما كانت البغتة تضمنت معنى الخفية صح مقابلتها للجمهرة وبدئ بها لأنها أردع وأهول. والخطاب لكفار قريش والعرب وقد نبه في الآية الأخيرة على علة الإهلاك ، وهي الظلم ، والمعنى هل يهلك إلا أنتم لظلمكم بالاستفهام المثير المحقق ، ثم لما كان التهديد في الآية الثانية أخف من الأولى والثالثة وهو سلب نعم السمع والبصر والختم على القلوب التي يوظفونها في المعصية والكفران لم تأت الكاف ، والمهم أن الآية اكتنفتها آيتان من التهديد الرهيب ، سريانًا لأثر التهديد في الأساليب بدءًا ، ونهاية . وقول الكرماني إنه لا ثالث لهما يعني التاء مع ضمير المخاطبين ، وإلا فقد جاء ضمير المخاطب المفرد مع التاء فيما قال إبليس بعد عقابه بالطرد والذأم واللعن انفعالا إبليسيًا ماردًا ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مما سنعرض له بعد قليل .

ثم إن الآيات اشتمل كل منها على استفهامين يصعد الثاني الإنكار مفيدًا توحد الله بكشف الضرر ورجع السمع والبصر في الآيتين الأولى والثالثة ، فإن لم يؤمنوا بعد ذلك وجاء العذاب الأخاذ المحيط في الآية الثالثة فهي النهاية المحتومة بالهلاك استحقاقًا وجزاء وفاقًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ بالالتفات عنهم إلغاء وإهانة وهو حديث عن هلكى للاعتبار والتخويف ، فأي أسلوب وأي تنسيق للأحداث والمعاني والانفعالات والأساليب تبارك الله منزل القرآن[1].

---

(١) راجع في الآيات : الكشاف ١٨/٢ والبحر المحيط ١٢٤/٤-١٣٢ والأمالي الشجرية لابن الشجري ٢٩٢/١ ، ٣٠٠/١ وأسرار التكرار ٦٩ وأبا السعود ١١٣/٥ .

وتأمل أخيراً هذا الأسلوب ينكر استعجالهم العذاب وإنكار الإنكار، أو التعجيب من التعجب بحيث يكون الإنكار منكراً والتعجب متعجباً منه بتعرض المعنى لمعنى من جنسه وإن كان مغايراً له فاعلا وحقيقة ليمحوه محواً ويذره هباء، وقد التقينا بأساليب معجبة مثيرة تنبه إليها في حينها كقوله ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ تأمل ذلك ما شئت وتعجب ما أردت والأسلوب معنا في قول الله تعالى في سورة الصافات ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (الصافات:١٧٤-١٧٧) وفي الشعراء ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٠٠-٢٠٤).

وقال صالح لقومه بعدما شاهد منهم من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة أن قالوا له عليه السلام ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف:٧٧) كما سبق في الأعراف فقال ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل:٤٦)[1].

وهي دعوة بالحسنى إلى الإيمان والتوبة وسؤال منكر عن سبب استعجال العقوبة السيئة، إذ كانوا من غوايتهم يقولون إن وقع إيعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما كنا عليه، ثم تحضيض على الاستغفار، فهو سبب الرحمة وهذا إنكار يحدوه أمل في توبتهم، ولذا نلحظ بعض اللين في الأسلوب فقد ناداهم بنداء يومئ إلى حب الخير لهم لأنهم قومه «يا قوم» وذكر الصفة «السيئة» دون المواجهة بالموصوف وهو العقوبة ثم تطابقا مع الحسنة وأخيراً الرجاء في

---

(١) راجع أبا السعود ٦/٢٩٠.

الرحمة مع الاستغفار ، أما في الصافات والشعراء فالأساليب تغلي غضبًا ومقتًا ووعيدًا والحديث من جهة الحق عنهم إهمالاً وإبعادًا ، وحين تكون الأساليب غاضبة مبرقة مرعدة تجد الخطم المشع والتصفية الموحية بعديد من المعاني ، وهذه ظاهرة في الأسلوب القرآني ، فمع أنه كله إيجاز تتفاوت درجات إيجازه فتبلغ حد التركيز العجيب الذي كلما زدته نظرًا زادك عطاء في مقامات الوعيد والانتقام ، ويمكن بالتأمل التحقق من هذه الظاهرة ، وانظر في الآيات التي معنا وآيات الأنعام ثم آيات سورة هود وقصة الطوفان .

وفي آيات الصافات : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ . أي أبصر حالهم وعاقبتهم وما يقضي عليهم من الأمر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة ، والمراد كما قال في الكشاف الدلالة على أنها واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وفي ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام وتنفيس «وسوف» لتأكيد الوعيد لا للتبعيد ، ثم ترقى الأسلوب في التهديد المجلجل ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إن قولنا إنه إنكار شديد للاستعجال معلقًا بالعذاب لا يكاد يصف من وقع هذا الأسلوب الجليل المهول شيئًا ، نعم اللغة قاصرة عن وصف ما نحسه مع أن التعبير القرآني بالألفاظ ذاتها ولكنه الإعجاز .

وتأمل تقديم المتعلق مضافًا إلى «ناء» العظمة والجلال فهو عذاب خاص وانتقام غريب يناسب غضب الجبار ، إن الأسلوب يشع الإنكار والتبكيت والتحقير والإهانة والاستعلاء والوعيد وما شئت من هذه المفهومات الرامزة التي لا تشفى في الوصف . ثم أتبع بهذا التمثيل المنتزع مادته من غاراتهم التي هي جزء من حياتهم ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ مثل العذاب المفاجئ النازل بهم بعد أن أنذروا به فأنكروه بجيش أبلغ به النذير العريان فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة فقطع دابرهم .

وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحًا فسميت الغارة صباحًا كما قال الزمخشري ، وإن وقعت في وقت آخر ، وليست الروعة والبلاغة لما فيها من

تمثيل فحسب كما في الكشاف بل لطريقة النظم فيها من إذا الفجائية ووصف العذاب بالنزول والكناية في بساحتهم ، والمراد بهم ووصف الصباح بالسوء ، وقد أطلق في الخير فتحول سوءًا والمراد أنه نزل بهم السوء في الصباح فزاد الحدث حتى عدا الزمان .

وتأمل حروف الصفير في الآية وتوالي الحركات مع توزيع حروف اللين بدقة تصويرًا لسرعة النزول والاكتساح والاستئصال ثم بقاؤه ومكثه وقراره .

ثم إن المخصوص بالذم محذوف : أي صباحهم فهو صباح سوء ظاهرًا وباطنًا ، وتلحظ أن الأمر بالتولي عنهم والإعراض وتركهم للمنتقم اكتنف أسلوب الاستفهام ، وكرر ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وهو تكرار أشد وقعًا وأنكى هولاً من كل حديث ، وفي إطلاق الفعل المكرر : أبصر للتهويل في المبصر وأنه لا يحيط به الوصف والذكر مما يقع بهم من أهوال وهو مناسب للترقي في الوعيد والتهديد[1]، وتحليل آيات الشعراء التي تتوعدهم على كفرهم بالقرآن الكريم لا يبعد كثيرًا عن هذا المرتقى[2] .

متفرقات في الإنكار :

من ذلك ما ورد في خلق آدم عليه السلام وتكبر إبليس عن السجود له مع الملائكة في الملأ الأعلى ولجاجه وجدله وطرده ليحمل رسالة الشر إلى يوم الدين ، ونقتصر على هذه الآيات من سور ثلاث والقصة وردت في سبع سور :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ (الإسراء:٦١-٦٣) .

---

(١) راجع في الآية الكشاف ٣/٣٥٧ والبحر المحيط ٧/٣٨٠.

(٢) راجع فيها الكشاف ٣/١٣٠ .

ومن قصة إبليس في سورة الحجر ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٣٣ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ (الحجر:٣٢-٣٤) .

وفي الأعراف ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ (الأعراف:١٢).

وفي آيات الإسراء وهي من أشد الأساليب امتنع إبليس كبرًا وحسدًا من السجود لآدم معللاً بقولين : الأول : أأسجد لمن خلقت طينًا إنكارًا واستبعادًا وتحقيرًا أي : أأسجد وأنا مخلوق من العنصر العالي وهو النار كما في آية الحجر : ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ لهذا المخلوق من الطين ، ولم يأت بمخلوقيته من نار لتتم المطابقة هنا لأن الأسلوب شديد الإيجاز ، وإبليس فيه طامي الحقد والغضب والتكبر فلعله استعظام هنا واستكبار وادعاء لشهرته ، ثم ليكون الأسلوب نقطة سوداء من غضب وإنكار وتحقير ، ولذا عدل عن ذكر آدم عليه الصلاة والسلام إلى الموصول وصلته الخاصة وهي الخلق من الطين لهذا الغرض ، قوله الثاني : ﴿ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ وقد جاء الاستفهام داخلاً على الفعل وفيه التاء والكاف للمخاطب أرأيتك ... بعد أن عاقبه الله بالطرد واللعن كما تدل عليه الأساليب الأخرى[1]، فقالها نفثة حقد وفحيح كبر وحسد وتوهج غضب شيطاني لافح ، وتأمل هذا التعجب المنكر في «أرأيتك» وقد ذكر الكرماني التعجب[2] في هذا الأسلوب والعلماء على أنه بمعنى أخبرني ، والصياغة والنسق يؤيده ولا تعارض بينهما أي أخبرني عن هذا الذي ... والإشارة والموصول يشيان بعاصف من الاستصغار

---

(١) راجع أبا السعود ١٨٣/٥ .

(٢) راجع البحر ١٢٤/٤ ، والرازي ٤/٢١ .

والاحتقار ، وفي الأسلوب استفهام محذوف قدره الرازي أي لم فضلته عليَّ وأنا خير منه أو أخبرني أهذا الذي كرمت عليَّ ، وحذف حرف الاستفهام في الوجه الثاني لدلالة «رأيتك» عليه[1].

ثم هو التوعد لذرية آدم ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أي لأستأصلنهم بالإغواء من قولهم احتنك الجراد الأرض ما عليها أكلا وهو من الحنك[2]، أو من قولهم حنك الدابة يحنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، ونقل الرازي عن ابن أبي مسلم كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، أي لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها[3]، ويقصد الغاوين منهم بدلالة الاستثناء ، والوجه الثاني قريب من آية النساء ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:١١٩) فإذا فعل كل ذلك فهو متحكم فيهم يقودهم كيف شاء . والرد العالي من جهة الحق تعالى على إبليس ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ الآيات .

وآيات الحجر جاءت في نسق أكثر طولاً وأحداثًا ، وكذلك ما في الأعراف ما منعك ألا تسجد والاستفهام فيهما للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره كما يقول الزمخشري[4]، وافتخاره بأصله وإزراؤه بآدم وأنه خالف أمر ربه قياسًا فاسدًا كما يقول الرازي لما رأى من سجود الفاضل في اعتقاده للمفضول خرج من الصواب ، فقد عارض النص الذي قاله الله بالقياس فكان رجيمًا[5]، ولا نرى رأي الرازي إذ يشتم منه أفضلية إبليس مع أنه لا فضل عنده إذ كان فضل آدم على خلق الله لما ميزه الله به من العلم وسجود الملائكة رمز لسيادته

---

(١) راجع تفسير الرازي ٣٦/٢١ ، ٤ .
(٢) راجع الكشاف ٤٥٦/٢ .
(٣) تفسير الرازي ٤/٢١ .
(٤) الكشاف ٦٨/٢ .
(٥) تفسير الرازي ١٨٢/١٩ .

ولما منحه الله من أسرار عالية . ونلحظ أن أسلوب الأعراف جاء فيها قوله : ألا تسجد وفي الحجر تسجد ولا تأكيد للمنع وتحقيق له اقتضاها الأسلوب ، والقول بأنها صلة كآية الحديد ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ كرأي الزمخشري مما لا نعتد به بلاغة ، والقضية متعددة الجوانب والمهم أن المقام القرآني والسياق إذا اقتضى وجود حرف فما فوقه أدى دورًا في المعنى يضيع بسقوطه ، ولذا تلحظ أن في آيات الأعراف جاءت كلمة «مذءومًا» من ذأم إذا بلغ نهاية الذم ولم تأت في غير هذا الموضع دلالة على أن الأسلوب أو الغضب الإلهي كما يحس القارئ أشد من آيات الحجر وأشد منهما آية ص ﴿ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ (ص:٧٥) وتثنية يدي مع أنه من المتشابه ـ كناية عن كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المستدعى لإجلاله ، فالاستفهام للإنكار وهذا القيد لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ ، والاستفهام الثاني معناه : استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين والهمزة التقرير عند الزمخشري والتقرير والتوبيخ عند أبي حيان وإنكار وتوبيخ عند أبي السعود[1] لأن خلة الكبر عند المخلوق أمر منكر .

وهذه الخطابات كلها من خطابات الإهانة والتحقير ، وعلل الكرماني لوجود لا في الأعراف أنه لما حذف منها ، يا إبليس ، واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا زيادة في النفي وإعلامًا أن المخاطب به إبليس خلافًا للسورتين فإنه صرح فيهما باسمه[2]، وهو لون لطيف من الاجتهاد لاكتشاف أسرار لما قيل بزيادته .

---

(١) راجع الكشاف ٣٨٢/١٣ وقد ترصده ابن المنير في معتقداته وراجع الانتصاف عليه ثم راجع البحر المحيط ٤١٠/٧ وأبا السعود ٢٣٦/٧ .

(٢) راجع أسرار التكرار ص ٧٨ .

ومن أساليب الإنكار :

قول لوط عليه السلام لقومه الفجرة :

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

(الأعراف: ٨٠، ٨١) .

ومن سورة النمل ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل: ٥٤، ٥٥) .

ومن سورة العنكبوت ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (العنكبوت: ٢٨-٢٩) .

وقد علل الكرماني وتبعه الفيروزبادي لوجود إن واللام في آية العنكبوت «إنكم» دون آيتي الأعراف والنمل لموافقة آخر القصة إنا منجوك - إنا منزلون[1] .

فهو من التلاؤم الأسلوبي لأن آيات العنكبوت أشد ، ولذا انفرد فيها الجزاء بالتأكيد ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا ﴾ فاقتضى تكرار التأكيد لمعنى التقريع بالاستفهام الإنكاري وإن ، والاستفهام في الآيات للإنكار التوبيخي وقد صعده إلى الذروة والحال «ما سبقكم» ، «وأنتم تبصرون» ، «من دون النساء» .

كما عطفت آية العنكبوت قطع السبيل وإتيان المنكر عيانًا في النادي وبناء الفعل حالاً تبشيع وتقذير وبيان لمسخ فطرهم المستمرئة للفاحشة إسرافًا وجهلاً ودائمًا يقترن الجهل بالإسراف أو يلتقيان .

---

(١) راجع أسرار التكرار ص ٨٥ ، ٨٦ وبصائر ذوي التمييز ، للفيروزبادي ١/٢١٤ .

أما تنوع هذه الأساليب فإنها تصور مواقف مختلفة للنبي الداعية في جهاده الطويل ذلك الذي انتهى بلون من الانتقام غريب غرابة جرمهم فجعل عالى قريتهم سافلها وأمطرهم حجارة من سجيل تكون طبقة جديدة ليست من جنس الأرض حكمًا بأن تكون أجدائهم من جنس جهنم عزلا لهم عن هذا العالم ثم تهديدًا لأمثالهم .

الإنكار خصائص وملاحظات

سبق أن الإنكار أكثر الأغراض شيوعًا وهو كراهة الشيء والنفرة من وقوعه في أحد الأزمنة ، وأنه مما لا ينبغي أو مما لا يكون ، فكأنه في حكم المجهول ومن هنا فالعلاقة بينه وبين الاستفهام الحقيقي قوية[1] .

وقد قسم إلى قسمين :

القسم الأول : إنكار التوبيخ ، ويكون عن أمر وقع فعلاً ، أو يقع حالاً كأن يكون المخاطب بصدد عمله ، ولا يوبخ على أمر سيحدث في المستقبل إلا إذا كان المخاطب مصممًا عليه بدلالة القرائن ، وهذا معنى قولهم في معنى الإنكار : ما كان ينبغي أن يكون أو لا ينبغي أن يكون .

والقسم الثاني : إنكار التكذيب أو الإبطال ويقع على جميع الأزمنة ، والقسمان في النفي ويختلفان في أن النفي في التوبيخ - متوجه في واقع الأمر - إلى الانبغاء ، ومدخول الهمزة واقع أو كالواقع ، وفي التكذيب يتوجه النفي إلى نفس مدخول الهمزة وإبطاله ، يعني أنه غير واقع[2] كقول موسى عليه السلام للعبد الصالح وقد قتل غلامًا صغيرًا دون سبب ظاهري ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ فهو ينكر قتل هذه النفس ، ويصعد شعوره ويبرره بوصفين للنفس أنها زكية بريئة وأن القتل في غير قصاص ودون سبب

---

(١) راجع حاشية الأنبابي ١٥٣/٣ .

(٢) المرجع ١٥٦/٣ .

معلوم ، ولذا جاءت الجملة الخبرية مؤكدة مقررة ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ ومع الإنكار التعجب ومثله في حادثة السفينة : ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (الكهف:٧١) [١].

ومن إنكار التوبيخ ما تدخل فيه الهمزة على جملة منفية في الواقع إنكاراً ، وأنه ما كان ينبغي أن يترك كقول الله على لسان لوط ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ فهو يوبخهم على مجانبة الرشد ، ومنه كثيراً ما يقع في الفواصل مقرراً لما قبله مصعدا المعنى .. «أفلا تعقلون ـ أفلا تذكرون ـ ألا تتقون» فترك التعقل والتذكر والتقوى يوبخ عليه المكذبون لأنها فضائل عالية ، ولذا كان التوبيخ على تركها والبعد عن الاتصاف بها .

والإنكار التوبيخي كما قلت قد يتوجه إلى حدث حالي أو مستقبل محقق الوقوع قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الأعراف:١٩١) فقد أنكر إشراكهم بأصنام لا تخلق شيئًا ، بل هي ذاتها مخلوقة وعبر بالمضارع ليفيد أن إشراكهم ـ وإن بدأ في المضي ـ إلا أنه ما زال مستمراً وهم موبخون على ذلك .

وقال مؤمن آل فرعون ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر:٢٨) فهو ينكر ويوبخ ، أي أترتكبون الفعلة الشنعاء دون سبب إلا قول الحق الواضح عن ربكم ، والتوبيخ على تصميمهم على القتل كأنه واقع الظهور أماراته وهو قول فرعون ﴿ ذَرُونِيَ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ ولذا قال العلماء في التأويل أي «أتقصدون قتله» لتصحيح الإنكار[٢] . وقال تعالى لليهود والنصاري الذين ادعوا أنهم أحباب الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة:١٨) وهو إنكار عظيم وتبكيت واستدراج إلى الاعتراف بدلائل التوحيد ،

---

(١) راجع فيها الكشاف ٤٩٢/٢ وأبا السعود ٢٣٥/٥ والآلوسي ٣٣٩/١٤ .
(٢) راجع البحر ٤٥٨/٧ والآلوسي ٦٤/٢٤ .

وهو ينكر عليهم قولهم ويوبخهم عليه ، والمنكر والموبخ عليه سابق في السياق : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ والدليل على كذبهم والإنكار عليهم تعذيبهم في الدنيا والآخرة وهو واقع حتمًا[1].

أما الإنكار التكذيبي فقد يدخل على أفعال غير واقعة في الخارج أدعى فعلها ينفيها ويكذبها وينكرها وقد يصحب التكذيب السخرية والتعجب أو التهديد كما في قوله تعالى : ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَٰتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (الصافات:١٥٣،١٥٤) ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق:١٥) والآية الثانية تقيم برهانًا على البعث بالخلق الأول . وقال تعالى ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ (الإسراء:٤٠) فهو تكذيب للإصفاء والاتخاذ جميعًا[2] وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) .

يعني : أنكرهكم على قبول الهداية والدين . ونلزمكم تلك الحجة ، والحال أنكم كارهون» والكلمة أنلزمكموها : تصور جو الإكراه كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ثم إن الاستفهام الإنكاري يوحي بأن إكراه النفوس وقسرها حتى في شئون العقيدة ليس وسيلة مرغوبة ، فالعقل والقلب حرية الاقتناع والتأثر حتى في أخطر قضايا الوجود أعني وحدانية الله تعالى[3] ، وليس معنى هذا إقرار الكافر على كفره والتزلف لديه بل معناه إدلال الإسلام بقوته وأخلاقه وأنه لا يجبر أحدًا حتى على ما ركبت عليه الفطر واستقر في الوجدان

---

(١) راجع شروح التلخيص ٢٦١/٢ وأبا السعود ٢١/٣ .

(٢) راجع في آيتي الإصفاء : عروس الأفراح ٣٠٤/٢ والبرهان للزركشي ٣٢٨/٢ والكشاف ٤٢٤/٣ وأبا السعود ٢٧٤/٧ .

(٣) راجع في الآية : دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٩٠ والكشاف ٢٦٦/٢ والبحر المحيط ٢١٦/٥ والتصوير الفني ص ٧٨ ودلالات التراكيب ص ٢٥٧ .

ونطقت به المخلوقات ترفعًا عن وسائل القهر بل دعوة إلى طهارة النور والحق الأسمى .

ومن إنكار الحاضر والمستقبل قوله تعالى على لسان صالح لقومه ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (الشعراء:١٤٦-١٤٨) أي ما يكون ذلك ولا يكون إذا لم يؤمنوا بالله المنعم ، وعيدا ولفتا إلى النعم الكبرى أثرًا من فضل المنعم الكبير .

المنكر في أساليب الاستفهام

فيما يتعلق بالهمزة يرى عبد القاهر أن المنكر يلي الهمزة فعلاً أو فاعلاً أو متعلقًا ، فإذا قلت أفعلت كان ذلك إنكارًا للفعل وأنه لن يكون ، وليس فيه إشارة إلى الفاعل ، وقولك أأنت ضربت زيدًا فيه معنى أنك أنت خصوصًا لن يكون منك ذلك لأنك لا تقدر عليه أو لأنك لا ترضاه فإذا قلت أأنت تمنعني ، أأنت تأخذ على يدي ، صرت كأنك قلت : إن غيرك الذي يستطيع منعي والأخذ على يدي ولست بذاك ، هذا إذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز ، وقد يكون لأنه لا يختاره ولا يرتضيه ومثاله : أهو يسأل فلانًا : هو أرفع من ذلك ، وقد يكون لصغر قدره وقصر همته كقولك : أهو يرتاح للجميل ؟ هو أقل رغبة في الخير مما تظن ، وجملة الأمر : أن تقديم الاسم يقتضي أنك عمدت بالإنكار إلى ذات من قبيل أنه يفعل أو قال هو أني أفعل ، ولا يكون هذا المعنى إذا بدأت بالفعل فقلت أتفعل[1].

وخلاصة هذا التحليل : أن الفعل يقدم إذا أريد إنكاره وأن الاسم يقدم إذا قصد الإنكار على الفاعل أي إنكار فعله للحدث ، وإذا كان الخبر فعليًا مع تقديم الاسم بعد همزة الإنكار قد يفيد القصر بمعنى نفي الفعل عنه الفاعل وإثباته لغيره ، وقد يكون تقديم الاسم لأغراض أخرى مدحًا أو ذمًا سوى القصر .

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٨٩ ، ٩٠ بتصرف .

وهناك نوع من الإنكار يتوصل فيه إلى إنكار الفعل بإنكار متعلقاته التي ليست له معمولات في الخارج سواها كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس:٥٩) والإنكار يتناول الفعل (أذن) من أساسه وينفيه ويوبخ عليه ، وقدم الاسم لانحصار الفعل فيه ، إذ ليس هناك إلا مصدر واحد يملك التحريم والتحليل هو الله تعالى ، فهو إنكار للفعل بطريق برهاني ، والمتقدم هنا الفاعل ومثله في تقديم المتعلق وإن كان مفعولاً قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ بتقديم الاسم استدراجًا في الحجة وأبلغية وتصويرًا ، ولأن التحريم ـ كما يقول السكاكي ـ يستلزم إثبات محله ، لا محالة ، فإذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم ، على وجه برهاني كأنه وضع من سلم أن ذلك قد كان ثم طالبه ببيان محله فهو نفي بطريق الكناية[1] . فكأن الهمزة استعملت استعمال الكنايات ـ كما يقول المغربي ـ لأنها موضوعة لإنكار ما يليلها[2].

ويرى بعضهم أن قاعدة الإمام عبد القاهر غير مسلم بها ، إذ الجملة إذا كانت فعلية دخل عليها الاستفهام توجه الإنكار إلى الفعل إذا كان متقدمًا ، أو إلى الفعل متعلقًا بالفاعل أو المفعول إذا كان أحدهما متقدمًا نحو : ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ ، ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ والآية الأخيرة على رأي عبد القاهر تفيد أن الفعل ثابت وأن النزاع في الفاعل فهو إنكار للفاعل ، وهو غير صواب لأن الفعل وهو إكراه الناس غير واقع من أحد ، والمراد إنكار الفعل متعلقًا بالفاعل الذي قدم لخصوصيته وأهميته وتوجه العتاب إليه ﷺ رحمة به[3].

---

(١) راجع الدلائل ص ٨٨ والكشاف ٢٤٢/٢ ومفتاح العلوم للسكاكي ص ١٥٢ والشهاب ١٣١/٤ .

(٢) راجع مواهب الفتاح لابن يعقوب ، وحاشية الدسوقي ٢٩٩/٢ .

(٣) راجع حاشية الشهاب ٦٢/٥ .

فإذا كانت الجملة اسمية جامدة توجه الإنكار إلى النسبة كقوله تعالى ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ والنسبة هنا كانت مناط توبيخ كما كانت نسبة الإناث إليه تعالى منبع توبيخ فهو توبيخ مبني على توبيخ كما ذكر أبو السعود[1].

وقد ينصب الإنكار على مفعول الفعل المقدم تحديدًا وتركيزًا للإنكار، كدخول الهمزة على إذا في آيات إنكار البعث السابقة، وقد يتأدى الإنكار بأداة أخرى للتصور غير الهمزة وتكون دلالتها محط الإنكار كقوله تعالى: «ما تعبدون ـ ماذا تعبدون ـ فأين تذهبون ـ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ـ أين المفر ـ متى هذا الوعد ـ كيف تكفرون بالله ـ ما لكم كيف تحكمون ـ فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون حديثًا ـ[2] لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ـ من يحيي العظام وهي رميم» وفي هذه الأساليب ونظائرها إنكار بدليل أو إنكار بطريق الكناية، فإنكار فاعل الفعل أو مفعوله أو زمانه أو مكانه أو حاله أو سببه إنكار للفعل من باب أولى ضرورة أن لكل فعل هذه الملابسات، وقد تقدم أن عبد القاهر نبه إلى أن تقديم المفعول أو الفاعل الذي ليس للفعل سواه انحصارًا فيه بعد همزة الإنكار أدل على الإنكار من تقديم الفعل لدعمه بالكناية المصورة الدالة، ولعل نص الإمام على الفاعل أو المفعول إنما هو للتمثيل لانحصار الفعل في أحد متعلقاته التي تتجاوز الفاعلية والمفعولية إلى ملابساته المعروفة.

وحتى مع الجدل في تعميم ما قصد عبد القاهر نقول إنه حكم أغلبي، وتكثر هذه الأحكام في الأساليب الأدبية المبنية على قدر من التذوق الذاتي يختلف باختلاف النقاد إذا لم تصادر باستقصاء أسلوبي حاسم.

تبقى نقطة أخيرة نبه إليها الإمام أبو حيان عند تأويله قوله تعالى ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ مبينًا أن هذا النوع من الاستفهام

---

(١) راجع تفسير أبي السعود ١٥٨/٨.

(٢) الآية ٧٨ النساء وقد سبقت الآيات في التحليلات.

يتضمن إنكار ما استفهم عن علته ، وأنه ينبغي أن يوجد مقابله ، فإذا قيل مالك قائمًا فهو إنكار للقيام ويتضمن أن يوجد مقابله ، وإذا قيل مالك لا تقوم فهو إنكار لترك القيام ويتضمن أن يوجد مقابله[1] وكأنه توبيخ على ترك هذا المقابل ، كما ننبه إلى أن تنوع الأدوات واختلاف الصياغات تحكمه المقامات التي تقتضي لونًا خاصًا من المعاني ودرجة معينة من قوة التعبير والتصوير لا تزيد عن المراد أو تقل ، وهذا داخل في التلاؤم بمعناه الوسيع في الأساليب القرآنية .

* * *

(١) راجع البحر المحيط ٣/٣٠٠ .

التقـــرير

ويلي الإنكار كثـرة . ويقـع في مقابلـه[1] ولـه معنيـان : التحقيـق والتثبيـت ، والثـاني : حمـل المخاطـب علـى الإقـرار بمـا يعـرف . وإلجـاؤه إليـه وطلـب اعترافه[2] .

وقد جاء كثيرًا في القرآن الكريم في أغراض متعـددة ، ولـيس التقريـر ـ في الواقع ـ معنى نهائيًا كالإنكـار بـل إن التقريـر بنوعيـه إنمـا يكـون لغـرض مـن الأغراض كما قال اليعقوبي[3] .

ولكنـه رحـمـه الله ـ ذكـر أغراضًا خفيـفـة الـوزن كالتلذذ ونحـوه ، قال عبد القاهر : في الآية : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ وفي الآية مع التقرير بفعل قد كان، الإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه ،[4] ويؤخذ من التقرير أن المتكلم وهو المقرر عالم ويقصد تقرير المخاطب[5] والتقرير معنى التحقيق يئول إلى الخبر ففي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : قد شرحنا ، ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ قد أتى[6].

---

(١) راجع مقاييس اللغة لابن فاس ٨/٦ ومفردات الراغب ص ٣٩٨ .

(٢) راجع شروح التلخيص ٣٠٧/٢ وتقرير الإنبابي ١٥٤/٣ .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب ٢٩٤/٢ .

(٤) الدلائل ص ٨٧ .

(٥) حاشية الدسوقي ٢٩٤/٢ .

(٦) راجع عروس الأفراح ٣٠٧/٢ .

أغراض قرآنية في التقرير

وحدانية الذات والصفات

وفي هذا الغرض العالي جاءت أساليب كثيرة جدًّا تقرر بالواحد الأحد وصفاته الحسنى وآثار صفاته التي تجلت فيما خلق الله دلائل على وحدانيته وتفرده بكامل الصفات وآثار صفاته التي تجلت فيما خلق، ثم توجيها إلى هذا العالم المحيط بنا نستجلي أسراره، ونتملى بآيات الله فيه اعتبارًا ورقيًّا بالطاقات الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس:٣١) وقد جاءت بعد مشهد حسير يوم القيامة يبكت فيه المشركون «مكانكم أنتم وشركاؤكم» لإفادة التقرير والاحتجاج على حقيقة التوحيد وبطلان ما هم عليه من الإشراك في الدنيا، وليس هنا فصل زمني أو أسلوبي بين أحداث الآخرة والأولى، فقد توالت أربعة استفهامات مقررة بالفاعل دالة على فساد مذاهبهم موبخة لهم، وقد تدرجت من السؤال عن الرزاق من مصادر أكبر من الإنسان مسخرة لقدرة القدير، وبالرزق تكون الحياة وعن واهب الحس سمعا وبصرا يملكه وإن شاء أخذه، ثم تدرج إلى ظاهرة الموت والحياة تكون إحداهما منبعًا للأخرى بقهر الله، ثم إلى من يدبر شئون الحياة والأحياء والأكوان إنه تقرير وتوبيخ وجهه لهم بما لا يمكنهم إلا الاعتراف به «فسيقولون الله نعم فليس هناك سواه».

ثم يأتي الاستفهام الخامس ـ وقد ساقت إليه الأساليب ـ منكرا موبخا على عدم التقوى إيماء بأن النظر في هذه الأمور يورث في القلب تقوى وروعة وإجلالاً.

وتتابع الأساليب في جلال خارق ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ كيف يعرضون وإلى أين يتوجهون وآيات الله محيطة بهم محاصرة لهم بل هم آية من آياته .. إنه تصعيد للمعنى بقصرين متواليين واسمين لله بعد اسم الجلالة واستفهامين أولهما تداخل مع القصر الثاني لتختم الآية باستفهام استبعادي تعجيبي من حالهم الغريبة كناية بليغة عن إنكار الحدث ذاته وهو الصرف والكفر من باب أولى . ثم تتوالى الآيات المقررة الملزمة المزلزلة إفحامًا بعد إفحام .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ الآية .

والآيتان حجاج على حقيقة التوحيد والبعث معا ، وقد وضعت إعادة الخلق أو البعث موضع المقرر الذي يعد من يدفعه مكابرًا لظهور برهانها دقة في الأداء والإلزام ، ثم أمر النبي ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب وهو الحق يعرفونه حتمًا حتى لا يدعهم لمكابرتهم ، والأسلوب البرهاني هنا عجيب معجز فقد بدأ معددًا ما يعترفون به ، ولما كان هذا موصلاً إلى إقرار الوحدانية والبعث حتمًا ـ وهم في مكابرة منه ـ لم يطلب منهم إقرارًا لفظيًا كالأول بل جاء الجواب : الحق على لسان النبي مأمورًا به ليدع لعقولهم الكليلة فرصة التأمل وصولاً إلى الهدى ، ولذا جاء الاستفهام « فأنى تؤفكون » وهو أقوى من الصرف الأول لتعدد الأدلة ، ثم ختمت الآيات باستفهامين عن شي واحد هو حالهم الشاذة وحال حكمهم النافر ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس:٣١-٣٥)[1].

---

(١) راجع في آيات يونس ٣١-٣٥ الكشاف ٢/٢٣٦ والبحر المحيط ٥/١٥٥ ، ١٥٦ وأبا السعود ٤/١٤١-١٤٣ .

ومن الظواهر المثيرة في الاستفهام القرآني أنه حين يحمي الأسلوب ويرتعش هولا وجلالا وتتلاحق الاستفهامات أو حين يوجه المقام إلى قهر إلهي غلاب تأتي أداتا استفهام عن شيء واحد إنكارًا أو تعجيبًا أو تعجيبًا وتهديدًا كالعبارة ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس:٣٥ ، الصافات:١٥٤ ، القلم:٣٦) .

وقد جاءت ثلاث مرات في القرآن في أساليب شديدة التركيز والجلال في يونس والصافات والقلم والأسلوب ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ (إبراهيم:٢٤) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (الفجر:٦) ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (الفيل:١) في خمس آيات[1].

وقد جاء في سبأ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ:٢٤) وقد جاءت الآية بعد تحد للمشركين يوم الدين أن يدعوا الذين يزعمون من دون الله ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والاستفهام تقرير بأن الرازق هو الله وتبكيت ، والجواب الملزم لفظ الجلالة المفرد «الله» سواء جاء على ألسنتهم أم أمر النبي أن يقوله فلا خلاف عليه رازقًا خالقًا فلم لا يتخذ إلهًا وهذا موطن العجب في حال الكافرين .

يقرون مرة ويتلعثمون أخرى عنادًا وضرارًا وخوفًا من إلزام الحجة ، وفي إلجامهم هنا وهو صورة من صور الإقرار أمر الرسول الكريم أن يبلغ ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو مثل ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ مما يسمى بالكلام المنصف وفيه دلالة واضحة على المهتدي والضال بعدما تقدم من التقرير البليغ ، قال في الكشاف «ولكن

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٢٨٢ .

التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا» وهو يعني بالتورية هذا الإبهام الذي يبعث المشركين على الموازنة بين حالهم وما هم فيه من رذائل موبقة أساسها الإشراك وبين حال النبي عليه السلام والمؤمنين في أخلاقهم السامية وطهارتهم القلبية التي منبعها التوحيد[1] .

وننبه هنا إلى شيء مهم :

هو أن في القرآن الكريم آلاف الآيات المباركات معارض لأسماء الله الحسنى وآثار صفاته فيما خلق الله وذرأ مما يعلم الناس ويدركونه ـ مكانًا وزمانًا ـ في الأحياء والأكوان بل ومما هو سابق على الزمان أو خفي عن الإدراك .

وفيما يحسه الناس رسمت الآيات لوحات مثيرة فيها التناسق التام والإيقاع المذهل واستثمار الطاقات البشرية تأثرًا وانفعالاً ، واقرأ سورة الأنعام والرعد ويونس والنمل وسبأ ويس والنحل وغيرها ، ويمكن مراجعة مادة هذه الأفعال ، الخلق والجعل والإبداع والإنشاء والتصوير والذرء في المعجم المفهرس لتجد حشدًا من الاستعمالات[2] .

وإذا كانت السياقات الإخبارية وهي الأكثر ترسم صور الجمال والجلال وتثير التأمل والاعتبار والرضا والخشوع ، فإن سياقات التقرير الاستفهامي فيها سطوة القاهر ورحمة القادر ورأفة المغيث وإرادة الواحد الأحد ، ولذا فأكثره كالرد على المشركين في حجج تهز القلوب والعقول وتنتزع الحقائق الغلابة

---

(١) راجع الكشاف ٣/٢٨٨ ، ٢٨٩ وأبا السعود ٧/١٣٢ والإيضاح للقزويني ص ٥٣٢ .

(٢) راجع المعجم المفهرس على ترتيب الأفعال : الجعل ص ١٧٠-١٧٥ ، الخلق ص٢٤١-٤٥ ، الإبداع ص ١١٥ ، الإنشاء ص ٧٠ ، التصوير ص ٤١٦ ، والذرء : ص ٢٦٩ .

يعترف بها اللسان بعد القلب أحيانًا أو يغشيها الكفر بستار من العناد والمكابرة حينًا ، ثم إن المقامات التي اقتضت التقرير - كما سبق - مقامات خاصة فيها قوة الإقرار وفورة الحق ، ولذا تعانق الإيجاز مع هذه الأساليب التي فاضت بمعان ثانوية مديدة أو معان بارقة عتيدة كالإنكار والتوبيخ .

قال تعالى من سورة المؤمنون ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٨-٨٩) .

ونلحظ في هذا السياق ما يلي :

١- هنا مستويان من الأساليب في درجة القوة والإثارة :

الأول : يثبت إنشاء السمع والبصر والأفئدة لله تعالى على سبيل القصر ، وكذلك ذرؤهم وبثهم ونشرهم في الأرض ثم جمعهم للحشر والحساب اقتداراً في الفعل وضده ، وكذلك قصر الإحياء والإماتة عليه سبحانه ، والتحكم في الليل والنهار أثراً لتدبيره في الأرض والشمس ، وهذا كله آثار لقدرته تعالى ، ولما كان خلق الحواس والأفئدة بيد الله : من الأمور الواضحات والنعم السابغات أنكر عليهم عدم الشكر به الإيمان «أفلا تشكرون» ولما كانت ظواهر الحياة والموت فيما يقبلهما من الكائنات واختلاف الليل والنهار مما

يحتاج تأملاً وتفكراً أنكر عليهم عدم العقل والأسلوب ببسط هذه الدلائل الإلهية على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاء به القرآن .

أما الأسلوب الثاني : فقد جاء بعد إنكارهم واستبعادهم وجدلهم الأخرق في البعث وأنه أساطير الأولين ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ لَقَدْ وُعِدْنَا ﴾ الآية ، بأسلوبي استفهام مؤكد للإنكار وسبقه تعجيب القرآن من قولهم الغريب كالأمم التي سبقتهم ، وتلحظ تكرار مادة القول دلالة على أنه مجرد ألفاظ لا حقيقة لها كما أنه زعم لم يمر على قلوبهم ﴿ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ ﴾ فهو لون متدن من القول ولذا كانت الردود بالأمر بقل أمارة الحق لا الباطل ، وتوهجت الأساليب بالاستفهامات الغاضبة المقررة الملزمة المحاصرة بمظاهر القدرة الدافعة إلى اعترافاتهم رغماً عنهم ، وهذا هو المستوى الثاني من الأساليب : إيقاع عنيف ونبرة جهيرة غاضبة ومعان هائلة وسطوة مسيطرة وتحد قاهر .

وإيجاز يبقى من العبارة ما يجعله نواة إشعاع : «لمن الأرض ومن فيها» بهذا الاستفهام الهائل المدوي المحيط بما يحار العقل في التعرف من مخلوقات في هذا الكوكب الطائر في الفضاء «إن كنتم تعلمون» تجهيل لهم وما أفظع الكافر الألد اللجوج حين يتربع الجهل في عقله وقلبه . وجواب الشرط محذوف هو مثل الاستفهام المقرر فكأن في الجملة استفهامين ظاهراً وباطناً ، ويذكر جوابهم «سيقولون لله» فيتبعه بفاء الفصيحة واستفهام منكر للبعد عن التذكر بالفعل «قل» ، وبدأ بالأرض لأنها ألصق بهم وفيها وبها حياتهم ثم ترقى إلى أفق آخر مهول لا تحوم حوله العقول ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

السموات السبع والعرش العظيم المحيط بالأكوان مخلوقات هائلة مربوبة لملك جبار وإجابتهم بالسين المؤكدة : لله ويردفه السؤال المنكر الموبخ «فأنى تتقون» ويأتي الاستفهام المقرر الأخير بما لله من سلطان وإحاطة وتحكم في

كل شيء وعزة وقدرة وقهر وإنجادة وغيث : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وحين يكون الأسلوب بالغ الدقة التي تفوت طاقات الإنسان يأتي الأسلوب المتشابه المختص بعالم الألوهية لا يقترب من حقيقته أو حماه عقل أو خيال أو وهم ، بيد أن القلب يدرك وقعه وهو له وإيحاءه وإيماءه وهو السيطرة الغالبة والقيومية على ملكوت كل شيء لا يشركه في ذلك أحد ، ثم تأمل المعطوف ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ إنه مثل منتزع من عالم الملوك دلالة المنعة والعزة فما بالك بملك الملوك .

ويردفه بالاستفهام المنكر الموبخ «فأنى تسحرون : أي تخدعون» والسؤال عن هيئة السحر والخديعة إنكار للفعل من أساسه على طريق الكناية ، والمراد بالسحر لازمة أو هو كناية عن التخليط ووضع الأمر في غير موضعه ، والانخداع والرق لأوهام زائفة ، وتأمل تدرج الفاصلة في ترقيها مع درجات الشدة والإنكار في الأساليب بدءًا بإنكار التذكر ثم التقوى ، وفيها وعيد شديد بمعنى أفلا تخافون فهو تخويف من عدم الخوف ثم إنكار هذا الخلط والانخداع ، والمتعلق في الأفعال محذوف لإفادة العموم مما يشير إليه التذكر والتقوى والسحر من الأساليب ، وإذا كانت مادة القول جاءت بصيغة الماضي حكاية عن مشركي العرب ثلاث مرات ، فقد جاءت بالأمر المهيمن النافذ ست مرات على لسان المصطفى الكريم تحديًا وإلزامًا وجيها لهم بهذه الأساليب الجليلة الهائلة ، وتأمل المقطع المغلق «قل» لتحس أنه مقطع من زلزلة يوم القيامة ، ثم إن الأسئلة الثلاثة جاءت أجوبتها المقرر بها لفظة واحدة «لله» فهو الجواب الوحيد باللفظ الفريد وباللام الداخلة عليه بعد حذف المبتدأ قصدًا إلى تفرده بالوجود الحق والملكية الحقة ، وقرأ عاصم وغيره «الله» بالرفع إفرادًا له فجلاله يملأ القلوب ويحيط بالعالم ، ومع أن المعنى متقارب نجد أن التفخيم في قراءة عاصم بالبدء بالفتح ملائم في إيقاعه للأساليب[1].

---

(١) راجع الكشاف ٣/٤٠ والبحر المحيط ٦/٤١٨ .

ومن أساليب التقرير في سورة الأنعام قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام:٩١).

والذي قال هذه المقولة : ما أنزل الله على بشر من شيء : هو الحبر السمين مالك بن الصيف من أحبار اليهود ، وحينما يكذبهم القرآن يأتي بما يلزمهم يلقمهم الحجر في شكل من أشكال القياس البرهاني كما نقل أبو حيان في هذه الآية عن الرازي والغزالي[1]، وقريب من هذه الآية وإن كان الأسلوب أمرًا ونهيًا ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١) وأصرح منها ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩١) والبرهان يكمن في الدعوى أي آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة لأن الله أنزله كما أنزل التوراة ، فعدل عن صريح لفظ القرآن إلى كتابته إخراجًا للدعوى بدليلها[2].

والواضح من سبب نزول الآية أن مالك بن الصيف لم يضبط لسانه ، في لحظة غضب ، فأظهر ما في باطنه من الكفر وذلك فيما روى ابن عباس أن مالك بن الصيف كان من أحبار اليهود ورؤسائهم وكان رجلاً سمينًا فدخل على رسول الله ﷺ فقال له الرسول « أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين وأنت الحبر السمين وقد سمنت من

---

(١) راجع البحر المحيط ١٧٧/٤ .

(٢) راجع في تحليل هذه الآية النبأ العظيم ص ١٢٠-١٢٥ .

الأشياء التي تطعمك اليهود» فضحك القوم فغضب مالك فقال : «ما أنزل الله على بشر من شيء» فعزلته يهود عن رياستهم[1] وقال الرازي إن في الآية بحثًا صعبًا لأن اليهود ما كانوا ينكرون نزول التوراة . ورد ردًا ضعيفًا : بأن القرآن نزل بهذه الآية ردًا على مالك بن الصيف الذي قال هذا القول في وقت خاص دون سائر الأوقات . ويضعفه أن القرآن نسب القول إليهم جميعًا «قالوا» وهذا ما جعل الطبري يرجح أنها في كفار المشركين إذ لم يسبق لليهود ذكر في السورة وفضل قراءة «يجعلونه قراطيس» على الغائب ، لكن صحت قراءته تجعلونه بالخطاب .

والرأي : أن القائل هم اليهود كما في رواية عن ابن عباس ومحمد بن كعب قالوا ذلك عنادًا ومبالغة في إنكار الوحي والرسالة المحمدية لا لأن إنكار القرآن المنزل يستلزم إنكار غيره ، فالكتب في النزول سواء بل حملهم اللجاج والمكابرة في جدلهم مع الرسول ﷺ إلى إنكار الوحي جملة ، وهذا يفسر نسبة هذا القول «ما أنزل الله على بشر من شيء إلى غير واحد ولذا كان الإفحام وإلقام الحجر والتبكيت وإلزامهم بما لا يدفع على لسان النبي ﷺ مأمورًا بتبليغه ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وقد طال السؤال المقرر علاجًا للإنكار من كل جوانبه ودفعًا إلى الإيمان لو كانوا منصفين : وذلك أن البرهان الدامغ جاء على لسان النبي تصديقًا له ، ثم إنه وصف الكتاب بجملة أوصاف : أنه جاء به موسى وأنه نور وهدى للناس وهذا داع إلى تصديق النبي ، لأن في التوراة أوصافه الشريفة وهي تدعو إلى الصدق والحق لا الكذب والباطل والعناد الذي يسري في عروقهم ، تبكيتًا لهم ، ثم أدرج في السؤال زيادة توبيخ لهم وتعيير بموقفهم تجاه التوراة على العموم كلون من ألوان التحريف ، فهم يفرقونها قراطيس يسهل فيها الإخفاء إن كانت في غير صالحهم كما كتموا صفة

---

(١) راجع تفسير الرازي ١٣/٧٥ .

رسول الله وكثيراً من أحكام التوراة مع أنها مأخذ علومهم ومعارفهم ، فالجملة المعطوفة ترقى بالتشنيع درجات ثم يؤمر النبي الكريم أن يجيب عنهم لتعين الجواب الصادم لهم وإيذانًا بإفحامهم فلا يحيرون جوابًا ، ثم استعلاء عليهم وإعراض عنهم فهم في صغار دائم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ والآية تسمهم بميسم أبدي فهم في باطل وعلى باطل يعيشون[1].

وحينما يكون السؤال من قبل الحق سبحانه سواء كان مباشراً أم أمر النبي ﷺ بتبليغه على جهة التقرير والتوبيخ ، فقد يكون الجواب محكيًا عنهم كالآية من لقمان ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ومثلها آيتا العنكبوت ٦١، ٦٣ وآية الزمر ٣٨ وآيتا الزخرف ٩ وفيها : ﴿ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والآية ٨٧ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ وقد جاء السؤال خبراً ثم تعيينًا بالاستفهام في مقامات مقررة منكرة موجهة للمشركين . وقد يؤمر النبي عليه السلام بالإجابة حين يشتد الإنكار ويقوى الإلزام فلا يحيرون جوابًا ، وإنما يكون هذا في مقامات شديدة ينفرد فيه الأسلوب القرآني بالسطوة والنبرة العالية وتأمل آيات الرعد ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد:١٦) .

وتأمل نسج الأساليب بدأ باستفهام تقريري موبخ أعقبه استفهام خلص للإنكار والتوبيخ عليهم اتخاذهم العبادة أولياء عجزة ، تبعه استفهام تقريري

---

(١) راجع في الآية : الطبري ١٧٧/٧ وعليه النيسابوري ١٨٨/٧ والكشاف ٣٥/٢ والرازي ٧٤/١٣ وعنه نقل أبو حيان كثيراً في البحر المحيط ١٧٧/٤ وراجع أبا السعود ١٦١/٣ .

مويخ في صورة مثل محسوس لنفي المساواة بين المؤمن والكافر الأعمى ومثله بعده من الظلمات والنور المؤمن ، أعقبه استفهام بأم يصعد الإنكار وفي قوله خلقوا كخلقه في سياق الإنكار تهكم بهم وإهمال لهم لانصراف الخطاب عنهم لأن غير الله لا يخلق شيئًا ألبتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله تعالى وتقدس عن التشبيه ، ولا بطريق الانحطاط والقصور ، فقد جاء قوله كخلقه ، تهكمًا يزيد الإنكار تأكيدًا[1]، ثم إننا نحس مع الإنكار والتهكم التعظيم للخالق والإشادة بخلقه ، والإدلال بآثار القدرة والعلم فيما خلق ، ولذا أتبع الجواب أعني أتبع لفظ الجلالة وهو الجواب عادة بأسماء الخالق الواحد القهار على سبيل القصر أي لا سواه . ثم قد يتبع هذا الجواب باستفهام آخر تصدر الآية المتقدمة وكآيات المؤمنون السابقة وآيات يونس أيضًا ، ولا شك أن هذا من سمة القوة في الأساليب بل هي أقوى أساليب التقرير مع الإنكار على الإطلاق ، يليها ما جاء فيه أمر بعد الجواب كآية اليهود في الأنعام وقد يتبعها أسلوب خبري جزل نافذ تلاؤمًا مع جو الاستفهام كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام:١٩) وآية الأنعام الأخرى ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام:٦٣،٦٤) .

والآية تقدم مشهدًا من آثار القدرة والرحمة والعلم بعد القهر والهيمنة والجبروت في استفهام تقرير ملزم وإنكار أن يوجد من ينجي من شدائد الظلمات المهلكة في البر والبحر سواه مع توبيخ وتوقيف على سوء معتقدهم ، وأمر النبي ﷺ بالمسابقة إلى الجواب ليكون أسبق إلى الخير وإلى الاعتراف

---

(١) راجع الانتصاف على الكشاف ٢/٣٥٥ .

بالحق ، ثم لأنه متيقن ولبناء قوله ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عليه ما فيه من استبعاد لشركهم بعد هذه النعم[1].

وننبه إلى أن السؤال بمن بعده ما هو خاص بالله تعالى جاء في آيات متكاثرة اكتفينا بتحليل ما قدمنا ، ويرى الأستاذ عبد العليم فودة أن عديدًا من هذه الأساليب يفيد التعظيم مع التقرير ، والواقع أن هذا التعظيم مفاد أكثر من الإجابة المقرر بها ولذا نال الرسول الكريم شرف النطق بها مأمورًا بقولها كما تلحظ في السياقات المتوترة كآيات الرعد وما إليها أن هناك خطابًا للمشركين داخل خطاب إلهي للنبي الكريم ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم ﴾ مثلا ، وفيه مع تكريم المبلغ عن الله تعالى الإهانة لمن أشرك به ، وقد كثر هذا بل قد تبلغ الإهانة حدًا يصرف عنهم الخطاب النبوي كالجزء الأخير من آية الرعد ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ على أن توجيه الخطاب على لسان النبي إليهم وحصارهم بالأسئلة الملجمة حتى إذا شغلهم بالقضايا الجليلة لقن النبي الإجابة وصرفوا عن طلبها من الناحية النفسية أدعى للاهتمام وتحريك هامد الفكر وجامد القلب وخامد الوجدان .

لون ثان من التقرير

وهذا لون آخر من التقرير الذي يفاد بدءًا ليترتب عليه الإنكار ، ونجد الأداء القوي والنكير الصارخ ، والوقع النافذ ، حين يعقد القرآن موازنات صورية بين الله تعالى بجلاله وكماله وأسمائه الحسنى وبين المعدوم الجامد الشائه من الآلهة المزعومة ، لا لذات الموازنة بل لتفجير السخرية والتعجيب من قوم همدت فيهم نوازع العقل إلى الأسمى ، تحريكًا لهذا الفكر الآسن . وقد يأتي ذلك أثر فيض جليل متوال من آثار قدرته وعلمه وصفاته ، أو يأتي معه في سياق واحد يصعد الإنكار مدى بعيدًا بعيدًا ، ومن الشواهد الفارعة قول الله

---

(١) راجع في الآية الكشاف ٢/٢٥ والبحر المحيط ٤/١٥٠ وأبا السعود ٣/١٤٥ .

تعالى أثر تدمير الله لقوم لوط ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل:٥٩-٦٤) .

ونلحظ في هذه الآيات :

أولاً : أمر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يشكره على ما خصه به وأكرم أمته بسببه فآمنهم من عذاب الاستئصال الذي أتى الأمم السابقة ، والاستفهام الأول عود على ما ذكرته السياقات السابقة من قدرة الله وتدبيره وقهره أي آلله الذي ذكرت شئونه العظيمة خير أم أصنامهم، وفيه تبكيت للمشركين، وتهكم بحالهم وتسفيه لآرائهم، ذلك أنه ليس في الأصنام شائبة خير حتى تعقد الموازنة الصورية فأم متصلة : أي : أيهما خير ، استدراجًا وتعريضًا ولذا انتقل إلى التصريح عقب ذكر آياته ونعمه مكررًا أثر كل آية أإله مع الله ؟ فهو انتقال من نفي الخيرية إلى نفي الوجود بالكلية أعني نفي الألوهية عن أصنامهم على الطريقة الكنائية البرهانية[1].

---

(١) راجع الكشاف ١٥٤/٣ والرازي ٢٠٥/٢٤ وأبا السعود ٢٩٤/٦ .

وأفعل التفضيل «خير» هنا جاء في أساليب أخرى عقدت فيه الموازنة صوريًا بين الله تعالى ثم الأصنام أو بين المؤمنين والكافرين، ولا خير في الكفر أو حتى بين كفار قريش وكفار الأمم كقوله أهم خير أم قوم تبع ... كما سيأتي ..

وأفعل التفضيل من المحقق أنه لا شركة فيه وإنما يذكر استدراجًا على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على خطأ فادح يرتكبه فهو كما قال أبو حيان: إلزام بالإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر[1]، وليس كما ذكر الأستاذ فودة من أن هذا مفاضلة بين شيئين لا يخفى أفضلهما[2]، إذ أصل الوصف وهو الخيرية، ليس موجودًا في الأصنام حتى يكون هناك تفاضل، ونضيف أيضًا أن هذا اللون من التعبير الملزم المتهكم ليس محصورًا في الخيرية بل يتجاوز ذلك إلى شر وأعلم ونحوها مما عقدت فيه الموازنة بين من تحقق فيه الوصف وبين فاقده تمامًا مدحًا أو قدحًا.

ثانيًا: تناولت الآيات مجموعة من النعم بدأت بخلق السموات والأرض، وإنزال الماء وإنبات الحدائق ذات البهجة اعتبارًا وحثًا على التأمل والتنعم بالجمال وهذا معنى: «الحدائق ذات البهجة» فاكهة وغذاء وإمتاعًا للحواس وتحليقًا في عالم الجمال، ولذا تلحظ سر الالتفات: فأنبتنا، ثم لبيان أن الأسباب القريبة كالإنسان لا تغنى غناء بدون مسبب الأسباب أو خالقها وفاعلها، وقد بدأت الآية باستفهام التقرير بالفاعل وفيه توبيخ لهم تدرجًا إلى الإنكار الخالص لأي شريك لله تعالى «أإله مع الله» مع هذا الطباق بين المعدوم والخالق الجليل والمعية والطباق يجعلان من الجملة نقطة إحالة وتعجيب وتناقض مثير في أسلوب تفكيرهم.

---

(١) البحر المحيط ٨٨/٧.

(٢) أساليب الاستفهام ص ٢٢٨.

وفي الآية التالية ذكر ما يخص الأرض من أن جعلها قرارًا وجعل خلالهما أنهارًا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، وهي أربع نعم متوالية صدرت بالفعل « جعل » وهو فعل من أفعال التصوير ليتملى الخيال والعقل هذه النعمة وأثرها ، ثم ختمها بما يعد إعجازًا في عالم الخلق ظاهرًا وهو هذا الحاجر بين الماء الملح والماء العذب وهو البرزخ في آية الرحمن لا لأن لكل ماء منهما مستوى خاصًّا ، فمستوى البحار لا تتغير عكس الأنهار ولا للفصل الحسي بينهما من جبال وأراض حتى لا يفسد العذب بالاختلاط كما ذكر كثير من العلماء ، بل لأن لكل ماء كثافة معينة وحتى لو اندفع ماء النهر في البحر لكون تيارًا واتجاهًا خاصًّا ، وهذه ظاهرة موجودة في بعض الأنهار ركز عليها علماء الطبيعة . وقد حاول الرازي أن يؤولهما أعني البحرين بالمؤمن والكافر[1] وهو بعيد جدًّا لمنافاته للسياق .

وفي الآية الثالثة نبه على حاجة الخلق إليه وقت الاضطرار والتجائهم إلى رحابه وفك كربهم وكشف السوء عنهم نعمة من القدير الرحيم .

وفي الآية الرابعة ذكر احتياجًا خاصًّا للخلق في أوقات خاصة وهو هداية المسافرين بما نصب من آيات ولطف في القضاء وكذلك إرسال الرياح بالخير والغيث رحمة من عنده بمن خلق وما خلق .

وتأمل الآية الخامسة بعد هذه الدلائل والنعم الباهرات والآثار الواضحات المبينات لعلمه وقدرته ذكر ما يعد نتيجة واضحة وهو البعث نعمة يلقى فيها كل إنسان جزاءه استقامة للعدل والحق وسائر القيم الجليلة ، وقد اكتنف البعث آيتان : بدء الخلق وهم به مقرون ورزقه إياهم من السماء والأرض وهم به معترفون دلالة على صدق البعث بدليل الخلق الأول والرزق العام ، وقد جاءا في معرض استفهامين للتقرير والإنكار والتأنيب ورفض ما سواه نفيًا لماهيته

---

(١) راجع الرازي ٢٤/٢٠٨ .

ووجوده على طريق الكناية الدالة . وقد رأيت كيف توالت الاستفهامات بإيقاع متوازن يبدأ بالتقرير وبالفاعل الحق لبعض الآلاء التي لا تنكر وهي آلاء متوالية يرتفع معها نبض الأسلوب ودرجة القوة وإثارة الانفعال ليصل في تصاعده إلى الاستفهام الإنكاري أخيراً ، ومن عجب أن يكون أول أسلوب للإنكار فهي دائرة من الإنكار تحتوي ألوانًا من التقرير والتبكيت مع الدقة في الفاصلة المتلائمة نسجًا ودلالة مع سياقها . وقد جاء أحد عشر أسلوبًا جعل الآيات مع ما فيها ذات إشعاع ، ويمكن أن تلمس التصاعد العام في كل الآيات في المعاني ثم في توتر الأسلوب حيث استأثرت الآيتان الأخيرتان كل بثلاثة أساليب استفهامية ، ومن الواضح أن أم الأولى متصلة وأم في الباقيات منقطعة بمعنى بل والهمزة[1] دلالة على استئناف كلام جديد في نوع الدلائل المشيرة إلى المنعم الوهاب .

وقال تعالى من دعوة يوسف عليه السلام في السجن بعد أن بين عقيدته وعقيدة آبائه ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يقول ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ونلحظ هنا :

أولاً : الذكاء والتلطف وحسن الاستدلال في دعوته إلى التوحيد وإظهار ما عليه قوم صاحبيه من شرك متهافت فناداهما بالصحبة مضافة إلى السجن مثوى الابتلاء حيث تقرب المحن بين المصابين فيصفو الود ويخلص النصح .

ثانيًا : لم يفاجئهما بالدعوة هجومًا على ما يبغي بل ساس النفوس بضرب المثل ونصب الدليل في معرض استفهام تقريراً واستدراجًا حتى لا تنفر القلوب ، حسنًا في التأتي ووصولا إلى الإذعان بالحق ، وقد أدى الطباق دورًا في كشف المعنى وتصويره وتصعيده بين جمع متفرق مشتت متهافت بين أرباب مختلفة وبين الله بذلك الاسم الأجل متبوعًا باسمين لهما دلالة ومذاق

---

(١) راجع الكشاف ١٥٤/٣ .

وجلال وصدع في القلوب «الواحد القهار» محوًا كاملاً لمعدوم مقابل وهيمنة على الخلق وانتقامًا من كل متكبر يتعامى عن الحق، ثم جاء ـ عليه السلام ـ بأربعة أساليب قصرية جحدًا حاسمًا للأوثان وقصرًا للوحدانية على الله تعالى[1].

ألوان أخرى من التقرير :

جاءت أساليب كثيرة تقرر بصفات الله تعالى وآثار صفاته في عالم الغيب والشهادة يتفرد به سبحانه دون سواه، وهو في النهاية تقرير بوحدة الذات والصفات، سواء كان التقرير في زمان الدنيا أم قبله أم بعده، وقد وظف ذلك وغيره في خدمة الدعوة إلى الواحد الأحد وما يرتبط بهذا من أخلاق وأعمال ثم نبذ الوثنية ورذائلها.

وفي هذه الأساليب دخلت همزة الاستفهام المفيدة للنفي على أداة نفي أخرى مثل لم وليس ولا حسب المقام الذي يعين أداة دون سواها .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ (الأعراف:١٧٢) تقريرًا في عالم الذر بالربوبية التي صممت على أساسها الفطر وما يقتضي ذلك من عبودية خالصة[2] دعوة قائمة إلى التوحيد أبدًا .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (التين:٧،٨) الاستفهام مع كونه مقررًا بأن الله أحكم الحاكمين فالجملة مقررة أيضًا لما قبلها بمعنى أنه قادر على البعث والجزاء، ومن التقرير بخبر ليس أو ما يسمى بالجواب في إثباته لاسم ليس قوله تعالى :

---

(١) راجع في الآية : الرازي ١٢٧/٥ والبحر المحيط ٣١٠/٥ وأبا السعود ٢٧٨/٤ والشهاب ١٧٨/٥ .

(٢) راجع أبا السعود ٢٩٠/٣ .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس:٨١) .

ونلحظ هنا وجود واو العطف بعد ليس دلالة على جملة محذوفة معطوف عليها ، ثم كان اسم ليس موصولاً له صلة خاصة تقوى التقرير بالبعث بل هو دليل عليه وهو خلق الكون كله ، ونحس بطء الإيقاع ، في الصلة لتعطي العقل فرصة التقرير تحقيقًا لمضمون الخبر الذي صدر بالباء التي تؤدي دورًا في تضعيف التأكيد وشدة الإيقاع ، ثم ذكر الجواب صراحة مع دليله ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والتذييل هنا بصفتي الخلاق بصيغة المبالغة الدالة على ما لا يحصى ولا يحاط به من مخلوقات تبرز إلى عالم الأحياء دومًا ، وقريب منه آيات القيامة التي توالت فيها الاستفهامات بادئة بالإنكار ويليه استفهاما تقرير : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦) ... الآيات والتقرير الأخير ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، وإن كانت آيات يس أقوى إنكارًا لأنها ترد على كافر عات هو أبي بن خلف[1].

ومن تقرير حفظ الله وكفايته وكلاءته لنبيه ﷺ جاءت آيات الزمر تسلية له وطمأنة وتسرية عنه حين قالت له قريش لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر:٣٦) الآيات ، وفيها أربعة استفهامات متوالية تنكر عدم كفاية الله لنبيه أو تقرر بالكفاية على أبلغ وجه وآكده ، وهو مآل إنكار النفي وقد قال بهما العلماء ، ولا فارق بينهما عند التحقيق وتلحظ هنا سر التعبير بلفظ الجلالة ولفظ الكفاية ، والتعبير بعبد وإضافته إضافة تخصيص وتشريف وذلك يجعل الكفاية لازمة واضحة وهذا

---

(١) راجع في الآيات أبا السعود ١٧/٩ ، ١٨٢/٧ ، ٦٩/٩ ولوضوح التقرير وجليل البيان كان رسول الله ﷺ يقول إذا قرأ آية يس سبحانك بلى وكذلك آية القيامة وفي آية التين يقول : بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين . المرجع نفسه .

ما يعين على التقرير ورأي بعض العلماء بأن الهمزة للإنكار لا يعنون إنكار عدم الكفاية ، بل إن في هذا التقرير قدرًا من الإنكار على من يظن من المشركين أن الله لا يكفيه شرهم[1].

فعل العلم ونحوه :

وقد يكون المقرر به فعل العلم سواء كان لإثبات الحدث أعني صفة العلم لله تعالى على الإطلاق أم العلم مقيدًا بشيء خاص تقريرًا بمتعلقه وقد جاء التقرير بالعلم على أنحاء أسلوبية :

١- قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وقال تعالى في بعض المنافقين الذين كانوا يلهثون وراء منافعهم أيًّا كان مصدرها ، سواء كان المصدر الكافرين أم المسلمين فجاءت الآية تقرر بعلم الله بالنوايا والطوايا تبكيتًا لهم وتهديدًا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (العنكبوت:١٠) [2] وقد يكون الخطاب للنبي ﷺ تقريرًا بعلمه تعلق الفعل وهذا التقرير بأسلوبه تقرير بما جاء في السياق كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

(البقرة:١٠٦،١٠٧).

وجاء بعد ذكر مناسك الأمم ووعيد بالانتقام الأخروي إن جادل المشركون النبي الكريم ثم تقرير قدرته على ذلك ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ

---

(١) راجع الكشاف ٣٩٨/٣ وشروح التلخيص ٢٩٧/٢ وأبا السعود ٢٥٦/٧ .

(٢) راجع أبا السعود ٣٢/٧ .

تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج:٦٨-٧٠) [1] .

وتوالى فعلين ثانيهما فعل العلم ثابت لله تعالى جاء في مناسبات قوية تقرر بعلم المخاطب أو قوله أو رؤيته بمعنى العلم بأن الله يعلم ، فهو ترق في ذكر العلم من علم مقرر به مخصوص محدود للمخاطب بعلم الله شامل محيط بالكون من ذلك قوله تعالى للملائكة بعد أن ظهر علم آدم وفضله عليهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣) وإن كان تقريراً بقول الله وإثباته إحاطة علمه وقال تعالى في آيات النجوى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة:٧) ... الآية [2] فهو تقرير واستشهاد على شمول شهادته تعالى والرؤية هنا بمعنى العلم اليقيني ومنه ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ تهديداً للمنافقين وفضحاً لتدنيهم الخلقي ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٦) .

ونلحظ هنا تهديد المنافقين بأن الله يعلم سرهم وعلانيتهم كفاية عن المجازاة والانتقام بسبب أعمالهم ، وإذا كانت الأساليب تئول إلى نحو : قد علمت ، وقد رأيت ، وقد علمتم نحوه فإن الصياغة بالاستفهام تغاير الأسلوب الخبري الذي جاء كثيراً جداً بأن الأول في مقامات قوية فيها شبه الجدال أو تصحيح المفاهيم أو تبكيت الكافرين والمنافقين أو التعرض بهم أو تثبت

---

(١) راجع أبا السعود ١١٩/٦ .

(٢) المرجع السابق ٢١٨/٩ .

النبي الكريم ﷺ ، وهي مقامات لا يطيقها الأسلوب الخبري ، ومعلوم أن التقرير هنا بما يتعلق به علم المخاطب من إثبات علم الله وهو أعجبها أو قدرته أو آثار قدرته[1].

وهناك أساليب في العلم كان فاعل العلم فيها مشرك معين كأبي جهل أو عام ، وأفادت الهمزة الإنكار والتهديد كقوله تعالى عن أبي جهل في سياقات مرعدة في سورة القلم واستفهامات متلاحقة بدأت : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ إلى أن قال ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (العلق:٩-١٤) وقال تعالى : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ (العاديات:٩-١١) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ (التوبة:٧٨) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة:٦٣) ومع أن الهمزة أفادت النفي داخلة على نفي فأفادت التقرير ، نجد أن ما في الهمزة من شحنة للإنكار العنيف دلت عليه الأساليب هو ما أوجد الطريقة الخاصة في صياغات العلماء من قول بعضهم في بعض هذه الأساليب إن الهمزة للإنكار ، وقول بعضهم إنها للتقرير ، ذلك أن الإنكار واضح في دلالة الهمزة في نسق تهديدي عتيد بينما لا تتغاير أقوالهم حينما يكون التقرير واضحًا دون إنكار بل المن مثلاً والرحمة والتقرير بالعطاء في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[2].

وقد يتمحض الاستفهام الداخل على فعل منفي للإنكار والتوبيخ والتأنيب على ترك الفعل وهو مختلف من التذكر والإيمان والشكر والتفكر والعقل ونحوها[3].

---

(١) راجع أبا السعود ٤٣/١ ، ٨٦/١ .

(٢) راجع هذه الظاهرة دون تعليلهما في شروح التلخيص ٢٩٧/٢ وما بعدها .

(٣) راجع أساليب الاستفهام ص ٥٦ .

ولا شك أن اختلاف الفاصلة وراءه اختلاف السياق وكونه من متعلق الفاصلة تفكرًا أو تذكرًا أو شكرًا أو تقوى ، وتأمل قوله تعالى عن منافع الأنعام ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٧٣) توبيخًا على ترك الشكر على نعم دافعة إلى الشكر للمنعم .

وقوله تعالى:﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام:٥٠) لما كان الكفر عمى وصاحبه أعمى القلب والإيمان مبصر واضح الهدى وصاحبه ممتع بالبصر وكان هذا آية تستحق التفكر في عواقب الإيمان والكفر وأثرهما في القلب تجليا أو انتكاسًا كانت الفاصلة تأنيبًا على مجانفة التفكر ، وقال فرعون ﴿ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف:٥١) .

وإن كان الإنكار الشفيف هنا عانقه التقرير الفاقع بما يبصرون من ملك مديد وكأن هذا دليل على ربوبيته مع أنه ورثه عن فان لكنه استخفف بقومه كما قال القرآن ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وقد اختلف العلماء في مثل هذه الأساليب هل المفعول محذوف فيها أو أن الأفعال منزلة منزلة اللازم قصدًا إلى الصفة[1] وهذا الراجح لمناسبته للسياقات بلاغة .

ويتعلق بآثار الصفات : التقرير بنعم الله تعالى وآلائه الكبرى وهو توجه دائمًا إلى الرحيم المنعم الوهاب حثًّا على الشكر والاعتبار والخشوع ، وقد كثر ذلك في مادة الخلق والجعل اللتين كثرتا جدًّا في القرآن الكريم ، وقد نبهنا إلى أن أساليب الاستفهام لها مقاماتها المتوترة المثيرة التي تباين أساليب الخبر الهادئة التي تثير انفعالات الجمال والتأمل الوئيد ، قال تعالى في سورة النبأ في سياق ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهو استئناف سوق لتحقيق النبأ المسئول عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بصدق البعث أو نبوة الرسول ﷺ قال تعالى بعد التهديد ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أساليب الاستفهام ص ٥٧ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ (النبأ:٦-١٤) .

وفي سورة البلد ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:٨-١٠) [1].

ولما كان ألم نجعل يئول إلى قد جعلنا من دلالة لم على نفي الماضي جاءت الأفعال المعطوفة في سورة النبأ على الماضي داخلة في الاستفهام والتزم فيها الفاعل «نا» الدالة على العظمة والجلال دالة على جلال هذه النعم والآيات وأنه لا يقدر عليها سواه ، ثم تكرار الفعل «جعلنا» مع الآيات الدالة على التحويل والتصيير في النعم أربع مرات مع ألم نجعل ثم مع الخلق والبناء وإنزال التجاج كل ذلك دافع للعقل والقلب والخيال أن يتأمل ويحس ويحلق في أسرارها وآثارها على الحياة عمومًا والحياة البشرية خصوصًا ، نعم وآيات يتضاءل أمامها الإنسان وبخاصة هذا المنكر الذي لو تأمل لتلاشى حياء وذاب إنكاره وتبخر شيطانه .

وفي سورة المرسلات ذات الإيقاع الراجف والهول الراصد والوعيد النافذ ، جاء من التقريرات على صحة يوم الفصل ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ دليل الخلق الأول بدءًا على الخلق في الإعادة ، وقد نلمح هنا شيئًا من التحقير والاعتبار بالتحول الهائل من ماء مهين إلى هذا الإنسان الكريم ليطامن من غلوائه وقد غلف التقرير بوشاح من الإنكار وجاء في السياق ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم

---

(١) راجع أبا السعود ٩/١٦١ .

مَّآءً فُرَاتًا ﴾ والكفات اسم لما يكفت أي يضم ويجمع كضمام لما يضم ، والسياق والمقام اقتضيا ألوانًا من النعم فيها مع بسط الرحمة قبض العزة وعزة القهر والجلال ، وتأمل تهيئة هذا الكوكب الأرضي ليكفت الإنسان في إقامته الأولى ويضم رفاته بعد قراره ، وتأمل هذا وجعل الرواسي الشامخات بهذا الأسلوب الفخم الجزل المهول دلالة ، ووازن بينه وبين آيات النبأ لتعلم مذاقات الأساليب واختلاف المقامات والإنكار الرهيف مع التقرير المتمكن في النبأ ، والتقرير هنا يحفه التهديد والقهر في دائرة مهولة غاضبة فهو تقرير بأنواع فخمة من المقدورات والنعم الجليلة[1]، وتأمل كيف كان دفن المرء نعمة في قصة قابيل بعد قتله هابيل لولا أن سخر الله له الغراب معلما ومثله يعلمه غراب أسحم . ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ إنكارًا ويأسًا خانقا وندما ينضح من كلماته .

التقرير والتوبيخ للمكذبين :

وقد كثر في القرآن الكريم أن يختم ما فصله الله من إهلاك المكذبين ، وانتقام الله المحيط بهم بتقرير قوى مهدد لمن يحذو حذوهم قال تعالى ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد:٣٢) والياء في عقاب محذوفة لتصوير سرعة الأخذ والعقاب .

وقال تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ (القمر:١٦) في سورة القمر في أربعة مواطن إثر ما قصه تعالى من هلاك قوم نوح وبدء قصة عاد ونهايتها تهديدًا وتعجيبًا من انتقامه وإثر قصة ثمود قبيل الانتقام مباشرة تعجيبًا من بطشه وتهديدًا لأعدائه واعتبارًا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ . أما قوم لوط وقد مسخت فطرهم

---

(١) راجع أبا السعود ٨١/٩ .

فقد تغيرت الفاصلة والأسلوب وتكررت مرتين مقولاً لقول محذوف دليلاً على الغضب واللعنة والإهانة ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (القمر:٣٧-٣٩) كما تغيرت الفاصلة مع فرعون المدعى الألوهية فكان الخطاب الأعنف والانتقام الأقوى ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر:٤٢) .

وتأمل التكذيب الكلي منهم مع الأخذ القاهر من الله والوصفين عزيز مقتدر أي جامع بين العزة والاقتدار .

ومن عجب أن نجد تقرير المكذبين يوم القيامة أو تعليقًا على بئيس عذابهم وهو تقرير وإلزام محض من الاعتراف به في موقف الذل المحيط وفيه إلهاب للحواس وإثارة للخشية والعبرة تجديدًا للتوبة ، ونأيا عن فعال الكافرين قال الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٤) ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر:٦٠) وجاء التعبير الأخير في الدنيا أيضًا تهديدًا للكافرين مع التقرير ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (الزمر:٣٢) ولكن في الأول تقرير وتبكيت وفي الثاني تقرير ووعيد . وقال بعض المؤمنين في الجنة وقد اطلع فرأى قرينًا له أيام الدنيا وهو في النار كان ينكر البعث والجزاء ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الصافات:٥٥-٥٩) [1] تقريرًا وتوبيخًا ردًّا على ما كان يردده الكافر في الدنيا ،

---

(١) راجع أبا السعود ١٩٢/٧ .

والذي ينكر ويقرر هو المؤمن فاليوم يومه وله الكلمة العليا ، وهذا الموقف كان تتمة لموقف دنيوي ينكر فيه الكفار البعث والنشور ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقد ظلت الأحداث متوالية أو مترقية حتى أوضحت جزاء المنكر في الأخرى جمعًا بين الزبانية في أسلوب واحد على نحو معجز ، ويرى الأستاذ فودة أن التقرير هنا بمعنى طلب الاعتراف ، والواقع أن استفهامات المؤمنين في الجنة ليست على حقيقتها بل تساؤلات ومناقلة للحديث وتذكر لسالف أيام الدنيا كما يفعل الأصفياء في الحياة ، ولأن المعذب في شغل عن المراد بعذابه إنه في وسط الجحيم وقودًا لها وليس اعترافه ذا قيمة وصمته صمت من اشتملت عليه النار ، أما قول أبي حيان بأن استفهام المؤمن تنكيل وتقريع وتحزين[1] فالواضح أنه تحزين وتنديم وكأنه لون من العذاب النفسي ، أما التنكيل ونحوه من هذه المشاعر السوداء الداكنة الملتهبة فلا يمكن أن تنطوي عليها قلوب أهل الصفاء في الجنة بعد أن قال الله ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

وتأمل قول أصحاب الجنة في الأعراف : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهو تقرير وتنديم ، ولا أظن أن هذا الأسلوب ومثله مما حكى القرآن من محاورات بين أهل الجنة وأهل النار يمكن أن يشتم منه الشماتة أو غيرها كما رأى الأستاذ فودة متبعًا الزمخشري وأبا حيان وأبا السعود[2]، ولذا كان الرازي أدق حينما قال الغرض من هذا السؤال أنه وصل إلى السعادات الكاملة وإيقاع الحزن في قلب العدو»[3].

---

(١) راجع البحر المحيط ٣٦٢/٧ .

(٢) راجع الكشاف ٨٠/٢ والبحر المحيط ٣٠٠/٤ وأبا السعود ٢٢٨/٣ .

(٣) تفسير الرازي ٨٣/١٤ وما بعدها .

ولذا كانت اللعنة على لسان المؤذن بينهم وهو صاحب الصور من الملائكة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عفاف عن الخصومة ، أما ما ذكر بشأن قول أهل الأعراف وهم مؤمنون لم يدخلوا الجنة بعد في مكان بين الجنة والنار في خطابهم للكافرين ﴿ أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف:٤٩) فهو كما ذكر الرازي للدلالة على شماتة أهل الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب ثم زيادة هذا التبكيت بالاستفهام وهؤلاء إشارة إلى فريق كان مستضعفًا يستقله ويهزأ به المستكثرون المتبطرون الكفرة في الدنيا[1]، وقد يشمت أهل الأعراف لأنهم مؤمنون قعدت بهم أعمالهم عن دخول الجنة مع السابقين حتى أدركتهم رحمة الله بالشفاعة ، فهم في موقف يعين على الانفعال ، أما أهل الجنة الذين دخلوا إلى عالم النعيم المقيم حيث لا لغو ولا تأثيم فلا شعور يكدر الصفاء بل روح وريحان وسلام ، ومن عجب أن رد المؤمنين على طلب الكفار شيئًا من المال أو الرزق يبدأ على ألسنة المؤمنين ثم يكمل على ألسنة الملائكة أو من جهة الحق تعالى دون ذكر فاصل أسلوبي من قول أو غيره إلا ما كان من تلوين الخطاب من تغير الفاعل من غائب إلى نون العظمة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٠،٥١)[2].

أنبياء الله تعالى :

وقد جاءت أساليب تفيد التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت لنعم من الله تعالى على عبده وحبيبه محمد ﷺ فضلا ومنا وحثا على مزيد من الشكر كما في سورتي الضحى والشرح ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ

---

(١) الرازي ٩١/١٤ وراجع الكشاف ٨١/٢ .

(٢) راجع أبا السعود ٢٣٠/٣ .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وهو تعديد لما أفاض الله عليه ﷺ من أول أمره من فنون النعم العظام استشهادًا بالماضي والحاضر على الموعود المترقب في قوله ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ طمأنة لقلبه وشرحًا لصدره الذي صرح به أول الشرح ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ تقريرًا بليغًا بحيث لا يجاب إلا ببلى[1]، وقد حفلت العبارة بفيض من العطاء والمن والقرب ، فبدأ الفعل بنون المتكلم المعظم نفسه دلالة على عظم الفعل ووسط «لك» بين الفعل والمفعول ، تكريمًا واختصاصًا وإدخالاً للروح والسرور إلى قلبه الشريف مع تكرار ضمير النبي وكونه خطابًا رفعًا لدرجته وتكريمًا له وتأييدًا ، والمراد بشرح الصدر تأييده بالقوة القدسية وتحليته بالكمالات الإنسانية ، وتأمل التفاوت بين سيد الرسل الذي بدأه الله بتحقيق شرح صدره بالطريق التأكد وبين مقام موسى عليه الصلاة والسلام في تضرعه الذائب ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ وتأمل في سورة الشرح فقد تكرر ضمير الوهاب المنعم ثلاثًا وتكرر ضمير النبي الموهوب سبعًا ، وهو نهاية العدد الفردي عند العرب كناية عن العطاء المتجدد أبدًا .

ومن تقرير الله لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة: ٢٦٠)[2] سأل ربه عن كيفية الإحياء للموتى ليتأيد إيقانه بالعيان ويزداد اطمئنانًا على اطمئنان ، ومع أن الله يعلم أن عبده إبراهيم عليه السلام أثبت الناس إيمانًا وأقواهم يقينًا لتكون إجابته لطفًا للسامعين نفعًا وإفادة ودلالة حـقـة على البعث ، ومغزى القصة مع ذلك بيان فضل الخليل وحسن الأدب في السؤال

---

(١) راجع أبا السعود ٩/١٧٠ ، ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ١/٢٥٦ وما بعدها .

وحب الله لأوليائه ، ووازن بين يسر الإجابة هنا وتأخرها في العزير مائة عام حين قال عن القرية الخربة ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ استبعادًا لعمارتها واستشعارًا لليأس عنها فكان هو موضع التجربة والجواب .

ومن تقرير الله لعيسى عليه السلام يوم القيامة على رءوس الأشهاد ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ (المائدة:١١٦) ولما كان من المعروف أن المقرر به يلي الهمزة وأنه إذا تقدم الفاعل كان الفعل واقعًا فقد توقف العلماء عند هذه الآية ، ذلك أن عيسى عليه السلام لم يقل للناس ذلك لأنه أمر بالكفر وهو كفر ولذا قال أبو حيان إن الاستفهام هنا وقع عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادرًا عن المخاطب أم ليس بصادر عنه ، ونقل عن أبي الحسن الأخفش أن قولك أأنت ضربت زيدًا كان الضرب قد وقع بزيد لكنك استفهمت عن إسناده للمخاطب ، وقال أبو السعود إن هذا التعبير خرج عن الاستعمال الفاشي في قوله ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ وليس القول بمتيقن بل المتيقن هو الاتخاذ ، والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام ، ويرى السبكي أن التقرير كالاستفهام مصروف إلى غير المقر فقوله أأنت قلت للناس : طلب أن يقر بذلك في ذلك المشهد العظيم تكذيبًا للنصارى في ادعائهم وفهمهم ، والمطلوب منه أن يقر بالأمر الواقع منه .

ثم قال : « إن المقرر به هو الفاعل ولا تناقض مع قاعدتهم إذ التقدير أأنت فعلت أم غيرك فهو تقرير بالفاعل منه ومن غيره ، وكلامه غير واضح إذ إقراره عليه السلام بالأمر الواقع منه يعني أن القول اتخذوني غير واقع من واقع من غيره ، وقوله : التقدير أأنت فعلت أم غيرك يعين أن الفعل واقع وأن الشك في الفاعل ، كما أن التقدير يعني أن الاستفهام حقيقي لا تقريري وهو يلتقي بهذا مع أبي السعود وقريب منه رأي ابن الشجري حين جعل الآية من التوبيخ في الظاهر لغير المذنب مبالغة في تعنيف المذنب ، وفكرة التوبيخ ولو ظاهرًا مما ينأى عنه المقام .

ويرى ابن يعقوب أن هذه الآية مما خرج عن القاعدة المشهورة ، إذ المقرر به نفس النسبة إذ ليس المراد إظهار أن غير عيسى قال هذا القول دون عيسى ، بل المتبادر أنه لم يقله تكذيبًا للمدعين فالهمزة فيه للتقرير بما يعلمه عن ذلك القول[1]، ويبدو التفاته إلى رأي أبي حيان وإضافته إليه وهو الرأي الأقوى وألمح فيه الكناية القوية والدليل الأبلج على كذب ما يدعيه النصارى ، ذلك أن عيسى وهو مصدرهم الوحيد المبلغ للشرع إذا نفى قول ذلك نفى مشروعيته ، وأنه افتراء وبهتان وهذا يزيد معنى الإنكار والتوبيخ .

وذكر ذلك قرآنا يتلى إنكار أبدى لمن يشرك مع الله تعالى عيسى ابن مريم وأمه الصديقة ، ولذا فمتابعة الأستاذ فودة للإمام عبد القاهر وأن التقرير هنا من المخاطب اعترافًا ليوبخ غيره متابعة لم تستوف ما قيل في الآية ولذا كانت واهنة.

ومثل تقرير عيسى عليه السلام تقرير الملائكة وتبكيت من عبدوهم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ:٤٠،٤١) وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفرقان:١٧،١٨) والجمهور على أن قوله «وما يعبدون» من عبد من دون الله ممن يعقل دون أن يأمر بذلك كعيسى وعزير والملائكة بدليل المحاورة التي لا تتأتى إلا من العقلاء ،

---

(١) راجع في ذلك الدلائل ص ٨٧ والأمالي الشجرية ٢٦٥/١ والبحر المحيط ٥٨/٤ وأبا السعود ١٠٠/٣ وعروس الأفراح ٣٠٦/٢ ومواهب الفتاح ٢٩٨/٢ وأساليب الاستفهام ص ٢٢٥ وما بعدها وتقرير الإنبابي ١٥٤/٣ وما بعدها .

وهذه الآية أعم من آية عيسى وآية الملائكة إذ تشمل غيرهما كالعزير الذي جعله اليهود ابن الله ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ والاستفهام للتقرير معلوم الجواب يترتب عليه تبكيت عبدتهم ، وزيادة حسرتهم وفضيحتهم[1].

وقولهم «سبحانك» تنزيه لله أن يعبد معه سواه وتعجيب منهم ومن قولهم الإفك ، فالأنبياء والملائكة هادون لا مضلون كإبليس وحزبه ، وفي قول الملائكة : كانوا يعبدون الجن أي يطيعون الشياطين في إضلالهم فكأنهم يعبدونهم كقوله ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ وتأمل ثانية في الآيات تجد نفي عيسى «ما يكون» وإضراب الملائكة المتأثر «بل كانوا» وفي الآية الثالثة الجامعة بينهم جمعت أيضًا بين النفي «ما كان ينبغي» والاستدراك «ولكن» بمعنى بل وهي دقة معجزة وتلاؤم مثير لا يتخلف .

من أسلوب الموازنة في القرآن :

ومما يلفت الإنسان في بعض ألوان الاستفهام أن يمهد له بمقدمات يقينية رغبا أو رهبًا ، ثم يعقد موازنة صورية تأكيدًا مثيرًا لما سبق في المقدمة ، والتصوير هنا في التقابل بين الأضداد جزاءات أو أحداثًا أو ذوات متقابلة بأوصافها .

وكذلك في الاستفهام التقريري هيمنة على مراكز الحس ، وقد سبق من ذلك عقد الموازنات بين الله تعالى بكل كمالاته والآلهة المزعومة .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الصافات بعد عديد من الأقسام الجليلة على أن الله واحد وأنه رب الكون يقول سبحانه ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ (الصافات:١١) ومن خلقنا أي من غرائب

---

(١) راجع الكشاف ٨٥/٣ ، ٢٩٣/٣ ، والبحر المحيط ٤٨٨/٦ ، ٢٨٧/٧ وأبا السعود ٢٠٨/٦ ، ١٣٧/٧ .

المخلوقات وعجائبها من الملائكة والجن والسماء والأرض والنجوم والكواكب وما في الكون من خلق وأتى بمن تغليبًا للعقلاء ، والاستفتاء نوع من السؤال والاستفهام للتقرير والأسلوب كناية عن البعث وأن من هان عليه خلق هذه الكائنات كانت إعادة البشر عليه هينة .

وهو تقرير لكفار قريش وتوبيخ لهم ، وإذا صرح بأصلهم وهو الطين اللازب وفي نفس السورة بعد ذكر الجزاء العالي لعباد الله المخلصين يأتي باستفهام تقريري فيه موازنة بين هذا الجزاء مشارًا إليه وبين لون رهيب من جزاء الكافرين ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ (الصافات:٦٢) [1] وهي موازنة صورية على سبيل التهكم أولا بجعل هذه الشجرة من النزل الخاص والنزل ما يقدم للضيف تكرمة ولا تكرمة هناك ، وتأمل في التعبير تجد أن : خير نزلا جمع بين المفضل والمفضل عليه في أصل الصفة وهي خيرية النزل وهي في جانب المؤمنين محققة وفي جانب الكافرين على سبيل التهكم ، إذ لا خير فيها ولا مثقال ذرة حتى تعقد الموازنة تقريرًا وتوقيفًا لكفار قريش على سوء اختيارهم الذي أدى بهم إلى شجرة الزقوم ، فهو برهان على نفي الخبرية ، ثم إن الأسلوب كان جسرًا إلى تفصيل عذابهم وهو متلائم من حيث الدرجة مع جزاء المؤمنين الخاص . ويشبه ذلك ما جاء في سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت:٤٠) .

والأسلوب عنيف مشحون بالتهديد تصريحًا وكناية توسطه أسلوب الاستفهام كأنه عصب يشد طرفيه وفيه دليل ملزم وتبكيت ملجم ، وناسب التهديد وتقديم الذين يلحدون إن كان الطرف الأول أو المفضل من يلقى في

---

(١) راجع البحر المحيط ٣٥٤/٧ وأبا السعود ١٨٦/٧ .

النار ، هكذا إلقاء عنوة وأخذًا وتحقيرًا مهينًا كالشيء الذي لا بال له بل الشيء المستقذر شديد الهوان .

وهذا الباب كما قال أبو حيان يقرر المناظر فيه خصمه على وجهين أحدهما فاسد لو أقر به لبان جهله[1]، وإذن لا بد من التقرير بخيرية من يأتي آمنا يوم القيامة في يوم يعد الأمن فيه مغنمًا جليلاً ، ومن هنا كثر حذف الأجوبة في مثل هذه الأساليب لوضوحها ، إلا إذا ترتب على الإجابة أسلوب جديد تولد عن الأول أو نتيجة مهمة ذكرت الإجابة كما في آيات النمل ، وحين تأتي الموازنة وقد سبقتها جزاءات الكافرين في الآخرة يكون المفضل أو الطرف الأول ما يتعلق بجانب المشركين كما في سورة الفرقان بعد ذكر جزائهم وحشرهم مقرنين يدعون ثبورًا في النار قال ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ .

ومما سلب فيه الخير عن الطرفين جميعًا وكان ذكره تهكمًا ساخرًا قوله تعالى عن كفار قريش ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ (الدخان:٣٧) وفي سورة القمر بعد ذكر مصارع المكذبين في الأمم ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (القمر:٤٣-٤٥) والخطاب لأهل مكة والخيرية في القوة والعدة والعدد أو المكانة ، والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع أنهم أشد قوة وأكثر طاعة ، والمراد نفي الخير بمعنى أنهم شر منهم توقيفا وتوبيخا ، ويبدو أن التقرير هنا بالنسبة نفيًا لها والأساليب التالية تصعد التهكم والنكير عليهم .

وخير في هذه الأساليب جاءت على النهج العربي في بيان فضل الشيء وانفراده بالفضل دون مقابلة كقوله تعالى ﴿ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ

---

(١) البحر المحيط ٧/٥٠٠ .

إِلَيْهِ ﴾ وقول العرب الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقول حسان فشركما لخيركما الفداء ، ذلك أن المتكلم المقرر له أن يوقف محاوره ـ كما ذكر الزمخشري وأبو حيان ـ على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، بل لا ينتظر منه إجابة لأن الصواب واضح لذي عينين ، وليس التوقف خاصًّا بالاستفهام بل يأتي في الخبر كآية يوسف قول حسان بشرط أن يكون الحكم واضحًا لا يختلج فيه شك ولا يحوم حوله تردد[1].

متفرقات في التقرير :

وحين يقرر من لا دخل له في الحدث الظالم كتقرير الأنبياء والملائكة ـ فيما سبق ـ يكون التبكيت أشد نكاية وأبلغ تحسيرًا وقريب منه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير:٨،٩) .

وتوجيه السؤال إليها إثارة للإشفاق والرحمة بهذه المظلومة وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب مبالغة في تبكيته ، وفي قراءة «سألت» أي خاصمت وهذا أدعى للتبكيت ، ثم إن السؤال عن نوع الذنب أو سببه الذي أوجب القتل يؤجج ذلك للنكير وأكاد ألمح الجمع بين الآيتين ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ اتساقًا نفسيًّا بين ما للوحوش من افتراس ونهم الدماء وبين الوأد وهو من أبشع صور القتل دفنًا بالحياة لجسد غض لا تكاد تمر عليه آخر لحظاته إلا في عذاب دونه التمزيق المسعور بالمشاقص[2].

ومن الاعتراف للتسجيل وترتيب أمر آخر عليه قول السحرة لفرعون وهو في زهو وثقة بالنصر على موسى عليه السلام وقد حسبوه ساحرًا ﴿ وَجَآءَ

---

(١) راجع الكشاف ٥٢٢/٢ والبحر المحيط ٤٨٦/٦ ، ١٨٣/٨ وأبا السعود ١٧٤/٨ .

(٢) راجع في الآية البحر المحيط ٤٣٣/٨ ونظم الدرر للبقاعي ٢٨٠/٢١ وتفسير أبي السعود ١١٥/٩ .

﴿ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الأعراف:١١٣،١١٤) وتلمح في صياغة الأسلوب ذكر القول إثر المجيء دون عاطف ، وهذا لا يدل على مصاحبة القول للمجيء فحسب بل على سيطرة هذه الفكرة أعني حب المال وطلب الأجر على قلوبهم فهو حافز مادي أو تفكير وضعي بعيدًا عن عالم القيم .

ومن هنا دخلت همزة التقرير على جملة اسمية مؤكدة بأن واللام ، وتقديم المتعلق استحقاقًا وتبريرًا وتنكير أجر تفخيمًا يناسب الغلبة الواعدة التي حققوها حين عبروا بالمضي « كنا » ، وأتوا بضمير الفصل وتعريف الطرفين والطرفان والضمير لأمر واحد هو نفوسهم أنها ذاتية أو بالتعبير المعاصر أنانية وثقة غلابة تتفجر من أعطافهم ، ودخول « إن » المفيدة للشك مناورة نفسية ادعاء للتواضع الكاذب الزائف حثًا لفرعون على الوعد بعد أن أحسوا منه ضعفًا تجاه موسى ، وجواب الشرط محذوف دل عليه إن لنا لأجرًا فكأنه ذكر مرتين لهثًا وراءه .

ولعل فراغهم النفسي جعلهم يدركون المعجزة المزلزلة فألقوا ساجدين ، والتقرير للتسجيل على فرعون وعده المأمول وقد مناهم بالأجر وبما هو خير منه وهو القرب الممنوح ولم ينس - وهو ذكي - أن يؤكد سبب الأجر والقرب ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الأعراف:١١٤) [1] أي إذا غلبتموه حقًا . ومنه قوله تعالى على لسان أتباع يوسف عليه السلام وقد وضعوا الصاع بأمره في رحل أخيه ثم سألوا أخوته عن جزاء السارق في شرعتهم ليعترفوا به فلا ينكرون بعد ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (يوسف:٧٤) وذكر

---

(١) رد على قولهم ﴿ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الشعراء:٤١) أما رده في الأعراف فجاء بدون إذن آية ١١٤ قال الكرماني لأن ما في الأعراف من هذه الواقعة بني على الاختصار دون الشعراء وراجع أسرار التكرار للكرماني ٨٩ .

الكذب إلهاب لهم وإثارة لا نفعا لهم لأنهم أبناء الأنبياء وكأنهم مفاوضون عصريون ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ (يوسف:٧٥) وإجابتهم أشبه بتقرير علمي ، ولذا تكرر الجواب لفا ونشرا غير مرتب بدءًا بالجزاء وختمًا به والأسلوب يكون دائرة بداخلها ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ ﴾ يعنون الرق وسجن الحرية ، وبناء الأسلوب ملائم لمعناه وانفعالهم أيضًا أو قل على سبيل المجاز إن تصميم الأسلوب يدل على فحواه فما أعجب شأن القرآن العزيز .

* * *

التعــجب

التعجب : النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد فهي حال تعرض للإنسان حين يعظم موقع الشيء عنده ، ويخفى عليه سببه ، والشيء الذي يكون كذلك عجيب وعجيبة ، وهذا الشيء قد يكون خيراً أو شراً[1] ، والعجب حين ينسب إلى الإنسان فهو أمر عادي ، لكثرة ما يرد عليه من أحداث وظواهر تخفى عليه أسبابها ، لكن حين يسند إلى الله تعالى : بلفظه أو معناه ، فهنا يتوقف العلماء إذ لا تخفى على الله خافية وهو كباقي الأفعال كالحب والبغض والكره والضحك والعجب والملك وغيرها من المحدثات ، ومعلوم أن رأي السلف التفويض ، والخلف التأويل وفيما يتعلق بالرجاء والعجب يرى بعض العلماء أن الإنسان يتعجب ، وقد خاطب الله العرب بما يعرفون وبما جرت عليه أساليبهم ليعرفوا موقع هذه الأشياء المتعجب منها عنده فهو تعجب غير مقصود لذاته ، تعجب لغير المتكلم ، وفي هذا يلتقي ابن الشجري وصاحب النهاية في غريب الحديث وغيرهما مع السبكي فـفي قوله : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أي أنه يستحق أن يقال له ما أكفره ، وهذا ما يسميه الزمخشري بالتعجيب أحيانًا ونقل عن سيبويه في قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ : اذهبا على رجائكما منه التذكر أو الخشية ، وقاس عليه في الكشاف ما أفاد الرجاء من هذه الأساليب الخاصة كقوله : لعلكم تعقلون .. أي مرجو منكم التعقل ، وقد رأى بعضهم أنه لا بأس من إسناد العجب إلى الله كما نسبه لنفسه على نحو يليق بجلاله والمهم ما يثيره الأسلوب في نفوس

---

(١) راجع النهاية لابن الأثير ١٨٤/٣ ومعجم ألفاظ القرآن ١٢/٢ وأسرار التكرار ص١٣٤ .

المتلقين ، وقد استقر هذا المصطلح التعجب لغير الله والتعجيب لله تبارك وتعالى[1] . وقد جاء التعجب في الأساليب الخبرية نحو : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ وقرئ بضم التاء وبفتحها ، وفي أساليب التعجب قياسية وسماعية كقوله تعالى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ ومن أندر ما جاء في هذا الصدد التعجيب من التعجب القائم على غير أساس كقوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس:٢) [2] فالهمزة لإنكار تعجبهم وتعجيب السامعين منه ، وذكر كفار مكة باسم الناس لتحقيق البشرية التي يشاركهم فيها النبي بأنه رجل منهم وتعيين مصدر تعجبهم ، ثم تبيين خطئهم وبطلانه بالإنكار والتعجيب ، والأسلوب شديد التداخل ، فالإنذار والتبشير داخل في الإيحاء إلى رجل منهم وتعجبهم مثير غريب لأن الكمال هو أصل الاختيار وكان رسول الله ﷺ أكملهم وهم غير قادرين على مفاوضة الملائكة حتى يبعث إليهم ملك رسول .

ومن ملاحظاتنا في الاستفهام التعجبي أنه قد يقع تابعًا للإنكار أو التنبيه أو التقرير أو الاستبعاد ، وقد يسيطر على الأسلوب ويستبد به معنى أصليًا يومض من خلاله بعض المعاني الثانوية كالإنكار أو الاستبعاد كهذه الأساليب التي جاءت نصًا في إفادة التعجب كالتعبير «ألم تر» بمعنى ألم تعلم . فقد جرى مجرى التعجب في لسانهم ، ويقال عندما يراد التعجب من شيء ما : كما جاء في الحديث حينما رأى مجزز أرجل زيد وابنه أسامة فقال هذه الأقدام

---

(١) راجع الأمالي الشجرية ٢/٢٣٧ وفي أساليب التعجب ذكر الزمخشري فيها التعجب أو الاستعظام أو على التخييل البياني وقد رفض التخييل كثير من العلماء كابن المنير وأبي حيان وابن تيمية مما ناقشناه في موطن آخر وراجع الكشاف ٣/٣٣٧ ، ٤/٢١٩ وراجع الكشاف ، الآية : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ٢/٥٣٨

(٢) راجع أبا السعود ٤/١١٦ .

بعضها من بعض فدخل النبي ﷺ قائلاً على سبيل التعجب ألم تر إلى مجـزز .. الحديث[1] .

ومما هو نص في التعجب أيضًا بعض استعمالات كيف بدلالة المقام كما في قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ فالاستفهام في ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ في معنى ما أعجب تقديره . وما أغربه ـ كما ذكر أبو حيان ـ كقولهم أي رجل زيد ، أي ما أعظمه ، وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ في إفادة التعجيب من الأولى للتراخي الذي بينهما[2] .

وقد يجمع الأسلوب بين ألم تر كيف ، وجاء في أساليب قليلة تمثل قمة التعجيب في مقامات خاصة جدًا كقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ وقد مهد الاستفهام التقريري بمعنى ألم تعلم علمًا رصينا يساوي المشاهدة والعيان بما تناقلته الأخبار المتواترة ودلت عليه الآثار الظاهرة ، وتعليق الرؤية بكيفية الفعل دون الفعل ذاته لتهويل الحادثة وأنها وقعت على حال هائلة وهيئة عجيبة مثيرة غير مألوفة دالة على القهر والسلطان والحكمة والعزة[3] ولا شك أن الاستفهام الأول مهد للثاني بالتنبيه والإثارة والتقرير إظهارًا له وقصدًا إلى أنه عجيبة من العجائب ، وهذا ينفي رأي الأستاذ فودة من أن التعجب لم يرد إلا معنى ثانيًا كقوله في بعض أساليب كيف أنها تفيد التعجيب والتهديد[4]، من نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ

---

(١) راجع في ذلك الأمالي الشجرية ٢/٢٤٩ ، ٣/٢٩٧ والنهاية ٢/١٧٨ .
(٢) راجع البحر المحيط ٨/٣٧٤ والكشاف ٤/١٨٣ وأبا السعود ٩/٥٧ .
(٣) راجع أبا السعود ٩/٢٠٠ .
(٤) راجع الأساليب ص ١٥٣ .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (يونس:٧٣) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾

(محمد:١٠) .

وكثير من المفسرين كالزمخشري وأبي حيان وأبي السعود على أنه للوعيد والتهديد والتحذير من مثل مصائر المكذبين ، والواقع أن التعجب خفي جدًّا لا يفصح به الأسلوب وقد يجوز ذلك حينما يكون المخاطب النبي ﷺ كالآية الأولى « فانظر » أما حينما يكون فاعل النظر ضمير المشركين كالآية الثانية فهو قرينة على تعيين التهديد والتحذير .

والملاحظ أخيرًا أن التعجب والتعجيب تأدى بالهمزة مفردة أو داخلة على نفي نحو : ألم ، وكيف ، وما داخلة على اللام متصلة بضمير المتكلم أو المخاطب عمومًا : مالي مالك ما لكم أوداخل عليها حرف جر نحو : لم ، وكذلك أنى . ودلالات هذه الأدوات مختلفة تمامًا ، ولذا تأتي الأداة منها في سياق يقتضيها وحدها لأنها تفيد درجة خاصة من التعجب ولونًا من ألوانه . كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (النساء:٤٤) فهو تعجيب منهم ومن حالهم المتناقضة ذلك ألم تر كلمة تقال عند التعجب من الشيء وعند تنبيه المخاطب[1]، أما بقية الأدوات فتدل على تعجب خاص بجهة من جهات الفعل كالسبب في « لم » والحال والهيئة في كيف ، وهكذا كقوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٤٢)[2] وقال تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾

(البقرة:٢٨) .

---

(١) راجع البحر المحيط ٢٩٧/٣ والنهاية ١٧٨/٢ .

(٢) راجع البحر المحيط ٢٧٩/٦ وأبا السعود ٢٣٣/٧ .

والواقع أن اكتشاف التعجب وبخاصة في أساليب الإنكار يدق أحيانًا - لدرجة الخفاء - ذلك أن التعجب في بعض حالاته لون من ألوان الإنكار ، والقرينة هي التي توضحه وبخاصة إذا جاء في سياق الأسلوب ما يثير التوتر والتعجب كأفعال المخاطب المتناقضة أو أقواله ، أو ما جرى على غير قانون العقل ، أو ما خفي سببه وطغى أثره ، أو ما جاء على السنن الإلهية خارقًا لا يعرف كنهه ثم تدرك أثاره الجليلة كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ (الفرقان:٤٥) ومن هنا نجد تفاوتًا في أقوال العلماء رحمهم الله فقوله تعالى - مثلاً - في سورة ن ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ توالي إنكار عند أبي حيان وتعجب واستبعاد عند أبي السعود وهكذا[1]، وفي قوله تعالى على لسان المعرض يوم القيامة وقد حشر أعمى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (طه:١٢٥) فهو مساءله كما قال الطبري أو استفهام حقيقي عن السبب أو الجرم الذي استحق به ذلك لأن المجرم ظن أن لا ذنب له ، وتبعه أبو حيان ويبدو أن الأستاذ فودة رتب على قول الطبري وأبي حيان بخفاء السبب وفيه معنى التعجب فقال بالتعجب[2] ، والواقع أن القضية أكبر من ذلك وهذا ما نقدمه من خلال أغراض نبدأ باستفهامات المعذبين لاقتضاء آية طه ذلك .

استفهامات المعذبين :

والقول بالتعجب في آية طه معالجة جزئية ، ذلك أن يوم الحشر في التصور الإسلامي مهول رهيب ، وللمجرمين الذين ذاقوا في البرزخ ألوانًا من العذاب لهم في هذا اليوم العسر الذلة والمهانة ، فهم يحشرون على هيئة مهينة مزعجة ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء:٩٧) ليكون كل عذاب

---

(١) الآية ٢٦ راجع البحر المحيط ٣١٤/٨ وأبا السعود ١٧/٩ .

(٢) راجع الطبري ١٦٦/١٦ والبحر المحيط ٢٨٧/٦ .

لهم فيه الفجأة والبغتة فكل حدث لمن حرم هذه الإدراك يمثل مفاجأة حرمانًا من حواسهم التي تهديهم في هذا الزحام الناري ، والآيات القرآنية توضح كيف يحشرون :

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ (الفرقان:٣٤) ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (طه:١٠٢) ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (مريم:٨٦) ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء:٩٧) ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (النحل:٢٥) ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ (الإسراء:٩٧) من آيات متكاثرة تبث الهول والفزع ، فالسؤال في الآية لم حشرتني أعمى ليس استفهامًا عن السبب الحقيقي لأنه ـ كما ذكر الطبري وأبو حيان ـ ظن أنه لا ذنب له بل هو ضلال من نوع ضلاله في الدنيا كما قال سيد قطب ، وسؤاله هنا : احتجاج بالباطل ، ومماطلة في الخطاب[1] يشي باليأس والتواء النفس وسيطرة الحيرة ، ثم إنه أذل من أن يتعجب وأضأل من أن يسأل ، فأوزارهم على ظهورهم وعذابهم بدأ منذ أدرجوا في أجداثهم.أنه ـ سؤال يعرف جوابه حتى عند قبض روحه ، والنظر في آيات المعذبين ـ يوم القيامة ـ وأحاديثهم في الحشر والحساب والنار سواء وجهت للملائكة أم أهل الأعراف أم المؤمنين على الإطلاق أم أحاديثهم بعضهم مع بعض أم مع أنفسهم أم كانت جؤارًا ونداء أم أماني غاربة ، كل ذلك يصور الضياع والذل والحسرة واليأس والندامة ، ولم يرد على ألسنتهم من أساليب الاستفهام إلا ما يقرب من ثلاثة ، أما الباقي فجاء على ألوان من أساليب النداء والتمني والندب والحسرة ، كما كثرت

---

(١) راجع الطبري ١١٢/١٥ والبحر المحيط ٢٨٧/٦ والنيسابوري ٩٥/١٥ واليوم الآخر في ظلال القرآن ص ١٦١.

الاستفهامات التقريرية على ألسنة الملائكة والمؤمنين إحقاقًا لحق ماطلوا فيه وإزهاقًا واقعيًا للباطل في يوم يذل فيه الباطل وأهله[1].

مع المؤمنين :

وقد نزلت آيات شريفات تُقَوِّم سلوك المؤمنين وتعجب من أفعالهم التي لا ينبغي أن تكون ، لكن علينا أن نبين ـ بتوفيق الله ـ وجه الحق في استفهامات وجهت إلى النبي ﷺ وتأولها بعض الناس على غير وجهها ، من ذلك قول الله تعالى لنبيه ﷺ في شأن صنف من المنافقين استأذنوا في القعود عن الجهاد واعتذروا بأعذار واهية ، ومنهم من لم يعتذر في غزوة تبوك ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة:٤٣) . جعله أبو السعود إنكارًا[2] ، ورأى ابن المنير أن الله تعالى قد أجل نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، ونقل أن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ردًا على الزمخشري الذي خانه الأدب مع سيد البشر حين قال في : عفا الله : كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها ، وأول الاستفهام بقوله « هلا استأنيت بالإذن »[3] .

وقال أبو حيان : كلام الزمخشري مما يجب إطراحه فضلاً عن أن يذكر فيرد عليه ، وارتأى رحمه الله : رأى أبي عبد الله المنبوذ بنفطويه بأنه قد ذهب ناس إلى أن النبي الكريم معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل له أن يفعل وألا يفعل حتى ينزل عليه الوحي في كثير من شئونه ، وقد اختار أيسر الأمرين حين أذن للمتخلفين تفضلاً فأبان الوحي أنه لو لم يأذن لأقاموا على النفاق وعلى ذلك فعفا الله عنك : استفتاح كلام وليس عفوا عن ذنب ، بل جاء على منهج العربان في قولهم : أصلح الله الأمير ، وقوله ﷺ : عفا الله لكم عن

---

(١) راجع اليوم الآخر في ظلال القرآن الفصل الرابع ص ١٦١-٢١٣ .

(٢) تفسير أبو السعود ٦٨/٣ .

(٣) الكشاف والانتصاف ١٩٢/٢ .

صدقة الخيل والرقيق فهي صيغة دعاء[1]، ويؤكد هذا الرأي اختلاف العلماء في تقدير متعلق الإذن أهو الخروج أي في الخروج لما يترتب عليه من مفاسد كقوله ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ أم القعود حتى يعرف ذوو الأعذار ، والظاهر الأول ولقد أومأ أبو السعود إلى كلام الكشاف وخفف من حدته وجعله إنكارا ، ونقل عن سفيان بن عيينة ، انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو . وكذلك الآية الشريفة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (التحريم:١) جعله الزمخشري زلة[2] وابن المنير رفقا وشفقة وتنويها بقدره ولمنصبه ﷺ بأن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه فالتحريم محمول على هذا الوجه . وذكر أبو حيان أنه سؤال تلطف ، والنداء يأيها النبي نداء إقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم وهو عند الطبري عتاب ، وعند البقاعي عتاب لأزواج نبيه ﷺ في صورة عتابه لأنه أبلغ وفقا به لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة بأمته ، وأحرى الآراء بالقبول رأي أبو حيان وما يقرب منه كابن المنير والبقاعي ، وعلى هذا فقول بعض الباحثين إن الاستفهام في الأسلوبين تعجيب وعتاب مجازفة[3] .

وفي التعجيب من أمر المؤمنين تقويمًا وتربية السلوك الخير جاء قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢،٣) والآية في المؤمنين كما رجح الطبري ، فقد قالوا لو عرفنا أحب الأعمال إلى الله لعملنا بها ، ثم لما عرفوا قصرت طوائف منهم مع تفخيم النداء ووسمهم بسمة الإيمان وهذا يضعف قول

---

(١) البحر المحيط ٤٧/٥ .

(٢) الكشاف والانتصاف ١٢٥/٤ .

(٣) راجع في الآية الطبري ١٠٢/٢٨ والكشاف والانتصاف ١٢٥/٤ والبحر المحيط ٢٨٩/٨ ونظم الدرر ١٧٩/٢٠ ، ١٨٠ .

الزمخشري أنها في المنافقين ، ووصفهم بالإيمان تهكم بليغ وبالموازنة مع قوله تعالى في أحبار اليهود ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٤٤) نلحظ :

أن الخطاب مع المؤمنين أعنف ، ذلك أنه تقويم للسلوك وتربية للقيم وصولا إلى الكمال المنشود ، ومع ذلك لم يصل حد الغضب ، ثم إن الإنكار والتعجيب انصب على السبب كناية عن إنكار الفعل من باب أولى قوة في الدلالة . وعلاج السبب يحول دون وقوع فعل ما والنداء والتنبيه والخطاب بوصف الإيمان ، يجعل للإنكار والتعجيب وقعا خاصا وكأنه تعريض بهم ، لأن من شأن المؤمن أن يصدق فعله قوله ، وقد ترقى الأسلوب من استفهام تعجبي إلى تعجيب محض في قوله ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ وهي صبغة عريقة في إفادة التعجيب البالغ وعبر بالمقت وهو أشد البغض ، وكونه : عند الله ، بلفظ الجلالة يبلغ بالمعنى مداه ، وتكرار الجملة الثانية ﴿ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ مع تكرار المواجهة ، وتقديم المقت عند الله على الفاعل «أن تقولوا» لا لتشوف إليه النفس فحسب كما قال البقاعي ، بل لزلزلة النفوس ونفضها نفضا يغسل أكدارها ويرجع صفاءها .

ونسج الآية كثرت فيه حروف المد والغن بالميم والنون والتنوين ولعله والله أعلم دال على شدة التوبيخ ورفع درجته مع التعجيب على حد فقسا ليزدجروا...

ولذا فهم منها أبو حيان التلطف في العتب بل هو عتب صريح سببه الرحمة واللطف ، أما آية الأحبار فقد دخلت الهمزة على الفعل مفيده إنكار التوبيخ والتعجيب والتقريع ، وصعدت الجملتان الأولى بواو المعية كما يرى السبكي والثانية بواو الحال ، وإيقاع «تنسون» على أنفسكم مع التعبير عن الترك بالنسيان تعبيرًا لهم وبيانًا لغفلتهم المفرطة ، لأن فعل المعصية مع النهي عنها أفحش لأنها تجعل حال الإنسان كالمتناقض ، وهذا التناقض الحاد هو الذي

ولد هذا التعجيب الذي لم يذكره السبكي ، صعدت الجملتان التوبيخ والتقريع والتعجيب إذن من ظلمات نفوسهم وجسارة طباعهم وتعطل إدراكهم ، ولذا خلص الاستفهام الثاني للإنكار والتبكيت إنكار لعدم التعقل وترك التدبر ، ولذا كثرت المقاطع المغلقة ولم تكثر حروف المد كثرتها في آية المؤمنين[1].

وقريب من آية الصف آية النساء ٧٧ وقد نزلت في شأن طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم رغبوا في أن يأذن لهم في قتال المشركين فلم يأذن لهم وهم بمكة ، فلما قام المجتمع الإسلامي في المدينة وأمروا بالقتال خاف بعضهم لا شكا في الدين ولا رغبة عن الجهاد بل نفورا من الأخطار جبلة بشرية ، وربما كان هذا بدء حركة الجهاد الكبرى فهي خشية لم تمنع من القتال المستبسل ، وبمثل هذه الآيات كان تصحيح العقيدة واستقامة الإيمان . قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧).

والأسلوب « ألم تر إلى : نص في التعجيب وموطنه قوله فلما كتب عليهم القتال.. الآية خشيتهم وكرهم له .

وقد وجه التعجيب إلى الجميع مع خشية بعضهم إيذانًا بأنه ما كان ينبغي أن يصدر من أحدهم ، فهم مجتمع متماسك وبنيان مرصوص يضعف بضعف بعضه ، وانظر إلى تصوير التهكم بإذا ، والتعبير بالخشية من الناس مضارعًا وتشبيهه بالخشية من الله أو ترقيًا إلى ما هو أشد من خشية الله التي هي مثل

---

(١) راجع في الآيتين : الطبري والنيسابوري ٢٠٤/١ ، ٢٧٤ ، ٥٦/٢٨ ، ٥٩ ، والكشاف ٢٧٧/١ ، ٩٧/٤ والبحر المحيط ١٨٧/١ ، ٢٦١/٨ وأبا السعود ٩٧/١ ، ٢٤٢/٩ ونظم الدرر ٥/٢٠-٧٤ وعروس الأفراح ٣٠٤/٣ .

في الالتزام ، وقدر بعضهم في « كخشية الله » أي مشبهين لأهل خشية الله وإن كان بعيداً عن روح التهكم .

كما نلحظ أنه عبر عن الخوف وهو خاص بالمكروه بالخشية وهي خوف مع تعظيم ، إذ الإشراك غير أهل للتعظيم ، ثم حكى قولهم « أم كتبت علينا القتال » لا اعتراضاً منهم ولا إنكاراً لحكمه تعالى بل ولا تعجبا كما يرى الأستاذ فودة بل هو كما قال أبو السعود على طريق تمني التخفيف والتيسير[1] .

وازن هذه الخشية على طريق التشبيه لا التحقيق بما ورد في شأن المنافقين ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ عبر بالرهبة المؤكدة في جانب المنافقين لأن قلوبهم خربة ، فوقفوا عند الظاهر[2] فهنا انتكاسة نفسية وانخلاع من الرعب ، وهناك تشبيه متهكم وتحذير خفي من النفاق لأن المسلم من أسلم وجهه وقلبه وفوض وابتغى ما عند الله .

وقريب من آية الأخبار قول الله تعالى في شأنهم وشأن اليهود ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة:٤٣) وقد جاءوا يحكمون رسول الله ﷺ في زنا رجل محصن منهم، وقيل في قتيل بين بني قريظة وبني النضير ، وفي الآية تعجيب شديد من حسابهم وهو تحكيمهم من لا يؤمنون به ولا بكتابه طمعًا في التيسير والترخص في حدود الله . جريا وراء الهوى .

والجملة الحالية صعدت الإنكار والتعجيب إذ في التوراة حكم الله ، والجملة التالية تأكيد للاستبعاد والتعجيب أي بعد معرفة الحكم الإلهي الحاسم على لسان النبي ﷺ يتولون بعد هذا الحكم الإلهي العادل وتأمل : « من بعد ذلك » وجاءت ثم مبينة تفاوت حاليهم من الإقبال على التحكيم ثم الفرار والهرب ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/٢٠٤ .

(٢) راجع أسرار التكرار للكرماني ص ٢٠٣ .

وهذا مؤدى التراخي الرتبي والزمني معًا ، ولذا جاءت الجملة الثالثة قاطعة مؤكدة نفي إيمانهم واسمة لهم بالعتو والمكابرة محقرة من شأنهم باسم الإشارة للبعيد تمييزًا لهم أكمل تمييز ، كما أنها تومئ إلى علة الإعراض والتولي وهو عدم الإيمان[1].

الاستفهام في خطابات المخلوقين لله تعالى

وقد مر من ذلك «لم كتبت علينا القتال» وأنه تمن للتيسير ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) فقولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ جعله الزمخشري تعجبًا وأيده فودة ، ونقل أبو حيان مجموعة من الآراء كالتعجب ، والاستعظام والتقرير والاستفهام المحض وهي بعض ما أورده الرازي في تفسيره ، فقد زاد الدعاء أو أن الآية مختصة بملائكة النار ، أو من هم جند إبليس ، أو أن الاستفهام حقيقي وهو مروي عن أبي مسعود وناس من الصحابة ، واستحسن أبو حيان رأي أحدهم وهو أن الاعتراض إنما كان من إبليس وهو في جملة الملائكة ، وأن التسبيح والتقديس كان من الملائكة بدون إبليس ، فانقسم الجواب قسمين كانقسام الجنس صنفين ، وهو غريب لا سند له ومن جمع بين الأقوال في قول واحد أبو السعود ، فجعله تعجبًا واستكشافًا لما خفي عنهم ، واستخبارًا يزيح شبههم ويرشدهم كسؤال المتعلم ، وأعجب منه النيسابوري فلخص الرازي جامعًا بين ما ذكر من آراء فجعله تعجبًا واستعظامًا وتقريرًا وطلبًا لوجه الحكمة ، ولا أدري كيف تجتمع هذه المفاهيم في أسلوب واحد ، والقول بالتعجب رده الطبري قبل ذلك بأنه لا دليل عليه ، وأيد القول بأنه استخبار واستعظام بما روى عن جمع من الصحابة كابن عباس

---

(١) راجع البحر المحيط ٣/٤٩٠ وأبا السعود ٣/٤٠ .

وابن مسعود وقتادة : أن الله جل ثناؤه أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة يكون له ذرية يفعلون كذا كذا فقالوا أتجعل ... ويكون استخبارا عن حالهم عند وقوع ذلك ومسألتهم أن يجعلهم الخلفاء حتى لا يعصوه وهو رأي طيب ومثله رأي الزركشي والسيوطي أنه استرشاد وهو أدق[1]، ومن قول موسى عليه السلام فيما حكى القرآن ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ (الأعراف:١٥٥) فهو دعاء أي لا تهلكنا[2].

وقد جاء سؤال على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقد سبق صفوة القول أن أي سؤال من المخلوقين لله تعالى ليس فيه شيء من التعجب ، بل كان حقيقيًّا أو استرشادًا أو دعاء ، ولم أعثر على رابع وذلك ما يتناسب ومقام الألوهية الجليل .

الهمزة وفعل الرؤية

وقد سبق دخول الهمزة على الرؤية المتيقنة (ألم تر ـ ألم تروا ـ ألم يروا) معداة بإلي غالبا ، وقد كثرت أساليبها في القرآن ونمكن أن نثبت أهم الأغراض التي جاءت فيها الأساليب :

١- التنبيه والتعجيب ، وإثارة التأمل والتدبر في مظاهر خلق الله ، وآثار قدرته وآياته المبثوثة في الكون وأكثرها في شكل لوحات باهرة وزعت أجزاؤها في تناسق ودقة معجزة كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ (النور:٤٣) .

---

(١) راجع في الآية الطبري ١٦٥/١ والنيسابوري عليه ٢١٦/١ والكشاف ٢٧١/١ والرازي ١٥٩/٢ وما بعدها والبحر المحيط ١٤٢/١ وأبا السعود ٨٢/١ والبرهان للزركشي ٣٣٨/٣ والإتقان للسيوطي ٨٠/٢ .

(٢) راجع الرازي ١٦٩/٢ والبرهان ٣٤١/٣ والإتقان ٨٠/٢ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾(لقمان:٢٩) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر:٢٧) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(النحل:٧٩) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

(الملك:١٩) .

٢- جاءت في التعجيب من قهر الله وانتقامه المحيط ممن جحد وأنكر واستكبر ، وهذا الانتقام قد يعجب من وقوعه ، ويعدد ألوانه ، ويهدد من يسير على نهجهم.

كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ .

٣- التعجيب من المكذبين ، وسلوكهم ، ومواقفهم من الدعوة وأصحابها على مدى القرون : كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) وفي النمروذ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ (مريم:٧٧،٧٨) نزلت في الوليد بن المغيرة أو العاصي بن وائل وهو الأشهر[1] ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ (الجاثية:٢٣) ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ

---

(١) راجع الكشاف للزمخشري ٥٢٢/٢ .

بِٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (العلق:٩-١٢) والآيات تقبيح وتشنيع وتعجيب من أبي جهل وأحواله الكافرة ، وإيذان بأنها ، من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى معه الرؤية ، فالفاعل عام مبالغة في تجريم الفاعل وفظاعة الفعل ، ولا يجوز أن يكون الفاعل هو رسول الله ﷺ كالآيات التي سبقت الاستفهام إذ العبد في الآية هو الرسول الكريم ﷺ ، ذلك أن أبا جهل هدد في ملأ من قريش أن يطأ عنق محمد إن رآه يصلي . فرآه فجاء ثم نكص حين أبصر أمامه خندقًا من نار وهولا[1].

٤- التعجيب من أحوال المؤمنين ترقية وتنقية وتربية وإعدادًا وقد مر[2].

موازنات :

جاء التعجب أو التعجيب بالهمزة وكيف وما الاستفهامية مدخوله لحرف جر نحو بم ولم أو داخلة على اللام الجارة لياء المتكلم أو كاف المخاطب مطلقًا نحو ما لي وما لكم . وقد سبق استعمال الهمزة ونذكر ما سواها فكيف كقوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٨) وأنى كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام:٩٥) وما كقوله تعالى ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ (النساء:٨٨) وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (فصلت:٢١) ولا بأس من تحليل يسير لهذا التنوع الأسلوبي .

والهمزة للتعجب من الفعل ذاته ، وكيف وما بعدها خاص بجهة من جهات الفعل كالحال والسبب والمكان وهو أقوى في إفادة التعجيب وما معه من

---

(١) تفسير أبي السعود ١٧٩/٩ .

(٢) راجع في أساليب الرؤية المعجم المفهرس ص ٢٨٠ وما بعدها .

معنى كالإنكار ، إذ التعجيب أو الإنكار من الهيئة التي يكون عليها الفعل أو من سببه أو من مكانه كناية وبرهان على إنكار الفعل من باب أولى إبلاغًا وتصويرًا ، ولذا يكون في مقامات قوية مثيرة وإن اختلفت الأساليب اختلافًا يعين نوع الأداة .

تأمل قوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قال ابن الشجري والحال تشبه الظرف لأنها عبارة عن الهيئة التي يقع فيها الفعل ، فهو إنكار وتعجيب أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها كقولك أتطير بغير جناح ، وقل موجود لا ينفك عن حال وصفة ـ كما ذكر في الكشاف ـ فهو إنكار لوجود الكفر على طريق الكناية والبرهان .

وإذا كان الإنكار بالهمزة يؤذن باستحالته في نفسه أو لقوة الصارف عنه ، فإن الإنكار بكيف أقوى وأبلغ في ذات الأسلوب لهذه الكناية الدالة ، والحال : صعدت التعجيب بل أخرجت الكفر في صورة المستحيل لوجود ما يحتم الإيمان لا الكفر ، وأتى بالفعل مضارعًا لأن المتعجب منه هو الدوام على ذلك ، وقد قدر الزمخشري وتبعه السكاكي وأبو السعود محذوفًا هو العلم والحال الحقيقة تعلقت بها الجملة ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ وما عطف عليها لاشتمالها على أفعال بعضها ماض وبعضها مضارع والتقدير « وأنتم عالمون بهذه الموانع من الكفر » وأدرج فيه البعث مع أنهم منكرون له تنزيلاً لهم منزلة العالمين لنصب الشواهد عليه لو أعملوا عقولهم ، ولم يرتض أبو حيان ذلك وجعل الحال ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ فقط على إضمار قد ، وقوله ثم يميتكم ابتداء إخبار ، ولذا غاير بحرف العطف ثم وبصيغة الفعل ، والواقع أن صياغة الحال جاءت على النهج القرآني من الاستدلال بالمشاهد على الغيبي ، وأعني الاستدلال بالعدم والخلق الأول على البعث والإحياء الثاني أو إنبات

الأرض بعد موتها على البعث ، فالخلق الأول ومقدورات الله في الوجود من براهين القرآن على البعث وهذا يدعم رأي الزمخشري[1].

والتعبير «مال» قد يصور مع الأسلوب إثارة التعجيب إلى مداه ، وبخاصة حين يكون للألفاظ ظلال مديدة أو يتعانق التركيب مع صورة بيانية كقوله تعالى عن كفار قريش ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر:٤٩-٥١) ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ (المعارج:٣٦،٣٧) والآية الأولى أتت بعد تساؤلات أصحاب اليمين للمجرمين : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ ، ثم اعترافات المجرمين المطولة باتهامهم ، وينتقل الأسلوب دون فاصل إلى ذات المجرمين في الدنيا فإذا كان حال المجرمين هكذا فما لهم معرضين ، والاستفهام عن السبب إنكار وتعجيب من حالهم وهو الإعراض لغير سبب وهو تعجيب بالغ ، وقد جاء معرضين حال بعدها حال منها فهي حال متداخلة أبرزتهم في تشبيه عجيب ، أي مشبهين حمرا أي وحشية وهي صورة نافرة ساخرة قافزة ، فقد صورهم بالحمر الوحشية وهي أشد حيوان الصحراء نفارا ، ولذلك كانت أكثر تشبيهات العرب للإبل في سرعة السير بالحمر في عدوها إذا وردت ماء فأحست ما يريبها ، والحمر في دلالته القرآنية خاص بالوحشي منها دون الحمير الخاص بالمستأنس ، ثم إن هذه الحمر مستنفرة بذاتها حتى كأنها تطلب النفار من أنفسها لأنه من طبعها ، فإذا انضم إلى هذا النفار الذاتي مثير مرعب خارجي هي القسورة : الأسد شديد القسر عظيم البطش أخرج أقصى نفارها خوف الموت أنها تتحول مثلاً للنفار الطائر اللاهث ، وقد سيطرت هذه الصورة على الأسلوب حتى ما تجد كفاراً معرضين بل حمرا

---

(١) راجع في الآية الأمالي الشجرية ٢٦٣/١ والكشاف ٢٦٩/١ والبحر المحيط ١٣٠/١ ومفتاح العلوم للسكاكي ص ٢١٤ وأبا السعود ٧٧/١ وحاشية الشهاب ١١٠/٢ .

نافرة هلعة ذما وتهجينًا وتعجيبًا[1]، والآية الثانية تسمهم بالكفر ذما وتعجب من إعراضهم وإهطاعهم وهو «مهطعين» لفظ مصور لإسراعهم مع مد الأعناق وإدامة النظر تعجبا ، فهو تعجيب من تعجبهم الذي صور على نحو يثير التعجب أيضًا ، ثم هو دال على إعراضهم الخاص واندهاشهم فلم يتحروا الميامن التي يحرصون عليها نزولا على أعرافهم بل توزعوا فرقا وشراذم تتجمع عن اليمين وعن الشمال[2] .

وكذلك أنى كما سبق في قوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وقد جاء على لسان زكريا ومريم عليهما السلام وما اختلف في تأويله العلماء من قول زكريا ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران:٤٠) وفي سورة مريم ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم:٨) ومن قول مريم ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ (آل عمران:٤٧)[3] وفي هذه الأساليب يرى الزمخشري أن الاستفهام للاستبعاد ورده أبو حيان بشأن زكريا عليه السلام لأنه لو كان استبعادًا لما سأله بقوله ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ قبل ذلك ونقل عدة آراء يدور أكثرها على الاستفهام الحقيقي ، فهو سؤال عن الكيفية أو أنه استعلام أو استعلام على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى ، أو استعلام مراد به الدعاء ليقويه على الإنجاب ، ولم يذكر فيه تعجبا ، ويرى أبو السعود أنه استعظام لقدرته تعالى وتعجيب منها واعتداد بنعمته عز وجل لا استبعادا ، والواضح أنه استفهام على سبيل الاستعظام ، وجملتا الحال صعدت معنى

---

(١) راجع في الآية أبا السعود ٦٢/٩ ونظم الدرر ٧٧/٢١ .

(٢) راجع في الآية أبا السعود ٣٤/٩ ونظم الدرر ٤١٢/٢٠ .

(٣) والآية مع تغيير فيها في مريم ٢٠ .

الاستعظام لأن ذلك بعيد عادة ، ولذا فما ذكره فودة من أنه تعجب واستبعاد رده العلماء قبل كما أن التعجب لا يصدر من عبد لربه[1].

بلوغ التعجيب مداه :

وحين يراد البلوغ بالتعجيب والتنبيه إلى ذروته تجد أن الأساليب تدل بمعانيها وتراكيبها ونظمها أو كيفية صياغتها مع الجمع بين أداتي استفهام دالتين على التعجيب وذلك في أساليب معدودة[2] كقوله تعالى موجهًا إلى هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (الفرقان:٤٥،٤٦) وهي آية من آثار سنن الله الكونية وهي دوران الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس ، ولو شاء ربك ما كانت هذه الآية ولا سببها فأمسكها وأسكن الظل وهي كناية ـ بالمفهوم العلمي ـ عن انتهاء الحياة ، ثم إن امتداد الظل في بطء وجه النهار وقبضه آخره لا يكاد يدرك إلا بإمعان وملاحظة خاصة . وهذا توجيه إلى بديع صنع الله دلالة على الوحدانية الحقة ، والإبداع في الصنع قابله بلاغات الأسلوب من كثرة المتقابلات من المد والقبض ، والظل والشمس والحركة المفهومة والسكون المنصوص عليه ، والالتفات من غيبة إلى حضور مع تكرار فعل «جعل» الدال على التصوير والإبداع ، والآية ضمن آيات ترسم مشاهد عريضة معجبة لآثار قدرة الله في الكون .

ووازن بين الآية السابقة وآية النحل في الظل أيضًا ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ (النحل:٤٨) ويتفيأ ظلاله : يرجع شيئًا فشيئًا من جانبي الأشياء مدا وقبضا ، وأثبت لجانبي الأشياء يمينا وشمائل كما أثبت للظل سجودا ، وبديع التصوير

---

(١) راجع في الآيات البحر المحيط ٤٥٠/٢ وأبا السعود ٣٣/٢ وأساليب الاستفهام ص١٥٧ .

(٢) المعجم المفهرس ص ٢٨٠ .

أن الظل واقع على الأرض التي يكون عليها السجود وهو الخضوع رشحه بقوله ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ فمنح الظل للأشياء حياة وحسا هو الدخور بمعنى الانقياد والاستسلام ، ثم إن الآية عالجت الموضوع بإيجاز وانضم إليها آية سجود الخلق لله تعالى في معرض الرد على المشركين في تعديد الآلهة ، فكأن الظل هنا استثمر في غرض آخر ، ومن هنا لم تأت كيف بل رأى بعض العلماء أنه استفهام إنكاري أو توبيخي أو تعجيبي من اتخاذهم شريكا لمبدع هذه الآيات أو للاعتبار[1]، ولا مانع أن يكون للتعجيب والتوبيخ والاعتبار وقد يبلغ التعجيب والتهديد مداه في مثل ذلك من اجتماعي أدائي استفهام تعجيبي كآية الفيل وآية الفجر[2] وهذه النماذج دالة على ما وراءها .

الاستفهام بمعنى الأمر :

ودلالة الاستفهام على الأمر يعطي لونًا من الإثارة والتشويق ، وسياسة النفوس والتأثير فيها . وإشراكها في عملية الاقتناع ، فهو يزيد على الأمر الصريح بصيغه المعهودة هذه المعاني الإضافية ، ولذا كانت له مقاماته الخاصة ، من ناحية ومن ناحية أخرى ، يمثل قمة الطلب ، إن صح التعبير ، ومن هنا فغالبًا ما يسبقه في النسق الأمر الصريح ومن أساليبه :

الدعوة إلى الإسلام كقوله تعالى ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠) وذلك بعد شهادة الله بالوحدانية وتقرير أن الدين عند الله الإسلام ، قال الإمام الرازي : المقصود منه الأمر ، قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة استفهام لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه إلا أن التعبير به فائدة زائدة وهي أن

---

(١) راجع البحر المحيط ٤٩٦/٥ وأبا السعود ١١٨/٥ .

(٢) راجع في الآيتين أبا السعود ١٥٥/٩ ، ٢٠٠/٩ .

المخاطب معاند بعيد عن الإنصاف . لأن المنصف إذ ظهرت له الحجة لم يتوقف في قبولها ، ومع أن الإمام الرازي كأبي حيان وأبي السعود نقل عن الكشاف[1] تحليله البلاغي انفرد بفكرة الإنصاف والعناد وظهور الحجة ، وهي أثر من آثار تعمقه العقلي ، ولذا لم يوف جانب الوجدان حقه كما أن قاعدته ليست مطردة ، بل إن الأساليب قد تفيد ألوانًا من المعاني وظلالها ليس فيها عناد المخاطب ، وقال تعالى حاكيًا عن سحرة فرعون : ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الشعراء:٣٨-٤٠) قال الرازي نفسه : «المراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين» والأسلوب عند أبي حيان : استبطاء مقصود منه الاستعجال . ويفهم منه الأمر ، وعند أبي السعود : استبطاء وحث جاء الأمر في صورة الاستفهام ليمثل رغبة جارفة يلعب فيها التعصب القومي دورًا ، ولذا صيغ الفعل «قيل» كان الحث على الاجتماع انداح في الوادي على كل لسان[2].

ومنه قول المؤمن في الجنة لمن معه عن قرينه الذي كان في الدنيا ينكر البعث ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات:٥٤،٥٥) أي تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين ، وفهم الرازي من صياغة الفعل أنه «تكلف أمرًا اطلع معه لأنه لو كان مطلعًا بلا تكلف لم يكن إلى إطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم أنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار» ولذا قدر الكشاف قبله مفعولاً أي مطلعون إياي»[3] والحق أن لا تكلف هناك وأن لا حجاب يحجز الرؤية

---

(١) راجع الكشاف ٤١٩/١ والرازي ٢١٣/٦ والبحر المحيط ٤١٣/٢ وأبا السعود ١٩/٢ .

(٢) راجع الرازي ١٣٣/٢٤ والبحر المحيط ١٥/٧ وأبا السعود ٢٤٢/٦ .

(٣) راجع الرازي ١٣٩/٢٦ والبحر المحيط ٣٦١/٧ وأبا السعود ١٩٢/٧ .

والصوت بين الجنة والنار ، ثم إن القراءات في مطلعون تدل على أن صياغة الخبر ملائم لمعنى الاستفهام وهو إثارة التشويق والأمر بلطف وتودد .

ومنه لآل داود : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٨٠) فهو أمر يتودد وامتنان على المؤمنين وقد بسط هذا المعنى في سورة سبأ ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سبأ:١٠،١١).

ثم لما عدد النعم وأكثرها خاص بآل داود أمرهم صراحة بالشكر ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ:١٣) ودخول هل على الجملة الاسمية في هذه الأساليب أدل على طلب الحدث[1] مع وضوح هذا عند البلاغيين ندفع البحث خطوة لنعقد موازنة بين قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ لأهل الكتاب «أأسلمتم» التي سلفت وبين قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ والمؤمنين بعد آية المعاجزة في سورة هود ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود:١٤) والضمير لكم ، بالجمع للمؤمنين بقيادة النبي الكريم جبهة واحدة وصفا كالبنيان المرصوص ، ومجيء الاستفهام بعد شهادة التوحيد أمر بالثبات على الإسلام ، والإخلاص فيه وهو من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين كما قال أبو السعود[2]، لأنه للمؤمنين المخلصين الذين محصهم البلاء والجهاد الطويل الصابر ، وهو أقوى من آية أهل الكتاب المدنية «أأسلمتم» وإن كان الفعل ماضيًا تبليغًا وحكمة في الدعوة وترغيبًا فيها ، ثم إننا نلمح في هذا الماضي مع ما سبق إلماحا من وجه آخر فيه إعجاز وهو أن طبيعة أهل الكتاب من التعالي وبخاصة اليهود من الحقد الأبدي يجعلهم ولا مستقبل لهم في الإسلام على العموم فإجابتهم

---

(١) راجع في آية الأنبياء : الطبري ٤١/١٧ والبحر المحيط ٣٣٢/٦ وأبا السعود ٨٠/٦ وفي آية سبأ البحر المحيط ٢٢٦/٦ .

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٩٢/٦ .

غير محققة ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي لا تبال بهم فالله مجازيهم وقد أديت ما عليك ، ولكل مقام مقال .

استفهام التمني :

والتمني المفاد بالاستفهام يصور أملاً قويًا ، ورغبة عارمة ، وأمنية قافزة مسيطرة قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (الشورى:٤٤) ووازن بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(الأعراف:٥٣).

ومن آيات الشعراء التي فيها : ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:٩٦،٩٧) وفي السياق ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٠٢) .

ومن تهديد القرآن ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٨) وتمني المعذبين العودة إلى الدنيا إنما يعكس حسرة وندمًا وألمًا نفسيًا لا يطاق ، والتمني يعين الأسلوب كله على تصويره فهم يأتون بالمادتين «رد» و«كر» من الفعل المضعف الدال على الرد بقوة وسرعة ، ولذا لم يعبروا بالفعل نرجع أو نعود استطالة لزمنه ثم إن للمعذبين مواقف ، ولتمنيهم درجات ذلك أنهم حين يرون العذاب وأهواله قبل معاناة ويلاته تكون الرغبة جارفة قوية والأمل حيًا حارًا في الهروب أو العود إلى الدنيا كما عبر القرآن : ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ الآمال السارية والأماني المرتجفة يغذيها التجمع وينميها تعدد المؤمنين وبخاصة حين يرون عدوا

لا يرحم ، إنه تصوير غريب لقانون نفسي اجتماعي حيثما كان بشر . ولما كانت الفرصة لما تفت بعد في نظرهم تقفز إلى أذهانهم فكرة الشفاعة والشفعاء ، أما التمني بليت : فحين واجهوا النار ووقفوا عليها بدء دخولهم فيها ، فهنا يكون التمني حقيقة لأمر محال أوجد بعيد فهم بعد لم تخمد جذوة الآمال فيهم ، أما لو وهي أصلاً للامتناع فكأنها رجع صدى بعيد أنهم يقولونها بعد أن مر بهم فنون من العذاب ، ففي آية الشعراء : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وجملة التمني إحدى جمل نقلها القرآن عنهم من قعر جنهم حيث الإبلاس المطبق والعويل والندب والأنين ، ولذا كثرت حروف اللين والغنة وتمنيهم الكرة بلو أمل غارب وحلم عازب ونفثة مصدور وآخر مقطع في جؤارهم الناري الرهيب ونعوذ بالله .

أما لو في آية الزمر وقد جاء على لسان نفس مفردة رأت العذاب فيبدو والله أعلم ـ أن الإنسان القاصي عن جمعه حين يرى الهول الأعظم يفقد عقله ويجثم عليه اليأس ويضخم خياله ما يراه فلو هنا أدل على تصويره من أية أداة أخرى .

ثم إن محاولة الهرب أو البحث الجاد عن مفر جاء في آيات القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ والمفر : الفرار يأسًا من العثور[1] على طريق الفرار نفيًا للفرار من باب أولى وفيه الحسرة واليأس والضياع .

استفهام التشويق :

وأسلوب التشويق أسلوب بلاغي نفسي راق تأدى في البلاغة بوسائل عدة من التقديم والفصل بين الجمل والإبهام والتفسير ، والتوضيح ، والتوشيع وغيرها وفي الاستفهام جاء بهل أكثر من غيرها .

---

(١) راجع التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٢٢١ .

والملاحظ في أساليب التشويق :

أن هل تدخل على فعل يدعم التشويق بصيغته كما يصعده بمتعلقه والأفعال التي دخلت عليها هل : أنبئ ـ أدل ـ أتاك ـ والفعل الأول جاءت أساليبه مدخولاً لهل بعد الفعل قل : خطابًا للنبي ﷺ مأمورًا بالتبليغ تمهيدًا لشيء خطير من نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٣،١٠٤) والأسلوب يبين المفارقة الغريبة بين الاعتقاد الآثم الخاطئ والواقع المر الأليم ، والجناس هنا يومئ إلى شيء من التهكم .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٦٠) .

والأسلوب غريب الصياغة كثير الظلال ، فالآية بعد آيات وضحت سخرية أهل الكتاب من الإسلام وشعائره ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (المائدة:٥٨) لاعتقادهم أن الإسلام شر محض لدعوته إلى الإيمان بالرسل ومنهم عيسى عليهم السلام وانظر الاستدراج : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ مجاراة لهم ، أي بما هو شر في الحقيقة مما تعتقدون شرًا وهو خير محض وقال : مثوبة والأصل عقوبة لأن المثوبة في الخير والعقوبة في الشر على حد : تحية بينهم ضرب وجيع ، ثم استأنف جوابًا عن سؤال مقدر ، وكأنه ترك منطقة ظل أو سكتة تعين على الاستيعاب : والجواب : من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير : بتركيز الغضب والمقت لتكرار لفظ الجلالة وتهويل اللعن والغضب ، ثم مسخهم في صورة أخس المخلوقات قردة وخنازير ، ومن أبخس منهم وهم عبدة الطاغوت ، وعلى هذا فالجملة الاستفهامية كانت مقدمة تستقطب الأذهان وتستولى على القلوب لصياغتها المثيرة ، ثم إن التشويق هنا داخل فيما يراد نقيضه تهكمًا وسخرية كجعل

الخير شراً والعقوبة مثوبة ، ثم انصب عليهم الأسلوب كقطع العذاب إهانة وجزاء وفاقا وتعبيراً لجنسهم ، فهم في الإثم سواء ثم تحقيق الشر بالكناية المصورة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

وهذا مناسب للتعبير بالفعل أنبئ إذ النبأ ما له شأن وخطر[1].

ونحوه ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢١-٢٢٣) والآية جاءت في سياق حاسم يفصل بين القرآن العزيز وبين ما ادعاه الكفار من أنه سحر أو كهانة أو شعر ، وهي أمور لها أهلها بسماتهم الخاصة ورذائلهم التي يشمخون بها ، وطبائعهم غير السوية ، وهم بذلك مؤهلون لتنزل الشياطين نفثًا للشر أو تأجيجًا له .

والمراد بالشعر ما بعد منه عن آفاق الخير والحق والقيم الجميلة المبثوثة في الكون وسحر الفن لخدمة الإسفاف ، وفي الآية مع الإثارة والتشويق إلى الخبر بيان للحق الدامغ ثم تبكيت لهم على أخلاقهم التي بدئت بالإفك وختمت بالكذب .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (الحج:٧٢)[2].

والمنكر في وجوههم معناه الإنكار ، والتجهم الباسر أنه يلتقط لهم صورة متحركة فريدة ، حتى يسمعون القرآن تربد وجوههم وتتلون وقد ركبهم شيطان الغضب «ويكادون يسطون» تصور تتابعا صوريا من غيظ غلاب واستعداد

---

(١) راجع أبا السعود ٣/٥٤ .

(٢) المرجع السابق ٦/١٢٠ .

للوثب الجامح والبطش الأعمى والثورة النفسية الخرقاء على من يتلو القرآن عليهم ، والرد كان على المستوى المثير وأعلى ﴿ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ في سرعة عتيدة جملة قصيرة بدئت بالهمزة قصيرة الحركة ، وفعل ينبئ بما له من دلالة خطيرة لبيان ما هو أفظع وأكثر شرًّا من ثورتهم ، والأسلوب في سرعته وحدته وسخريته يطوي حذفًا كثيرًا : جملة المعطوف عليه بالفاء ، وحذف الموصوف إبقاء على الصفة «شر» جبها لهم ولطما مع هذا التشويق الساخر لما لا يشوق إليه من شر : ثم يذكرها القرآن لفظة واحدة ، راجفة هائلة وإذا كان غضبهم المتلمظ ـ على المؤمن ـ قطعا من نار على المجاز ، فالجزاء النار كلها حقيقة بشعة حاضرة معدة لهم أننا نحس بالتبكيت والغضب والسخرية والوعيد رهيبة متداخلة إنها سخرية المقتدر من هذه الدمى الفانية .

ولو وازنت هذه الآية بالتي قبلها لوجدت الأسلوب بعد هل أطول نفسًا وأمد نسقًا ، وفي مقامات الغضب لا يصل في هوله وإرعاده إلى أسلوب الهمزة وظاهرة القصر المحلوظ في أسلوب الهمزة عن أسلوب هل نجده أيضًا في مقامات الرضا والتشويق ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ (أي متاع الدنيا) ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (آل عمران:١٥) وكذا جاء فعل أدل بعد هل ملحوظ فيه الطول ، كقوله تعالى من نصح أخت موسى عليه السلام ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الصف:١٠،١١) وفي الآية الأولى دل التنوين في «بيت» على التنويع أي بيت كريم وجملة الحال ﴿ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ دالة على تجدد ذلك وانقطاعه وفق إرادتكم أما الجملة الثانية ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ بالاسمية فهو ثبات النصح أبدًا صفة لازمة لهم ، والتشويق هنا من صيغة الفعل أدل لأن الدلالة هي الهداية مع الثناء على أهل بيت وهي

صفات قل أن توجد في حاضنة ، وكانت الأخت جد صادقة بل مقتصدة في الوصف لأن الحاضنة هي أم موسى مفزعة الحنين . كما أن الأسلوب يشي بهذه المشاعر الأخوية البيضاء المفعم بها قلب الأخت .

وفي الآية الثانية تشويق مثير بعد هل بالدلالة ، ثم التركيز على ما يحبون ويتقنون وهو التجارة التي سيطت بدمائهم ، ثم هي تجارة خاصة لا تتعرض لمطالب الجسد والبطن بل تنجي وتنفذ من عذاب خالد ليصل التشويق مداه ، ومن منا لا يحرص على ذلك أكثر من حرصه على روحه ، وفيه حث وإغراء وإذا لم ينتظر منهم جوابًا بل اندفع يطفئ الشوق النفسي بما شوق إليه ، ولذا لحظ الفراء فيه الأمر لأن الإغراء كما يقول الرازي أمر[1] .

وهو رأي - وإن كان ليس الأقوى - يدل على قوة التشويق والحث .

والتعبير «هل أتى» يمكن ببعض التسامح أن يقال إنه يجيء على نحوين في القرآن الكريم :

١- ما أفاد التشويق والإثارة والتمهيد لغريب الأنباء وهو بمثابة إعلان أو عنوان مثير جذاب يستولى على الاهتمام إصغاء وإفادة ، وفيه لون من التسرية والتسلية والعبرة للنبي الكريم ﷺ ، فكثيرًا ما يدخل بدء قصة جليلة أو افتتاح حلقة مثيرة منها وفيها ما يعين الدعوة ويدفعها في جهادها العاتي ، من ذلك قوله تعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (الذاريات:٢٤) ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ (طه:٩) ، (الذاريات:١٥) ﴿ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾ (ص:٢١) ونلحظ إيثار الفعل أتى على الأفعال القريبة في الدلالة ، نحو جاء لأن الإتيان هو المجيء بسهولة والمجيء أعم كما تلحظ إيثار لفظ حديث أو نبأ إشعارًا بأنه من الأحاديث البديعة التي يتناقلها الرواة ويتنافس

---

(١) راجع التفسير الكبير للرازي ٣١٦/٢٩ .

في حفظها الوعاه في كل مجتمع[1]، ذلك أن لفظ الحديث وإن كان عام الدلالة لكنه جاء فيما له خطر ، وقد أطلق على القرآن ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ وما يتناقله الرواة من العجائب مفرد أحاديث كقوله عن سبأ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ .

٢- أنه يأتي مفيدًا للتقرير والتحقيق وتوجيه النظر إلى ما في الأسلوب من عبر تثير التأمل كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وقريب منه وإن لم يكن خطابًا مباشرًا ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان:١) أما الآية : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ (الغاشية:١) فقد حكى فيها أبو السعود الرأيين ورجح أنه استفهام تعجيب مما في خبره وتشويق إلى استماعه ، وقال أبو حيان : إنه توقيف لتحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر ، وقيل إن هل بمعنى قد[2]، وقوله الأول مضطرب لأن التوقيف عنده يماثل التقرير وهو ـ رحمه الله ـ قد يطلق التقرير على ما يعد تشويقًا كقوله ذلك أعني التقرير في الآية ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ على أن مفهوم التوقيف عنده غير محدد ، فهو يتناول التقرير والإنكار والتشويق والذم وغيرها مما يتنافى مع دقة المصطلح . وهل التي تفيد التقرير هنا قريبة من الهمزة الداخلة على لم والفعل يأتي في التعبير ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ وهو تعبير خاص بالكافرين دنيا وأخرى كقول الملائكة للكافرين الذين سيقوا إلى جهنم زمرا : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾(الزمر:٧١) وفي سورة الأنعام ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنعام:١٣٠) وفيه تقرير وتبكيت .

---

(١) راجع تفسير الرازي ١٨٩/٢٦ ، ٢١٠/٢٨ وأبا السعود ١٤٨/٩ .

(٢) راجع البحر المحيط ٤٦٢/٩ وأبا السعود ١٤٨/٩ وتفسير الرازي ١٥٠/٣٠ .

وفي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ (التغابن:٥) ومثله الآية ٩ من سورة إبراهيم ، وفيه مع التقرير الترهيب من مصارع المكذبين ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ (البروج:١٧،١٨) ولعل هل في سورة البروج هي الوحيدة - في هذه الأساليب - الدالة مع التقرير على الشدة والتعريض بالتهديد لمن سار على درب الطغاة ، وقال البقاعي ذكره تخويف لقومه وتسلية له عليه الصلاة والسلام ، والتعريض أولى لأن الخطاب مباشرة مع النبي ﷺ[1].

ودلالة هل هنا مناسبة لنسق السورة وإيقاعها الغضب الشديد ، أما الهمزة فيما سبق فقد أفادت الإنكار والتبكيت لأنها بعض دلالتها . وواضح مناسبة الفعل أتى دون جاء في هذه الأغراض تلاؤما لما فيه من المجيء بيسر وسهولة .

* * *

(١) راجع تفسير الرازي ١٢٤/٣٠ والبحر المحيط ٤٥٢/٨ وأبا السعود ١٣٩/٩ .

النـــداء

وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف نائب مناب أدعو ، وأدواته الهمزة وأي ويا وأيا وهيا ووا ، فمنها ما ينادى به القريب ، الهمزة وأي ، وباقي الأدوات لنداء البعيد .

والنداء لون من الخطاب ، ولا يكون إلا في أمر هام وحين يعظم هذا الأمر ، يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي كالأمر والنهي والاستفهام . وغالبًا ما يتقدم النداء لضمان اهتمام المخاطب وإصغائه والتفاته وتتبعه لما يلقى عليه ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة:٢١) ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (الزمر:١٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (المزمل:١،٢) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ (هود:٥٢) .

وقد يتأخر النداء نحو : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١) وكأن فيه إغراء على التوبة بهذا النداء الحبيب بهذا الوصف الشريف، وقد تأتي بعده جملة خبرية كالإعلام بضرب مثل يعقبها جملة الأمر قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ ﴾ (الحج:٧٣) ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ (هود:٦٤) وقد يقتصر على جملة الخبر نفيًا أو إثباتًا دون أمر لبالغ أهميتها ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف:٦٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:١٥) وقد يأتي الاستفهام بعد النداء كقول إبراهيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٤٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ (التحريم:١) .

وقد يكون الأمر جد خطير فتتضافر أدوات التوكيد وتتكاتف في تركيز نافذ كأن يتعلق الأمر بالتقوى حذرًا من زلزلة الساعة الرهيبة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج:١) وقد يحدث تغير في الصياغة للمنادى ليصغى سمعه إلى جليل مؤكد يلقى إليه كوصايا لقمان ، وهي تمثل خلاصة حية لتجارب والد حكيم يسوقها إلى ابنه في حنان حازم كما أنها ترسم منهاجًا طيبًا لحياة فضلى ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) ومنها ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان:١٧) والنداء مرتبط بخطابات مختلفة تستدعى هذا النداء ، فمنها : خطاب العين : أي الاسم المعين كقوله تعالى : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ (هود:٤٨) ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ (الصافات:١٠٤،١٠٥) ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ (القصص:٣١) ولم يقع في القرآن خطاب مباشر بـ يا محمد بل يأيها الرسول يأيها المزمل ، قالوا : تعظيمًا وتشريفًا وتخصيصًا بذلك عما سواه ويسمى خطاب الكرامة .

كما أن الخطاب بالنبي في المقام الخاص به كقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام قليلاً مع قرينة إرادة العموم كقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ (الطلاق:١) أما الرسول ففي التشريع العام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة:٦٧) .

وقد يكون النداء بخطاب المدح : نحو: يأيها الذين آمنوا ، أو بخطاب الذم كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ﴾ ولتضمن الإهانة لم يقع في القرآن إلا مرتين ، ثم جاء الأسلوب على الغيبة إعراضًا وتحقيرًا ومثله : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فلم يذكر نداؤهم إلا مرتين ثم انطفأ ما كان لهم من نور ،

وأخذ يخبر عن جرائمهم كما ذكر أبو حيان . وهناك خطاب التحنن والاستعطاف ، ونحس تمهل الإيقاع في ترديد جميل كقوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) أو خطاب التودد والتحبب أملاً في الاستماع المثمر . كقول إبراهيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ (مريم:٤٤) وقول هارون لموسى ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ (طه:٩٤) بعد أن ألفى موسى ثائرًا لعبادة قومه عجلا من ذهب . ومن خطاب الجنس : ياأيها الناس : ومن أغرب مواقعها أنها تصدرت سورتين : سورة النساء في النصف الأول وهي مشتملة على شرح المبدأ وسورة الحج في النصف الثاني من القرآن وهي تشتمل على شرح المعاد ، قال الزركشي : فتأمل هذا الترتيب ما أوقعه في البلاغة[1]، وقد نجد نداءً واحدًا يتوجه وجهتين كالاعتبار في نداء صالح لقومه بعد هلاكهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف:٧٩) أما نداء الله تعالى باسمه الرب فقد التزم فيه حذف الأداة كما مر في الدعاء ، ولم تذكر إلا مرة واحدة حكاية عن النبي ﷺ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف:٨٨) وقد بلغ به الحزن مداه فانطلق يشكو في ضراعة إلى الله أعان عليها حرف المد في يا والله أعلم ، وفي نداء لفظ الجلالة الأفخم حذفت الأداة وعوض عنها الميم المشددة زيادة في التفخيم وقعا وجرسا مناسبة للسياق نحو ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٢٦) .

وحرف المد في يا جاء في القرآن معينا على تجسيد نواح المعذبين في النار ، إنك تكاد تسمع صراخهم الجريح وأصواتهم الهلعة الممطوطة ترتجف عذابًا وتنز ألما أن الحروف نفسها تنزف حرقة وبكاء ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ

---

(١) البرهان للزركشي ٢/٢٢٦ .

كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ (الحاقة:٢٥-٢٧) .. ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ (الفرقان:٢٨) وقد خرج النداء هنا إلى معاني التحسر والندم ، وإن أريد النداء فيما دخل على ليت فيكون على حذف المنادى إرادة العموم فهو أشبه بالاستغاثة والصرخة ، وفي الأول يا ويلتا دعاء الهلكة والحسرة وقد تجد من الدعاء ما حذف فيه الأداة مع تكرير المنادى : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾(المؤمنون:١٠٦-١٠٨).

وتكرار النداء «رب» أمنية هاربة في التفلت من العذاب . ومنه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٩) حكى الزركشي أنه المخاطب الواحد المعظم والمراد ارجعني ، وقيل رب استغاثة ، وارجعون خطاب للملائكة ، وقال السهيلي : هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب ، فاختلط ، ولا يدري ما يقول من الشطط وقد اعتاد أمرًا يقوله في الحياة من رد الأمر إلى المخلوقين وهي لفتة نفسية مصورة[1].

ومن معاني الأمر المجازية : التنبيه : كقول الهدهد في حكمة قريبة من حكمة رائده سليمان عليه السلام ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النمل:٢٥) مثنيًا على الله تعالى بما يصنعه له على مستواه . من إخراج الخبء كالحب والهوام ويا للأسلوب المعجز .

ومنه التحسر : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (يس:٣٠) بثًّا لهذا الشعور في نفس البعد حتى يتحسر على خسارة الظالمين .

ويا ينادى بها البعيد حقيقة أو حكمًا وقد ينادى بها القريب تعظيمًا لشأنه أو استقصار الداعي نفسه كقوله يا رب وهو هنا كما قال سيد شريف لا يقصد

---

(١) البرهان للزركشي ٢/٢٢٧ .

بندائه طلب إقباله عليه ، بل يقصد توجه قلبه إليه ما ينال بذلك مناه ، وعلى كل فهو من هضم النفس والإقرار بالتفريط في جانب الله مع أمل في إجابة الدعاء ، وقد قال الله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[1].

وقد ذكر الزمخشري تحليلاً للنداء «ياأيها» ولكثرة النداء به في القرآن : لأن فيه أوجها من التأكيد : التأكيد والتنبيه في «يا» والتنبيه في «ها» والتدرج من الإبهام إلى التوضيح في «أي» والاسم المعرف بعدها ، وتكرار المذكر واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه تناسبًا مع المقامات في إفادة المبالغة والتوكيد ، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده وقصص الماضين وغير ذلك ، وما أنطق الله به كتابه أمور عظام ـ وخطوب جسام ، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها فاقتضى الحال أن ينادوا بالأوكد الأبلغ[2].

ويلاحظ في النداء الإلهي في القرآن أنه شمل الإنسان كمفهوم لعام الناس ، وأفرادهم ، وأقوامًا بأعيانهم كالذين آمنوا ، والذين كفروا ، وبني إسرائيل . كما تناول بعض عناصر الطبيعة في مواقف القهر ، فهي تنادى لتؤمر ، ويكفي مجرد الأمر ليجاب تلقائيًا ، ولذا لم يذكر مرة واحدة جواب الأمر أو تنفيذه . قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ (هود:٤٤).

بل قد يحذف النداء ليوجه الأمر القاهر : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ومن تصوير القرآن لعالم غريب له لغاته ونظامه ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا

(١،٢) راجع الكشاف وحاشية السيد على الكشاف ٢٢٥/١ والشهاب ٣/٢ والإتقان للسيوطي ٢١٢/٣ .

مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:١٨)
وهو نداء وقول وأمر وتنبيه ونهي سببي واعتذار عن سليمان في إيجاز حكيم وهو حقيقة ، ولذا تبسم سليمان ضاحكًا ثم انخرط في دعاء متبتل ذائب للقادر الجليل الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى .

* * *

التمـــني

وهو طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى ، ولا يتوقع حصوله ، ولا يشترط إمكان المتمني . بل المهم هذه الرغبة النفسية الحبيسة الكامنة في القلب تنطلق في صورة التمني ، والتمني بليت وقع أكثره في الآخرة زمنا ، فهذا مؤمن يس يصوره القرآن قوة خير خالدة ونبع إيمان لا يغيض ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ إنه يتحدث عن نفسه وهو يقصدهم ويظل صوته منطلقًا بالدعوة ، حيًا لا يقطعه السياق حتى مع تبدل الأحداث ، إنه قتل شهيدًا ويدخل الجنة ومع ذلك ما زال لسانه في السياق لم يتوقف ، إنه يكمل خطبته الرائعة في الجنة ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس:٢٦،٢٧) إن الله يبلغ عنه وإنه لبلاغ باق خالد أن الأمنية المرحة الراضية أن يعلم قومه في طيبة قلب وبساطة نفس مؤمنة قد تحققت كما تحققت نظيرتها حين رغب شهداء أحد الأبرار أن يعلم إخوانهم ما أعد الله لهم ، كما جاء في الحديث ، فنزل القرآن بآيات آل عمران ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران:١٧٠) الآيات ، وفي المقابل تجد أمنيات الكافرين حارة حارقة وهم في النار أملاً في الفرار أو الرد للدنيا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ وقد صورهم يبحثون ويتمنون شفيعًا ينقذهم كعهدهم في الدنيا ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (الأعراف:٥٣) فهم يقيسون أحداث الآخرة على الدنيا ، ولذا أظهروا أملهم المحال في ثوب الممكن وهو الاستفهام تصويرًا لسيطرة هذا الأمل على قلوبهم[1] . وهل في التمني لها دلالة خاصة تختلف عن لو للتمني

---

(١) راجع البحر المحيط ١١٣/٣ والشهاب ٤٥/٣ .

التي تصور الأمل مخنوقًا يقذفه اللسان في حال يأس جاثم ، ثم ينحدر إلى قرار في سراديب أعماق محلولكة القنوط ، فلو تلتقي مع ليت ـ كما يقول الشهاب في معنى التقدير ، ولذا أقيمت مقامها وهو يعني مطلق التمني ، وإلا فإن لو لها مقامات المتمني فيها أبعد إحالة وامتناعًا ، وهو قريب من دلالتها شرطًا ، قال تعالى ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٠٢) قالوا وقد يتمنى بلعل في البعيد فتعطى حكم ليت كقول فرعون : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ (غافر:٣٦،٣٧)[1] وهذا الأسلوب دال على فورة من فورات النفس الطاغية المتكبرة في لحظة انفعال متجبر يخيل له الوهم أن المستحيل في متناول يده .

وقد سبقت بعض الموازنات في التمني في نهاية الاستفهام ، ويمكن أن نرتب دلالات التمني هكذا :

ليت للبعيد أو المستحيل مع أمل في تحققه ، ولو للمحال الذي لا أمل فيه ، وهل تصور المحال في صورة الممكن رغبة نفسية ، و« لعل » أقرب إلى الإمكان النفسي من هل ، ويؤيده قراءة « فاطلع » بالرفع على أن لعل على بابها من الرجاء .

أما التمني في عالم البشر فإن المرء يهرب إليه حين تفوق طموحاته واقعة المحدود ، ولذا يلجأ إلى أحلامه الحبيسة يصوغها أمنيات هفهافة وورودًا رفافة وعبقًا من عالم النفس المزدحم بالرؤى الهامسة ولهذا موطن آخر[2].

والحمد لله أولاً وأخيرًا ...

---

(١) راجع الشهاب ٢١/٧ وبغية الإيضاح ٣٢/٢ والإتقان ٢٧٩/٣ .

(٢) راجع العمدة لابن رشيق ١٤٨/٢ والأمالي الشجرية ٢٧٦/١ .

المصادر والمراجع

١- الإبهاج في شرح المنهاج للإمام علي بن عبد الكافي السبكي وولده .

٢- الإتقان : السيوطي .

٣- أثر النحاة في البحث البلاغي : دكتور عبد القادر حسين .

٤- الاستغناء في أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافي .

٥- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني .

٦- أسرار ترتيب القرآن .

٧- أسرار التكرار : الكرماني .

٨- أساس البلاغة : الزمخشري.

٩- الأسس الجمالية دكتور عز الدين إسماعيل .

١٠- أسس النقد الأدبي دكتور أحمد بدوي .

١١- الأسلوب : الشايب.

١٢- الأطوال : العصام .

١٣- الإعجاز البلاغي : دكتور محمد أبو موسى .

١٤- الإعجاز البياني دكتورة بنت الشاطئ .

١٥- الإعجاز القرآني للباقلاني .

١٦- إعجاز القرآن : الرافعي.

١٧- الأقصى القريب : التنوخي.

١٨- الأمالي الشجرية : ابن الشجري .

١٩- أمالي المرتضى .

٢٠- أمين الخولي في مناهج تجديده : دكتور كامل سعفان .
٢١- أنوار الربيع : ابن معصوم المدني .
٢٢- الإيضاح : القزويني .
٢٣- الإيمان : ابن تيمية .
٢٤- البحر المحيط : أبو حيان .
٢٥- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية .
٢٦- البديع : ابن المعتز .
٢٧- بديع القرآن ابن أبي الإصبع .
٢٨- البرهان : الزركشي .
٢٩- بصائر ذوي التمييز : الفيروزبادي .
٣٠- البلاغة تطور وتاريخ دكتور شوقي ضيف .
٣١- بلاغة العطف في القرآن دكتور عفت الشرقاوي .
٣٢- البلاغة القرآنية دكتور محمد أبو موسى .
٣٣- البيان العربي : دكتور بدوي طبانة .
٣٤- البيان والتبيين : الجاحظ .
٣٥- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة .
٣٦- تحت راية القرآن : الرافعي .
٣٧- تحفة الأريب : أبو حيان .
٣٨- ترجيح أساليب القرآن : محمد بن المرتضى اليماني .
٣٩- التصوير الفني ـ سيد قطب .
٤٠- تفسير أبي السعود : إرشاد العقل السليم .
٤١- تفسير الآلوسي : روح المعاني .

٤٢- تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب .
٤٣- تفسير الرازي : التفسير الكبير .
٤٤- تفسير سورة النور : ابن تيمية .
٤٥- تفسير سورة الفاتحة : محمد عبده .
٤٦- تفسير الطبري جامع البيان .
٤٧- تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة .
٤٨- التفسير القيم لابن القيم جمع محمد أنيس الندوي .
٤٩- التفسير الكشاف : الزمخشري بحاشية السيد .
٥٠- تفسير النيسابوري : غرائب القرآن .
٥١- تقرير الإنبابي .
٥٢- جواهر البلاغة : الهاشمي .
٥٣- جواهر الكنز لنجم الدين أحمد بن الأثير .
٥٤- حاشية الدسوقي .
٥٥- حاشية السيد علي الكشاف .
٥٦- حاشية السيد على شرح الكافية .
٥٧- حاشية الشهاب على البيضاوي .
٥٨- حاشية عبد الحكيم .
٥٩- الحيوان للجاحظ .
٦٠- درة التنزيل : الإسكافي .
٦١- درة الغواص : الحريري .
٦٢- دفاع عن البلاغة : الزيات .
٦٣- دقائق التفسير لابن تيمية جمع دكتور محمد السيد .

٦٤- دلائل الإعجاز : عبد القاهر .
٦٥- دلالات الألفاظ : دكتور إبراهيم أنيس .
٦٦- دلالات التراكيب : دكتور محمد أبو موسى .
٦٧- الرمز والرمزية : دكتور محمد فتوح .
٦٨- الرمزية في الأدب : درويش الجندي .
٦٩- الروض الأنف : أبو القاسم السهيلي .
٧٠- سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي .
٧١- شرح المفصل لابن يعيش .
٧٢- شرح الكافية للرضي .
٧٣- الصناعتين للعسكري .
٧٤- الصورة الفنية : دكتور جابر عصفور .
٧٥- ضياء الدين بن الأثير : دكتور زغلول سلام .
٧٦- الطراز للعلوي .
٧٧- الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي .
٧٨- عبد القاهر الجرجاني : دكتور أحمد بدوي .
٧٩- عباس العقاد ناقدًا : دكتور عبد الحي دياب .
٨٠- علوم البلاغة : المراغي .
٨١- العمدة : ابن رشيق .
٨٢- عيار الشعر : ابن طباطبا .
٨٣- غريب القرآن : السجستاني .
٨٤- الفن القصصي في القرآن : دكتور محمد خلف الله .
٨٥- في النقد الأدبي : دكتور شوقي ضيف .

٨٦- فوائد في مشكل القرآن : عز الدين بن عبد السلام .
٨٧- قضية الإعجاز القرآني : دكتور عبد العزيز عرفة .
٨٨- قضايا النقد : دكتور العشماوي .
٨٩- القاموس المحيط .
٩٠- الكتاب : سيبويه .
٩١- لسان العرب : ابن منظور .
٩٢- اللغة الشاعرة : العقاد .
٩٣- المثل السائر لابن الأثير .
٩٤- المحصول للرازي .
٩٥- مدخل إلى علم الأسلوب : دكتور شكري عياد .
٩٦- مدخل إلى القرآن : دكتور محمد عبد الله دراز .
٩٧- مشاهد القيامة : سيد قطب .
٩٨- المطول : سعد الدين التفتازاني .
٩٩- معترك الأقران : السيوطي .
١٠٠- معجم ألفاظ القرآن : مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
١٠١- معجم المصطلحات البلاغية : ط دكتور أحمد مطلوب .
١٠٢- المعجم المفهرس محمد فؤاد عبد الباقي .
١٠٣- معجم مقاييس اللغة : ابن فارس .
١٠٤- معنى لا إله إلا الله رسالة للزركشي .
١٠٥- معاني الحروف للرماني .
١٠٦- مغني اللبيب لابن هشام .
١٠٧- مفتاح العلوم : السكاكي .

١٠٨- مفردات الراغب .
١٠٩- من أسرار اللغة : دكتور إبراهيم أنيس .
١١٠- من الإعجاز البلاغي : دكتور صباح دراز .
١١١- من بلاغة القرآن : دكتور أحمد بدوي .
١١٢- منهج الزمخشري في تفسير القرآن : دكتور الجويني .
١١٣- من الوجهة النفسية : دكتور محمد خلف الله .
١١٤- النبأ العظيم : دكتور محمد عبد الله دراز .
١١٥- نظم الدرر : البقاعي .
١١٦- نظرية اللغة في النقد العربي : دكتور عبد الحكيم راضي .
١١٧- نقد النثر : قدامة بن جعفر .

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٥
الإنشاء	٩
أسلوب الأمر	١٧
المعاني البلاغية لصيغة الأمر	١٨
١- إثارة التأمل والاعتبار	١٩
الفعل «نظر» دلالة وموازنة	١٩
قضية التأمل والاعتبار في القرآن	٣٢
التكذيب	٤٢
الإهانة	٤٥
التسخير والنكال	٤٦
التكوين	٤٧
التسوية	٥٢
التهديد	٥٣
التعجب	٥٤
التمني	٥٤
الدوام	٥٥
الدعاء والتضرع	٦٠
النهي	٦٤

عود على الصفة في النفي والنهي..... ٧٧
فعل الأكل بعد النهى في القرآن..... ٧٩
بين النهي عن القرب والاعتداء..... ٨٢
النهي عن كون على صفة..... ٨٣
ضرب آخر من النفي..... ٨٨
الصفة للتأكيد لا للتقييد..... ٩٠
نفي الشيء لنفي ثمرته..... ٩١
تبادل الأساليب..... ٩٥
بين النفي والنهي..... ٩٦
الاستفهام القرآني..... ٩٩
مناهج البحث في الاستفهام القرآني..... ٩٩
أصوله البلاغية ودلالة أدواته..... ١٠٢
أدوات الاستفهام ودلالاتها الحقيقية واستعمالاتها..... ١٠٤
استعمال الهمزة..... ١٠٤
هل..... ١٠٦
الاستفهام الحقيقي في القرآن..... ١١٢
المعاني البلاغية للاستفهام القرآني..... ١١٦
الإنكار..... ١٢٠
قضايا قرآنية في الإنكار..... ١٢٢
الإنكار الأخروي..... ١٤٦
القرآن وصدق الرسل..... ١٤٧
قضية البعث..... ١٤٩
الإنكار بغير الهمزة..... ١٥٧

من ردود القرآن..... ١٦٣
متفرقات في الإنكار..... ١٧٥
الإنكار : خصائص وملاحظات..... ١٨٠
المنكر في أساليب الاستفهام..... ١٨٣
التقرير..... ١٨٧
وحدانية الذات والصفات..... ١٨٨
ألوان أخرى من التقرير..... ٢٠٤
فعل العلم ونحوه..... ٢٠٦
التقرير والتوبيخ للمكذبين..... ٢١١
أنبياء الله تعالى..... ٢١٤
من أسلوب الموازنة في القرآن..... ٢١٨
التعجب..... ٢٢٤
استفهامات المعذبين..... ٢٢٨
مع المؤمنين..... ٢٣٠
الهمزة وفعل الرؤية..... ٢٣٦
بلوغ التعجيب مداه..... ٢٤٢
الاستفهام بمعنى الأمر..... ٢٤٣
استفهام التمني..... ٢٤٦
استفهام التشويق..... ٢٤٧
النداء..... ٢٥٤
التمني..... ٢٦٠
المصادر والمراجع..... ٢٦٢
محتويات الكتاب..... ٢٦٧